

دوستويفسكي

الفقراء

المركز الثقافي العربي

دوستويفسكي

الفقراء

ترجمة: أحمد الويزي



المركز الثقافي العربي



دوستويفسكي

الفقراء

الكتاب

الفقراء

تأليف

دوستويفسكي

ترجمة

أحمد الويزي

الطبعة

الأولى، 2015

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-794-0

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

أوه، يا لهؤلاء القصّاصين! بدل أن يقصّوا على النّاس شيئاً ينفعهم ويمتِّعهم، ينكبّون على فضح جميع خفايا الحياة وأسرارها!... [لو أستطيع]، لمنعتُ عنهم الكتابة!... تصوّروا معي: ما النتيجة التي قد تترتب عن ذلك؟! حين يقرأ المرء [ما يكتبه هؤلاء]، ينكبّ بشكل غير إرادي على التفكير... وإذا بكافة الأفكار العجيبة والغريبة تحلّ بذهنه!... لا، أنا بحقّ، كنتُ سأمنع عنهم الكتابة. كنت سأمنع عنهم نشر أي شيء ممّا يكتبون.

الأمير ف. ف. أودويفسك

8 أبريل.

عزيزتي التي لا تقدّر محبّتها بثمن، فارفارا أليكسييفنا،

كنتُ البارحة منشرح النّفس بشكل كبير، فاضت معه دواخلي بالسعادة! لقد قبلتِ أن تصغي إليّ أيتها العنيدة، ولو لمرّة واحدة في حياتك على الأقل، وأن تفعلي ما طلبته منك! استيقظتُ مساء البارحة إذن، حوالي السّاعة الثامنة (وأنتِ تعلمين، يا أميْمَتي، بأني أحبّ أن أنام مقدار ساعة أو ساعتين، حين أعود من العمل)، وأشعلتُ شمعة، وجهّزتُ بعض الأوراق، وبريْتُ الرّيشة؛ فإذا بي أرفع رأسي بالصدفة، ليأخذ وجيبُ قلبي حقاً في الخفقان داخل صدري، بقوّة وسرعة شديدتين! إذن، لقد أدركتِ ما ظللتُ أرغبُ فيه، وما بات قلبي يبتغيه! لاحظتُ بأن جزءاً من ستارة نافذتك قد أزيح، وشُدّ إلى أصيص البلسمينة، تماماً مثلما سبق أن ألمحتُ لك بذلك، في المرة السّابقة! وقد ذهب بي التوهّم في تلك اللحظة، إلى حدّ الاعتقاد بأنّي لمحتُ وجهك الصّبوح من خلال النّافذة؛ وبأنّك كنتِ تنظرين إليّ من غرفتك، وتفكّرين فيّ. ولَكَم كان إحباطي شديداً يا ملاكي الصغير، حين لم أتمكّن من رؤية ملامح محيّاك

العذب، بالدقّة اللازمة! لقد انقضى ذلك العهد الذي كان فيه بصري حادّاً أنا أيضاً، يا أميْمَتي. من المحزن أن يشيخ المرء، يا صديقتي الطّيبة! أنا في هذه اللحظة مثلاً، أرى بكيفية مضطربة؛ ويكفيني أن أشتغل قليلاً في المساء، وأن أكتب بضعة أسطر، لتحمرّ عينيّ في صبيحة اليوم الموالي، وتدمعا، فيدفعني سيلان الدمع بتلك الطريقة، إلى الشعور بالخجل أمام الناس، لكن ابتسامتك، تلك الابتسامة الصغيرة المحبوبة، أنا رأيتها في خيالي يا ملاكي الصغير، فكان أثرها عليّ كأثر ضوء أشعّ في سويداء روحي. فاستبدّ بفؤادي الشعور نفسه، الذي أحسستُ به يومها، حين قبّلتك يا فارينكا؛ أتذكرين ذلك، يا ملاكي الغالي؟ وقد ذهب بي الخيال إلى حدّ الاعتقاد بأنك كنت يا عزيزتي الغالية، تهدّدينني بسبابتك من خلف النافذة! فهل حدث ذلك منك بالفعل، أيتها العفريتة؟ ينبغي ألّا تغفلي عن ذكر كلّ هذا في رسالتك، بالتفصيل اللازم.

لكن بالمناسبة، كيف وجدتِ فكرتي بشأن ستارة نافذتك، يا فارينكا؟ أليست في الحقيقة فكرة لطيفة جدّاً؟ فحين أنكبّ على العمل، أو أضطجع، أو أستيقظ كذلك، أدركُ في الحين بأنّك تفكّرين فيّ أيضاً، وتذكُرينني، وتتمتّعين بعافية كاملة وبمزاج رائق. وإذا ما أسدلتِ السّتارة، فإنّ ذلك معناه: «الوداع يا ماكار ألكسييفيتش، فقد حان وقت النوم!». وحين تزيحينها مرّة أخرى، فإنّ ذلك يكون معناه أنْ: «عِمْ صباحاً يا ماكار ألكسييفيتش، هل نمت جيّداً؟»، أو: «كيف هي حال صحتك اليوم، يا ماكار ألكسييفيتش؟ أما أنا ولله الحمد، فبصحّة جيّدة، وأنعم بالسعادة!». ها أنتِ ترين يا روحي الغالية، كيف اهتديتُ إلى هذه الفكرة العبقرية، لنتواطأ فيما بيننا! بفضلها، لم نعُد نحتاج إلى الكتابة، لنتواصل! أليس هذا

بخارق؟! وإنّه لفكرتي، فكرتي أنا! اعترفي بأني حاذق في مثل هذه الأمور؛ أليس كذلك، يا فارفارا أليكسييفنا؟!

ينبغي لي أن أخبرك يا أُمَيْمَتي، فارفارا أليكسييفنا، بأني نمتُ على عكس ما توقّعته، نوماً رائقاً هذه الليلة، وهو ما جعلني أشعر بغبطة عارمة؛ إذ لا ينام المرء بشكل جيّد، في الشقّة الجديدة التي يقيم فيها ليلته الأولى. إنّ النوم بالطبع هو النوم، لكنه لا يكون كذلك، في الليلة الأولى! والحال أني استفقت هذا الصّباح، وأنا كلّي حيوية ومرح مثل الصقر؛ ولَكَم كان هذا ممتعاً! ألا ما أجمل صباح هذا اليوم، يا أُمَيْمَتي! فتحتُ نافذة البيت، فإذا بالشمس المشرقة تلمع، والطيور تغرّد، والهواء أشبع بروائح الربيع الشّذية. يبدو أن الطبيعة تنبعث من جديد، ويحيا كل شيء ممّا تبقى في الوجود بشكل كامل. كل شيء يجري وفق قوانين الطبيعة الحية، مثلما تجري الأمور في فصل الربيع. وقد ذهبت بي شدّة الحيوية والمرح صباح هذا اليوم، إلى حدّ الحلم بشكلٍ رائق، وكانت أحلامي منشدة إليك أنتِ، يا فارينكا. قارنتُك بطائر صغير من طيور السّماء، خُلِق كي يشيع الفرح في قلوب البشرية، وليضفي الجمال على العالم. رأيتُ في ذلك الحلم يا فارينكا، بأنّ علينا نحن معشر البشر، الذي يعيش في كنف الهمّ والاضطراب، أن نغبط طيور السّماء البريئة، وغير المكترثة لنا؛ وقد جرت كافة أنواع حلمي على هذا المنوال بالذات. وأودّ القول بأنّي استمرَرْت أعقد في حلم يقظتي، مثل هذه المقارنات الخارقة. لديّ هنا كتابٌ يا فارينكا، يحكي بالضبط عن هذه الأشياء نفسها، ويستعمل ألفاظاً شبيهة بهذه. وإذا ما كنتُ أكتبُ إليك خلال هذه اللحظة، فلكي أقول لك بأنّ أحلام يقظتنا يمكن لها أن تكون مختلفة بعضنا عن بعض، يا أُمَيْمَتي.

نحن الآن في فصل الربيع؛ لذلك، فإنّ الأفكار التي تستبدّ بي هي أفكار سائغة وحادّة وموخزة جدّاً؛ وأشعر بأني مجتاح بأفكار رقيقة وعذبة كذلك. كلّ شيء يبدو لي في حلّة ورديّة اللون. لهذا وددتُ أن أقول لك هذا. ولقد أخذت بالتحديد، كلّ هذا من ذلك الكتاب. إنّ المؤلّف يعبّر عن هذه العواطف نفسها شعراً، حين يقول:

ليتني كنتُ طائراً، طائراً من الطيور الكبيرة الجارحة... إلخ.

ثمة في هذا الكتاب أفكار أخرى، إنّما لماذا ننسخها؟ أخبريني بالأحرى يا فارفارا ألكسييفنا، إلى أين ذهبتِ هذا الصباح؟ لم أنطلق أنا بعدُ إلى العمل، حينما خرجتِ من غرفتك مثل عصفور صغير من عصافير فصل الخريف، يخرج من وكره باكراً ليحلق عالياً في عنان السماء؛ واجتزتِ فناء البيت، وقد غمركِ فرح شديد. ولكمْ سعدتُ في تلك اللحظة، وأنا أرنو إليك وأنت على تلك الحال! آهٍ، يا فارينكا، فارينكا! لا تركتني إلى الحزن، ولا تنتحبي، فإنّ الدمع لا يجدي؛ أنا أعرف ذلك يا أميمتي، أعرفه معرفة الخبير. هادئة جداً حياتكِ الآن، وصحتك قد تحسّنتْ بعض الشيء، لكن بالمناسبة، كيف هي حال فيدورا؟ آه! يا لها من امرأة شهمة! أنتظر منكِ أن تكتبي إليّ يا فارينكا، لتخبريني عن الكيفية التي تعيشان عليها الآن سوية، وهل أنتما مسرورتان بشأن كلّ شيء. إنّ فيدورا - مثلما أعلم ذلك - لامرأة شرسة بعض الشيء، لكن لا ينبغي لك أن تعبئي بهذا، يا فارينكا. يتعيّن عليك أن تغفري لها، لأنها طيّبة للغاية!

لقد سبق لي أنّ حدثتكِ عن صاحبتنا تيريز، المرأة التي تقوم على خدمتنا هنا، فهي إنسانة طيبة وموثوق بها. لقد كنتُ منشغل البال كثيراً بشأن الرسائل التي أكتبها، وشدّ ما تساءلت عن الكيفية التي من شأنها أن تصل بها إليك. فإذا بالرّب يبعث لي بتيريز، حتى

تكتمل سعادتنا. إنها امرأة طيبة، وعذبة المعاشرة، ولا تتكلم كثيراً. إلّا أنّ صاحبة البيت ليس لها حقاً، قلب رحيم بها. فهي ترهقها بالعمل المتواصل، وتعاملها مثلما تُعامَل الأمَة السوداء.

لو أنّك تتصورين في أي جُحر وقعتُ، يا فارفارا ألكسييفنا! يا لها من شقّة! كنتُ كما تعلمين في السابق، أعيش في وسطٍ يغطّي عليه الهدوء والصمت، مثلما يعيش الناسك الزّاهد، إلى حدّ أنّ الذبابة لا تقوى على التحليق هناك، دون أن يُسمَع طنينها. أمّا هنا فعلى العكس، ثمة ضوضاء وصراخ وجلبة لا تنتهي! لكنني لم أصف لك بعد، طبيعة المكان هنا. تصوّري أولاً على سبيل المثال، ممرّاً طويلاً ومعتماً جدّاً وفي غاية القذارة. على يمين ذلك الممرّ، ثمة جدارٌ عارٍ، وعلى يساره أبواب متوالية مثلما هي الحال في الفنادق. تلك هي الغرف التي تُكتَرى إذن، ويصل عدد السكان في الحجرة الواحدة إلى شخصين، أو ثلاثة أشخاص. أما في ما يتعلق بالنظام والترتيب، فلا ينبغي لك أن تبحثي عن شيء من ذلك، لأنّ هذه الدار هي بمثابة سفينة نوح! ومع ذلك، ينبغي أن أعترف بأنّ السكّان المقيمين هنا، يبدون طيّبين ومتعلمين وعلى جانبٍ لا يُستهان به من التكوين العلمي. هناك من بينهم مستخدمٌ (يؤدّي عملاً أدبياً معيناً)، وهو شخص علّامة بشكل كبير: يتحدث عن هوميروس مثلاً، وعن برامبيوس، وعن كُتاب كثيرين آخرين، لأنه على دراية بكلّ شيء، وهو إنسان ألمعي، متّقد الذكاء! وهناك كذلك ضابطان في الجيش، لا يمارسان أيّ شيء آخر، عدا لعب الورق في كلّ وقت. ثم هناك ملازم في البحرية، وقاطن إنجليزي يعطي بعض الدروس في تعلّم اللغة الإنجليزية. اسمعي، انتظري رسالتي القادمة يا أميمتي، التي سأسليك فيها بوصفهم وصفاً ساخراً، بمعنى أني سأفصّل القول في

وصفِ كلّ شخص منهم على حدة. أما ربّة البيت فهي امرأة مسنّة، وقصيرة جداً، وقذرة للغاية، تقضي اليوم كله في تقريع تيريز ليل نهار، وهي لا تنتعل سوى الخفّ، ولا ترتدي غير ثيابها المنزلية العادية. أما أنا فأسكن في المطبخ، أو أني - حتى أشرح لك بكيفية جيّدة ذلك - أسكن ثمة بالقرب من المطبخ، في غرفة صغيرة (وينبغي أن أذكر لك بأن المطبخ عندنا، نظيف ومضيء وجميل جدّاً)، وهي بمثابة ركن صغير ومتواضع... أو، حتى أفصّل في القول بدقّة أيضاً، هي مطبخ فسيح جدّاً، ينفُذ إليه ضوء النهار من ثلاث نوافذ، ومقطوع على مستوى العرض بفاصل، ممّا يُعطي الانطباع بأن هناك غرفة أخرى جديدة، غرفة زائدة؛ إنه مسكن متّسع ومُريح، ومزوّد بنافذة، ويتلاءم مع حاجياتي بشكل تامّ. كذلك هو مأواي إذن، ومن ثم لا ينبغي لك يا أميمتي، حين تسمعين بأني أسكن في مطبخ، أن يذهب ذهنك إلى تأويل هذا الكلام تأويلاً غريباً، ولا أن تعطيه ما لستُ أدري من المعاني الغامضة والخفيَّة. لماذا أسكن ما يُدعى مطبخاً؟ صحيح أني أسكن هذه الغرفة الآن، بمعنى أقطن وراء ذلك الفاصل تحديداً، إنما ليس في ذلك أيُّ ضير. لدي ركن خاص أعيش فيه، وأنزوي إليه بعيداً عن الآخرين، وأمارس فيه حياتي الهادئة والخاصة. في ذلك الركن الخاص بي، وضعتُ سريراً، ومنضدة، وخزانة بأدراج، وكرسيين، وعلَّقت في الحائط أيقونة. ثمة دون شك، مساكن أجمل بكثير من مسكني، وأرفع منه؛ إنما الأساسي في كلّ ذلك هو راحة البال، قبل كل شيء؛ ذلك أني ما اخترت هذا الركن، إلّا لأنه مريح، ومن ثمة لا ينبغي أن يذهب بالك إلى أني اخترته لأسباب أخرى. إنّ نافذتك الصغيرة لتقعُ في مقابل نافذتي مباشرة، ولا تفصل بيننا إلّا ساحة،

وهي ساحةِ صغيرة؛ وأنا أراك حين تجتازينها؛ وهو الأمر الذي يجعل الحياة حينها، بالنسبة إلى بائس مثلي، أدعى للغبطة والفرح؛ إلى جانب أن هذا المسكن يساعدني، من حيث التحكّم في المصاريف، في الحدّ من النفقات. إنّ أجرَ أبسط غرفة بهذا المأوى، إلى جانب ثمن الطعام، يصل إلى خمسة وثلاثين روبلاً، وهو ما يتجاوز إمكاناتي! إني أدفع سبعة روبلات ورقية أجراً لحجرتي، بالإضافة إلى خمسة روبلات فضية ثمناً للطعام، وهو ما مجموعه أربعة وعشرين روبلاً ونصف الروبل، بينما كنت في السابق أدفع ثلاثين روبلاً، وأحرم نفسي في المقابل، من الكثير من الأشياء؛ إذ لم أكن أشرب الشاي يومياً. بينما صرتُ اليوم، أجد عندي ما يمكّنني من المال، لشراء الشاي والسكّر. أتعلمين يا عزيزتي بأني كنت سأشعر بكثير من الإزعاج، لو أني لا أستطيع شرب الشاي هنا؟! إنّ جميع المستأجرين ميسورون، وهو ما قد يُخجلني أمامهم. أنا أشربه يا فارينكا بسببهم، حفاظاً مني فقط على المظهر العام، وعلى اللياقة؛ في حين أني لو خُيّرت بشكل خاص، لما شربته، لأني لست من المدمنين عليه. علاوة على هذا، ينبغي توفير بعض المال جانباً، وهو القدر الذي لا بد من توفيره على كل حال، من أجل إنفاقه في شراء بعض الحاجيات الضرورية، التي يكون من بينها دائماً، شراء بعض الأحذية واللباس؛ ومن ثمة، ماذا سيفْضَل لدي، إذن؟ ستجدين بأن كلّ راتبي قد نفد. أوه! أنا لا أشكو من شيء، لأني على العكس راضٍ، ما دام أنّ ما أحصل عليه يكفيني بشكلٍ كبير. وإنّ حالي لكذلك، من سنوات خلت. ثم إني لأحصل على بعض المكافآت كذلك، بين الفينة والأخرى. والآن، الوداع يا ملاكي الصغير. لقد اشتريتُ أصيص بلسمينة وأصيص إبرة

الرّاعي، بثمن زهيد. لكن، لعلك تحبين كذلك، زهرة الحُزام؟ هناك زهرات منها في المحلّ الذي اشتريت منه ذلك؛ لهذا، أخبريني في رسالتك عن رغبة في ذلك. اكتُبي إليّ عن كل شيء، بكل ما أمكنكِ من التفاصيل اللازمة. بالمناسبة، لا تُقلقي بالك من ناحيتي، يا أميمتي، ولا من ناحية الحجرة التي اكتريتُها. لا، إن راحة البال وحدها هي التي اجتذبتني، ولم أصمّم على ذلك إلّا بسبب هذا. أنا أدّخر يا أميمتي بعض المال جانباً؛ فلا تعدّيني مسكيناً، من شأن ذبابة أن توقعني أرضاً، برفقةٍ واحدة من جناحيها. لا، يا أميمتي، أنا لستُ أبله، إذ إنّ لي طبعاً جديراً بإنسان صلب الشكيمة ورابط الجأش. الوداع، يا ملاكي الصغير! لقد حبّرتُ ما يُقارب ورقتين، وآن الأوان لأمضي إلى عملي. أقبّل أناملك الرقيقة، يا أميمتي، وأظلّ خادمك الذليل، وصديقك الأمين.

ماكار دييفوشكين.

استدراك: لدي رجاء أتوسّل به إليك: ردّي عليّ يا ملاكي الصغير، بأطول ردّ ممكن. إني أبعث إليك رفقة هذه الرسالة، يا فارينكا، برطلٍ من الحلوى؛ وألتمس منك أن تشرِّفيني بقبوله مني، وتلتهميه؛ وأناشدك الله ألّا تقلقي من ناحيتي، وألّا تحزني. أما الآن، فالوداع، يا أميمتي!

8 أبريل.

عزيزي السيد ماكار ألكسييفيتش،

هل تعلم أننا سننتهي بالتأكيد، إلى أن نتخاصم؟ أقسم لك يا عزيزي الطيّب ماكار ألكسييفيتش، بأنه قد عزّ عليّ قبول الهدايا

منك. أنا على علمٍ تام بما تكلّفك تلك الهدايا، وبما تفرضه على نفسك من تضحياتٍ كبيرة، حتى تهدينيها، وبما تحرم به نفسك - حين تكفّها - عن حاجياتها الضرورية. فكم مرّة قلت لك إني لا أحتاج إلى شيء، ولا أحتاج على الإطلاق إلى شيء، وبأني لست قادرة إلى حدّ الآن، حتى على ردّ الجميل الذي غمرتني به، مثلما يغمر المطر الأرض؟ فلماذا تبعث إليّ بتلك الأصص؟ ثم لنفترض أني قبلت أصيص البلسمينة، إنما لماذا تتكلَّف عنت شراء عصا الرّاعي؟ فهل يكفي أن تفلت منّي كلمة واحدة صغيرة، تخرج دون انتباه منّي إليها، كما حصل مع عصا الرّاعي، لتسارع أنت إلى شرائها؟! لا شك أن هذه الزّهرة كلّفتك كثيراً. ومع ذلك، فما أجملها! حمراء وموشّاة بصلبان صغيرة. من أين حصلت على هذه الزهرة الجميلة، يا عزيزي؟ لقد وضعتها وسط النافذة، في مكان تظهر فيه جليّة أكثر للعَيان، ووضعتُ مرقاة فوق الأرضية، وسأضع على المرقاة المزيد من الأزهار الأخرى. إنما، انتظر فقط، إلى أن أصبح غنية، بدوري! فيدورا شديدة الفرح؛ وكأنّ غرفتنا الآن صارت جنة: كل شيء فيها نظيف ومُضاء! إنما، لماذا الحلوى كذلك؟ حقّاً، لقد حزرت للتو، وأنا أقرأ رسالتك، بأنك لست مرتاحاً: تتحدّث عن الجنّة، وفصل الربيع، والروائح الفوّاحة التي تتطاير في الأجواء، والعصافير الصغيرة التي تغرِّد. ما كلّ هذا؟ قلت في نفسي. لا ينقص هذه الرسالة سوى بعض الأبيات الشعرية! لا ينقصها حقاً، يا ماكار ألكسييفيتش، سوى بعض الأبيات الشعرية! أما العواطف الرقيقة والجيّاشة، والأحلام الوردية، فهي موجودة فيها بكثرة! أما في ما يتعلق بالسّتارة، فإني ما فكرتُ حتى في إزاحتها؛ هي بلا شك، عُلِّقت هناك بمفردها،

حين غيّرت موضع الأصص. وإني لأقرّ لك بهذا الآن، من باب الصراحة!

آه، يا ماكار ألكسييفيتش! مهما حاولت القول، ومهما جَرَدْتَ أمامي قائمة مواردك المالية، قَصْد جعلي أعتقد في أنّ كافة تلك الموارد قد توزّعت بشكل حصري على حاجياتك، فإنك لن تفلح أبداً في مخادعتي. من البديهي جدّاً، أنك تحرم نفسك من بعض الضروريات، من أجلي أنا. وأيّ فكرة بلهاء تلك التي راودتك مثلاً، حين اتَّخذتَ لك مثل ذلك الجحر الذي وصفته مأوى؟ إنك لتجعل نفسك عرضة للإزعاج والتضييق، في كلّ لحظة وحين. ثم تقول إنك تحبّ العزلة، بينما أنت في خانٍ مكتظ! والحال أنه كان بوسعك أن تسكن في مكان أفضل من هذا بكثير، نظراً إلى الرّاتب الذي تتقاضاه. قالت فيدورا إنك كنت في ما مضى، تعيش أحسن ممّا تعيش عليه الآن. فهل من الممكن أن تكون قضيت حياتك على هذه الكيفية، في العزلة والحرمان، ودون فرح أو كلام ودّي من صديق، وأنت تقيم في ركن ضيق بين غرباء؟! آه، لشدّ ما أرثي لحالك، يا صديقي الطيب! على الأقل، أقم الاعتبار لصحتك يا ماكار ألكسييفيتش! تقول إنّ بصرك أخذ يضعف، إذن، تجنّب الكتابة على ضوء الشمع. ثم، ما الغاية حتى من الكتابة؟ إن حماستك للعمل أصبحت دون شك، معروفة من قَبْل لدى رؤسائك، بما فيه الكفاية.

أتضرّع إليك مرّة أخرى: لا تنفق كلّ ذلك المال الكثير من أجلي. أنا أعرف بأنك تحبني، لكنك كذلك لست غنياً... كنتُ اليوم أنا أيضاً، في غاية من الغبطة، حين استيقظت من النوم. لقد شعرتُ بسعادة وفرح غامرين جدّاً. كانت فيدورا قد شرعت تعمل منذ وقت لا يُستهان به، وحين استفقتُ، منحتني بعض ما كانت

تعمل فيه لأتمّه. كنت فرحة بذلك، ولم أخرج إلّا لشراء الحرير، ثم شرعت في العمل بعد ذلك، فوراً. خلال الصباح كله، شعرتُ بخفة في الروح، وكنت سعيدة للغاية؛ لكن الخواطر السوداء عادت الآن لتستبدّ بي، وعاد الحزن وانشغال البال يسيطران على مجامع قلبي.

آه، يا ربّي! ماذا سأصير؟ وماذا سيكون مصيري؟ من القسوة بالنسبة إليّ، أن أعيش ضمن دائرة الحيرة، التي تشبه هذه، وألّا يكون لي أيّ مستقبل، وألّا أستطيع حتى تخيّل ما قد يحدث لي، في المستقبل. أما إنْ حوّلت ناظريّ إلى الخلف، فإني سرعان ما أرتعب. إنّ ذكرى ذلك الماضي الأليم كافة، لكفيلة وحدها بتمزيق قلبي. لن أجد الدمع الكافي لأبكي إلى نهاية حياتي، بسبب الإساءة كلها التي ارتكبها في حقي هؤلاء الأشرار!

المساء يهبط. وينبغي عليَّ أن أستأنف العمل. وددتُ أن أطلعك على الكثير من الأمور، لكن الوقت لا يتّسع؛ لدي شغل مستعجل، ويحسن بي أن أسرع في إنجازه. الرسائل شيء رائع من دون شك، لأنها تجعل الحياة أقلّ سأماً وضجراً؛ لكن، ألا تزورنا أبداً؟ لماذا لا تجيئنا أبداً، يا ماكار ألكسييفيتش؟ نحن جيران، وقد يتفق أن تجد في بعض الأحيان، لحظة من لحظات الفراغ. أرجوك أن تأتي. لقد رأيت صاحبتك تيريز. بدت لي وكأنها مريضة للغاية، فأشفقتُ لحالها، وأعطيتها عشرين كوبيكاً. آه، أجل! كدتُ أنسى: لا تنس أن تفصّل القول ما أمكنك ذلك، بخصوص طبيعة حياتك. مَن هم هؤلاء الذين يحيطون بك؟ وهل أنت على وفاقٍ تام معهم؟ إني لأتمسَّك كثيراً بمعرفة كلّ هذا. ولا تنس أن تكتبه لي، أفهمت؟! سأرفع اليوم بشكلٍ متعمّد، زاوية من ستارة النافذة. لا تتأخّر عن موعد النوم، إذ رأيت البارحة بأنّ نور غرفتك بات مُضاء، إلى غاية

منتصف الليل. إذن، الوداع. أنا اليوم قلقة، وضجرة، وحزينة. ثمة على ما يبدو، أيام يكون فيها المرء كذلك! الوداع.

المخلصة فارفارا دوبروسيلوفا.

8 أبريل.

الآنسة فارفارا ألكسييفنا،

واحسرتاه يا أميمتي، واحسرتاه! ما ذلك منك يا صديقتي العزيزة، إلّا أمر صحيح: لقد كان نهاري شقياً بالطبع، أضيف إلى قدري الشقي! أجل... لقد سخرت منّي، سخرت مني - أنا هذا العجوز المسكين، يا فارفارا ألكسييفنا! ومع ذلك، فهي غلطتي، وأنا مَن يستحق المؤاخذة واللّوم! ما حاجتي في هذه السنّ التي بلغتُها، بعد أن لم يعُد لي غير القليل من الشعر في فروة الرأس، إلى الاندفاع صوب أمور الحبّ، والخوض في المشاعر الملتبسة؟!... يتعيّن عليّ أن أقرّ بهذا، يا أميْمَتي: الإنسان كائن غريب في بعض الأحيان، غريب ومدهش على نحوٍ قوي. وأيّ الأمور - بربّ السّماوات! - تراه ينجرّ إلى الخوض فيها، أحياناً؟! وفي ماذا يخوض، وإلى أي شيء يفضي ذلك؟ وما الذي ينجم عنه؟ إنه لا يفضي إلى أيّ شيء، إلى أي شيء على الإطلاق! لا ينجم عن ذلك سوى الحماقات والسّخافات، التي أطلب من الله أن يحميني منها! أنا لستُ غاضباً يا أميمتي، لكن ما يحرجني في هذا هو التفكير في كلّ ما كتبتُ لكِ؛ وإني لأشعر بالخجل الشديد لكوني استعملتُ في كتابتي، تلك العبارات والألفاظ التصويرية الغبيّة جدّاً! لقد كنت ذلك الصباح شديدَ الاعتداد والزّهو، وشديدَ المرح والنشاط، وقد انطلقتُ يومها أمشي صوب المكتب، وقلبي يشعّ بالنور، بعد أن

اعتنيتُ بنظافتي وهندامي. ومن غير ما داعٍ حقيقي، كانت روحي تعيش تلك الأجواء المفعمة بمشاعر الأعياد؛ لقد شعرتُ في قرار نفسي بالفرح! وهكذا، تعاطيت بوعي مني للعمل؛ لكن، ماذا أعقبَ ذلك؟ لا شيء! إذ ما أن ألقيتُ نظرة على ما حولي، حتى استعادت الأمور في عينيّ، مظهرها المعتاد على الفور، وهو المظهر الرمادي القاتم المستبدّ بالمكتب! ثمة لطخات المداد نفسها، والمنضدات نفسها التي وضعت عليها الأوراق نفسها، وأنا مثلما كنت كذلك، الشخص نفسه! كذلك كنتُ، وكذلك وجدتني؛ فما لي ونظم الشّعر؟! ومن أين نبع منّي ذلك الكلام؟! أكان سببُ كلّ ذلك هو الشمس ساطعة، والسماء زرقاء؟! أهذا ربما هو السبب؟ وكيف تسنّى لي أن أتحدث عن العطور الشذية والفوّاحة، في الوقت الذي كانت فيه ساحتنا الواقعة مباشرة تحت نافذة شقتي، تعجّ بما لا يعلم به غير الله وحده، من نفايات وأنقاض وروائح نتنة؟! بالتأكيد، لم يبدُ لي ذلك كذلك، إلّا بسبب الكسل والخمول والغباء! يا لتلك الأوهام! يمكن أن يحدث للمرء في بعض الأحيان، أن يشتطّ خياله هكذا، على حساب مشاعره الخاصة، وأن يهلوس، ويهذي. إن ذلك لا ينجم عن شيء آخر، عدا كونه ينشأ عن الحرارة المفرطة والبلهاء، التي يفيض بها قلبه. لقد عدتُ إلى بيتي، أو أني جررتُ - بدقة أكبر - قدميّ إلى أن وصلتُ إليه، إذ أصابني بغتة صداع في الرأس: تترتّب الأشياء دون شك، بعضها عن بعض (من المحتمل أن أكون أصبتُ بنزلة برد). لقد سرّني قدوم فصل الربيع، أنا هذا الأخرق الكبير، فخرجتُ لا أرتدي سوى معطف خفيف. أنتِ كذلك أخطأت التقدير يا صديقتي العزيزة، بشأن طبيعة عواطفي! لقد قمتِ بتفسيرها على نحوٍ منحرف، لانخداعك باتّقادها. إنّ دفق المشاعر

قد اتخذت لدي في الواقع، منعطفاً مختلفاً كلّ الاختلاف. إنّ العاطفة الأبوية هي التي كانت وراء أقوالي، ولا شيء غير العاطفة الأبوية الصافية والصادقة، يا فارفارا ألكسييفنا! لأنني بالفعل بمثابة والدك الآن، أيتها اليتيمة المأسوف لحالها! وإني لأقرّ لك بهذا هنا، من صميم القلب وأعماق الروح، مثلما قد يفعل من يمتّ لك بِصِلَة دموية. أعرف جيداً بأن ما ثمة إلا قرابة دموية بعيدة بيننا، تشبه نقيع الغلية السابعة من شاي قديم، مثلما يقول المثل عندنا؛ إنما ذلك غير مهم، فإذا لم تكن تربطني بك قرابة دموية، فإنّ هذا لا يعني الآن، أني لست أقرب أقربائك، وإنما الأمر عكس هذا، وأنا من تقع عليه بشكلٍ طبيعي مسؤولية حمايتك، لأنك لم تجدي الحماية والمساعدة في المكان، الذي كنتِ تأملين فيه وجود ذلك، وإنما وجدت مجرد الخيانة والقذف والسّباب. أما عن نظم الشّعر، فيجب أن أقول لك، يا أُمَيْمَتي، بأن من غير اللائق بإنسان في مثل سنّي، أن يتعاطى تلك الأمور. إنّ الشعر لَهَذَرٌ ولغو! وحتى في المدارس، يتمّ جلد الصّبيان الذين يتعاطونه، هذه الأيام... ذلك هو النّظم، يا عزيزتي!

ماذا تقصدين يا فارفارا ألكسييفنا، بحديثك عن أجواء الراحة والهدوء والعيش الرغد في شقتي، في الرسالة التي بعثتِ بها إليّ؟ أنا لستُ صعباً يا أُمَيْمَتي، ولا متشدّداً في الاشتراط، ولم يسبق لي أن عشتُ أفضل ممّا أعيش عليه اليوم، بالمرّة؛ فلماذا أصبح وأنا في هذه السّن، كثير القرف والتقزّز، وشديد التطلّع والتعلّق؟! إن طعامي مضمون، ولباسي متوفر، فما حاجتي بعد ذلك إلى البحث عن إشباع نزوات أخرى؟ أنا لستُ سليل كونت! أبي لم يكن ينتمي إلى طبقة النبلاء، كما أنه لم يكن يكسب، رغم الأعباء العائلية التي ظلَّ يرزح تحتها، مثلما أكسب أنا الآن. إنني لست بالطفل المخنّث! ومع

ذلك، وحتى أقول الحقيقة، فإن جميع ما كان في مسكني القديم كان أفضل، ولا وجه للمقارنة هنا بين سكني القديم والحالي؛ فقد ظللتُ أشعر في محلي القديم بالراحة، يا أمَيْمَتي. أمّا مسكني الحالي فهو من دون شك أحسن كذلك، وهو أكثر بهجة في نواحي كثيرة، ويقدّم - إن شئتِ - تنويعاً أكبر؛ لكني، وأنا لا أقول العكس، أتحسّر مع ذلك على سكني القديم. إننا معشر الشيوخ، لا نتمسّك سوى بالأشياء القديمة، وكأن ذلك ناجم عن تأثير عاطفة طبيعية. كان ذلك المسكن صغيراً؛ وتشبه جدرانه - وما جدوى الحديث عن ذلك؟! - سائر الجدران، وليس هذا هو المقصود؛ لكن جميع ذكريات الماضي تبعث في نفسي الحنين، وتجعلني اليوم حزيناً... ألا ما أغرب هذا الأمر! قلبي ممتلئ ببعض الثقل، لكن هذه الذكريات ما تنفكّ تبدو لي سائغة ولذيذة. وحتى ما كان يسوءني فيها، وما كان يستثير حفيظتي أيامها، كفّ عن أن يكون في تلك الذكريات شيئاً ذا بال، فصار يقدّم نفسه لخيالي من منظور جذاب. لقد عشنا في سكينة وهدوء هناك، أنا وصاحبة البيت العجوز، التي توفاها الله إلى رحمته اليوم، يا فرينكا. ها إنني الآن لا أستطيع تذكّر تلك العجوز مثلاً، دون أن أشعر بالحزن! لقد كانت امرأة شهمة، ولم تكن تستأجر مسكنها بثمن باهظ. كانت كلّ الوقت تحيك بإبرتيها الطويلتين بعض الأردية؛ وكان هذا هو شغلها الوحيد. كنّا نستضيء بشكل مشترك، أنا وهي، وننفق سوية على ذلك، فنعمل مجتمعَيْن حول المنضدة نفسها. وكانت حفيدتها ماشا تعيش في كنفها؛ ولا بد أنها صارت الآن - بعد أن عرفتها مجرد طفلة صغيرة - فتاة في الثالثة عشرة من عمرها. لقد كانت صبية عفريتة في غاية الانشراح دوماً، عادة ما تُضحكنا بأفعالها؛ وكنّا نعيش بتلك الكيفية، نحن الثلاثة. وغالباً ما كنا نجلس

في ليالي الشتاء الطويلة، حول المنضدة الدائرية، ونشرب الشاي في الفناجين الصغيرة، وبعدها ننهمك في أعمالنا. وحتى لا تُصاب ماشا بالسأم، ولكي تبقى هادئة، كانت العجوز تبدأ الجلسات برواية القصص. ويا لها من قصص، تلك التي تعرفها تلك المرأة العجوز! لم تكن تشدّ إليها الطفلة الصغيرة وحسب، وإنما كان بمقدور رجل عاقلٍ وذكي كذلك، أن يَعْلَقَ في أحابيل قصصها، وأن يصغي إليها باهتمام بالغ. كنتُ أشعل غليوني، وأصيخ السّمع إلى تلك الحكايات، إلى حدّ أن ذلك كان ينسيني عملي. أمّا الطفلة الصّبية، تلك العفريتة الصغيرة، فتصير ساهمة وشاردة؛ كانت تسند خدّها الوردي بمرفقها، وتفتح فمها الجميل والصغير، وكلّما أخذت القصّة بعداً مخيفاً شيئاً ما، إلا وازدادتْ التصاقاً بالعجوز! كانت رؤيتها على ذلك النحو، متعة بالنسبة إلينا؛ ولم نكن ننتبه، لفرط استغراقنا في ذلك الجوّ الممتع، إلى أن الشمعة تكاد تنطفئ، ولا إلى الرّيح التي تهبّ مزمجرة في الخارج. كنّا نعيش حياة سعيدة وجميلة، يا فارينكا؛ وقد قضينا على ذلك النحو، ما يقرب من عشرين سنة، لكن ما موقع هذه الثرثرة، الآن؟ لعلّ من شأن مثل هذا الموضوع أن يثير حفيظتك، مثلما قد أثارت هذه الذكريات أشجاني أنا بالذات، خاصة في هذه اللحظة، حين يهبط الغروب، وتقطع تيريز غرفتها جيئة وذهاباً، ويؤلمني رأسي، وأشعر كذلك بألم في الظهر، ويبدو أنني أعاني أيضاً من جراء ما ينتابني من أفكار غريبة جدّاً؛ أنا اليوم حزين كثيراً، يا فارينكا! ماذا كتبتِ تقولين لي، إذن، يا عزيزتي؟ كيف أجيئك زائراً؟! وماذا سيقول عنّا الناس، يا صديقتي؟ يتعيّن عليّ عبور الفناء، فيلفت ذلك انتباه الجيران، ويأخذ هؤلاء في طرح الأسئلة، وسينمّمون، وسيُساء تأويل ذلك. لا، يا ملاكي الصغير، من الأفضل

لي أن أراك غداً، على هامش صلاة المساء؛ وذلك أقرب إلى الحكمة والتعقّل، وأقلّ عرضةً للخطر، بالنسبة إلينا جميعاً. سامحيني يا أمَيْمَتي، لكوني كتبتُ لك مثل هذه الرّسالة؛ بحيث إنّي لمّا أعدتُ قراءتها، تبيّن لي كيف أنها غير منسجمة، وغير متناسقة. أنا يا فارينكا رجل مسنّ، لم أحظَ بالمعرفة ولا بالتحصيل؛ ولم تُتَحْ لي في الصّغر فرصة للتعلّم، ولا شيء الآن سيستقرّ في ذهني من أسباب المعرفة، إذا ما حاولتُ أن أتعلّم. إني لأقرّ بكوني غيرُ ماهر في التوصيف والتعبير، يا أمَيْمَتي، وأعلم بأني كلّما أردتُ كتابة أمرٍ لاذع شيئاً ما، من غير انتقاد لأحد، ومن غير تشذيب، إلا وراكمتُ السّخافات فوق السّخافات. لقد رأيتكِ في نافذتك اليوم، بينما كنت تسدلين الستارة. الوداع، الوداع؛ وليحفظك الله! الوداع، يا فارفارا ألكسييفنا.

صديقك المترفع عن كلّ غاية غير شريفة،

ماكار ديفوشكين.

استدراك: لن أهجو أحداً، يا عزيزتي. أنا رجل شاخ كثيراً، يا ماتوتشكا، فارفارا ألكييفنا، رجل فاته الرّكب، حتى يتعاطى بمثل هذه التّسلية السّاخرة. ثم إنّي لو فعلت، لسخر الناس منّي، مصداقاً لما يقوله الناس في هذا المثل الرّوسي الذائع: «مَن حفر لغيره حفرة، وقع فيها!».

9 أبريل.

السّيد ماكار ألكسييفيتش،

كيف لا تنكسف خجلاً يا صديقي ماكار ألكسييفيتش، يا أيها

الصديق الذي لا يفتأ يكرمني ويُحسن إليّ، لكونك تغتمّ هكذا، ودون سبب؟! هل من الممكن أن تكون قد شعرت بجرح في كبريائك؟! آه! غالباً ما أكون أنا طائشة وعديمة التبصّر، لكن لم أعتقد بأنك كنت سترى في كلامي، استهزاء مشيناً. تأكّد بأني لن أسمح لنفسي بالكل، بأن أمزح بخصوص سنّك وطبعك. إنّ مردّ كلّ هذا إلى سفاهتي، خاصة وأني أصاب بالضجر الفظيع؛ والحال، أنّ المرء كلما أصابه السّأم، إلا ويكون قادراً على ارتكاب حماقات كثيرة. إلا أني قدّرتُ بأنك كنت ترغب، أنت كذلك بالذات، في أن تسخر في رسالتك. لقد صرتُ حزينة للغاية، لمّا أدركتُ مدى العنت الذي تسبّبتُ لك فيه. لا، لا يا صديقي الطيّب، ويا سابغ النّعمة عليّ، أنت تخطئ، إذا ما ظننتَ بأني عديمة الشعور، وقليلة الوفاء. أنا أعرف كيف أقدّر في أعماق قلبي، كلّ ما فعلته من أجلي، بحمايتك لي من الأشرار الذين ظلوا يضطهدونني، ويكرهونني. سأظلّ أدعو لك في صلواتي طيلة الحياة، وإذا ما وصلت دعواتي إلى الله، واستجاب لها، فستكون سعيداً.

أنا اليوم مريضة للغاية. أشعر بين الفينة والفينة، بحمّى وقشعريرة. فيدورا قلقة جدّاً بشأني. أنت مخطئ لعدم تجرُّؤك على زيارتنا، يا ماكار ألكسييفيتش! ما دخل الآخرين في هذا الأمر؟ نحن نعرف بعضنا، وهذا كافٍ لوحده!... الوداع، يا ماكار ألكسييفيتش. لم أعُد أدرك ما أكتبه لك؛ زِدْ على ذلك أنه يستحيل عليّ الاستمرار في الكتابة، ما دمت مريضة جدّاً. أرجوك مرّة أخرى ألّا تغضب منّي، وأن تثق في الاحترام والولاء الثابتين، اللذين أتشرّف بالبقاء في خدمتهما بوفاء، أنا المخلصة.

فارفارا دوبروسيلوفا.

12 أبريل.

الآنسة فارفارا ألكسييفنا!

آه! ما الذي جرى لك، يا أمَيْمَتي؟! أنتِ تتسببين لي باستمرار في الهلع والخوف! في كلّ رسالة من رسائلي، أدعوك إلى الاعتناء بنفسك، وارتداء ملابسك الدافئة، خلال الأجواء غير الصّحوة؛ وألّا تهملي أي احتياط؛ فإذا بك ترفضين الإصغاء إلى كلامي، يا ملاكي الصغير. آه! إنك يا عزيزتي، لتشبهين صبياً صغيراً! أنت واهنة، ولا قوة لك إلّا لما لقشّة التبن، على ما أعلم. ويكفي أن تهبّ ريح خفيفة، كي تُردِيكِ مريضة. لذلك، ينبغي أن تحتاطي، وأن تسهري على صحّتك، وأن تجتنبي المخاطر غير الضرورية، وألّا تتسبّبي لأصدقائك في الحزن وانشغال البال.

إنك لتُبْدين يا أمَيْمَتي، رغبة في معرفة نوع الحياة التي أحياها بتفصيل، وطبيعة الوسط المحيط بي. وإنه لمن دواعي الغبطة والسعادة يا صديقتي، أن أهبّ الآن مسرعاً، كي ألبّي لك هذه الرغبة. وسأبدأ من البداية يا أمَيْمَتي، وسيكون ثمة الكثير من الترتيب. أولاً، إنّ مدخل بيتنا نظيف، والسلالم لا بأس بها، خاصة ذلك السّلم الذي وُضِع للزينة، فهو نظيف ومُضاءٌ وعريضٌ ومصنوع برمَّته من الحديد المسبوك، ومن خشب الأكاجو. بينما السّلم الموضوع للخدمة، فالأفضل ألّا يتحدث عنه المرء: إنه لولبي الشكل، وتستبدّ به الرّطوبة والقذارة، ودرجاته مهشّمة، وجدرانه مشبعة بالدّهان، إلى حدّ أنّ المرء حين يستند إلى تلك الجدران، سرعان ما تلتصق يده بالدهان. وعلى كلّ منبسط يفصل بين السّلم السّابق واللاحق، ستجدين بعض الصناديق، والكراسي، والخزانات المهشّمة، والخِرق التي تسدّ فجوات الأبواب من الأسفل، والنوافذ

التي تكسّر زجاجها، والطّشتات، وجميع أنواع الزّبالة والقذارة: وَحَل، ومكنسات، وقشور البيض، وأحشاء السّمك، وروائح كريهة للغاية. . . إنّ ذلك باختصار، لمُقرف للغاية!

سبق لي أن وصفتُ لك الوضع الذي تتخذه الغُرف؛ وعليه، لا شيء يمكنه أن يقال، من هذه الناحية، إذ إن وضعها مريح حقّاً، لكن المرء للأسف، سرعان ما يشعر بالاختناق في تلك الغرف. ليست الرائحة التي تستبدّ بها هي بصراحة، رائحة النتانة، وإنما يشتمّ المرء فيها، إنْ لم يخنّي التعبير، رائحة عطن باهتة. في أول الأمر، يستبدّ بك الإحساس بالانزعاج، لكن ذلك سرعان ما يزول؛ فإنْ مكثتِ بيننا مجرَّد دقيقتين، ستشعرين بأن ذلك سرعان ما يزول، حتى من دون أن تكوني قد شعرت بذلك؛ لأن الرائحة التي ستنفذ إليك، ستكون أيضاً كريهة، وهي الرائحة نفسها التي ستنفذ إلى ملابسك، ويديك، وإلى كامل جسمك. حينها، لا تعودي تشمّين أي شيء. طيور التُّرُنْج تموت عندنا. وها قد اشترى ضابط البحرية طائر الترنج الخامس، بعدما مات له منها أربعة؛ إنّ الهواء في البيت بكلّ بساطة، هو هواء مميت. المطبخ عندنا كبير وواسع ومُضاء. في الصباح، حين يُقلى السّمك أو يُطهى اللحم، يستبدّ بالغرفة نسبياً دخان الفحم، فيتمّ بعدها صبّ الماء على كل مكان، بينما تكون الغرفة في المقابل، جنّة في المساء. هناك في مطبخنا غسيل قديم عُلّق على الحبال؛ وبما أنّ مسكني غير بعيد، أو أنه يقع بالأحرى بجوار المطبخ، فإنّ رائحة الغسيل تُضايقني قليلاً؛ لكن ذلك ليس بشيء ذي بال: إذ مع مضيّ الوقت، سرعان ما يتعوّد المرء عليه.

منذ الساعات الأولى من الصباح، يبدأ عندنا الهرج والمرج، يا فارينكا؛ يستيقظ الجميع، فيشرع الكلّ في الذهاب والإياب،

ويتسبّب ذلك في ضجّة عارمة؛ إنها اللحظة التي يخرج فيها كلّ واحد من السكان من سرير نومه، ليذهب إلى حيث ينبغي له أن يذهب: هذا إلى العمل، وذاك إلى الخارج... إلخ؛ ويشرب الجميع الشاي في اللحظة نفسها. ولأنّ ربّة البيت لا تملك غير عددٍ قليل من الأباريق الذي لا يكفي الجميع، فإنّ ذلك يستعمل بالتوالي، لسدّ حاجة جميع المكترين؛ وإذا ما حاول أحد من هؤلاء التقدّم بفنجانه عمّن سبقه، دون أن يكون الدّور قد حلّ عليه، يتلقّى درساً على الفور. وهذا ما حدث لي في اليوم الأول، حيث... إنما، ما الذي سيجديه الحديث عن ذلك، الآن؟ هنا، تعرّفتُ على الجميع، بدءاً بضابط البحرية. إنه امرؤ صريح للغاية، حدّثني عن كل شيء: عن والده، ووالدته، وعن أخته التي تزوّجت من قاضٍ في مدينة تولا، وعن مدينة كرونستدات. وقد وعدني بمنحي حمايته في جميع الظروف، ودعاني لشرب الشاي في غرفته. وجدته في غرفة، كان من عادة سكان الدار أن يجتمعوا فيها للعب الورق. هناك، قدّم لي الشاي، وأراد الجميع أن ألعب معهم القمار. أتراهم كانوا يسخرون منّي، أم ماذا؟! لا أعرف أي شيء؛ فقد باتوا يلعبون الليل كله، وكانت اللعبة في أوج حُمَيّتها، حين دخلت عليهم. كان ثمة طباشير، وأوراق اللعب، ودخان رهيب يستبدّ بالغرفة، إلى حدّ أن عينيَّ آلمتاني، لمّا دلفت بينهم. وبما أني لم أشاركهم اللعبة، فإنهم أشعروني بأني أجلس بينهم مثل فيلسوف، يتعالى في برجه العاجي. بعد ذلك، لم يوجّه لي أي أحد منهم ولو كلمة واحدة، وهو ما أسعدني، صراحة. لن أذهب إليهم في المستقبل أبداً؛ إنهم مجرد مقامرين مجانين، وليسوا شيئاً آخر! ثم إنّ المستخدم الذي يؤدي خدمة أدبية، ينظّم هو الآخر بعض الجلسات المسائية في غرفته، غير

أن كل شيء في غرفة هذا يمرّ على أحسن وجه، وتتمّ الاجتماعات بشكل بريء ولائق، وفي أجواء حسنة جداً.

وسأسجّل يا فارينكا، في هذا السياق، بأنّ صاحبة البيت امرأة مقرفة، وهي إلى جانب ذلك أيضاً، ساحرة حقيقية. هل رأيت تيريز؟ فمن تكون حقيقة، إذن؟ إنها هزيلة مثل دجاجة منتوفة الرّيش. وجميع الخدمات تُقدّم من طرف شخصين اثنين: تيريز وفالدوني، وهو خادم ربّة البيت. ربّما كان له اسم آخر، إنما يناديه الجميع هنا بذلك اللقب، وهو يستجيب للجميع بذلك. إنه أشقر اللون، وأعور، وأفطس الأنف، وهو كذلك جلف، يتخاصم مع تيريز دائماً، إنْ لم أقل إنهما يتضاربان كل يوم. وحتى أتحدث بشكل عام، أقول إن السكن هنا، ليس أمراً ممتعاً بالنسبة إلي... ففي الليل، لا يحدث عندنا بالكل، أن يندمج السكان جميعهم في النوم، في اللحظة نفسها. هناك دائماً مَن يلعب الورق في مكان ما، كما يمكن أن تحدث أحياناً بعض الأشياء، التي لن أجرؤ على روايتها. أنا الآن معتاد نسبياً على ذلك، لكني لا أفهم كيف يستطيع ناس متزوجون، أن يتعوّدوا على ضجّة ليلية مثل تلك التي تستبدّ بالأجواء، عندنا. هناك أسْرة بكاملها من الفقراء عندنا، تحتلّ غرفة بالدار، إنما هي ليست من تلك الغرف الواقعة في الممرّ، لأن أفراد تلك الأسرة يسكنون ضمن الجانب الآخر، أي في زاوية تقع برُكن منعزل. إنهم أناسٌ هادئون، لم يسمع أحدٌ ما شيئاً عنهم. مسكنهم مجرد غرفة مشطورة إلى نصفين. ربّ الأسرة مستخدم فقَدَ منصبه؛ تمّت إقالته لأسباب مجهولة، منذ سبع سنين: يسمّى غورشكوف؛ وهو رجل قصير القامة، شعره أبيض، ويرتدي لباساً شديد البِلى والقذارة، إلى حدّ أنّ الناظر إليه لا ينفك يتألم لمنظره؛ أما هيئته فأفظع بكثير من

هيئتي! إنها هيئة كائن شديد الوهن والبؤس (ويتفق لنا أن نلتقي معاً في الممرّ)؛ ترتجف ركبتاه ورأسه كذلك؛ تُرى، هل بفعل مرضٍ ما؟ الله وحده يعلم؛ فهو إنسان خجول، ويخاف من الجميع، ويمشي دون استعراض؛ أنا كذلك خجول في بعض الأحيان، لكن ليس إلى هذا الحدّ! تتكوّن عائلته من زوجة وثلاثة أبناء. البكر طفل، وهو في صورة والده، ويبدو أنه مسقام كذلك. أما الزوجة فيبدو عليها أنها كانت امرأة في السابق، وهي لا تزال تحمل بعض ملامح الجمال الأنثوي؛ وتلبس المسكينة بعض الأسمال البائسة! إنهم حسب ما سمعت، مدينون لربّة البيت، وهي ليست لطيفة معهم. مثلما سمعتُ كذلك، أن بعض المصائب قد نزلت على غورشكوف، وبأنها قد تكون هي السبب في إقالته من العمل. . . فهل ثمة قضية مرفوعة عليه، أم ليس ثمة أي شيء؟ وهل ما زال متابعاً في تحقيق قضائي ما، أم ليس متابعاً؟ لا أستطيع - حقيقة - أن أجزم في القول. لكن في ما يتعلق بالفقر، فهؤلاء فقراء حقاً. ربّاه، ربّاه! ما أشدّ الصمت الرهيب الذي يسود في غرفتهم دائماً، إلى حدّ أن المرء قد يذهب إلى الاعتقاد بأن تلك الغرفة غير مأهولة بالكلّ! وحتى الأطفال بالذات، لا تصدر عنهم أية نأمة. لا يُسمعون أبداً وهم يلعبون، أو يمرحون، وذلك مؤشّر سيئ. وقد لاحظت ذات مساء، بينما كنت أمضي أمام باب غرفتهم بالصدفة، حدوث شيء غريب: سمعتُ بدل الصمت المعهود، صوت انتحابٍ، تلاه بعدها همس، ثم انتحاب آخر؛ وقد بدا لي أنّ أحداً ما كان يبكي، دون أن يُسمَع له صوت، وكانت هذه المعاناة الصامتة مؤلمة جدّاً وحادّة، إلى درجة أني شعرتُ بقلبي ينشق، ويتصدّعُ؛ إن التفكير في هؤلاء الفقراء، لم يفارقني طيلة الليل، وصعُبَ عليّ ليلتها، أن أنام كالمعتاد.

إذن، الوداع، يا صديقتي الصغيرة، يا فارينكا الغالية! لقد وصفتُ لك كل شيء في الوسط، الذي أعيش فيه. لم أفكّر هذا النهار إلّا فيك. إني أعيش في دوامة دائمة بسببك، يا عزيزتي. أنا أعرف مثلاً، يا ملاكي الصغير، بأنك لا تملكين معطفاً مبطّناً بالفرو. أوه! يا لهذه الفصول الربيعية في بيترسبورغ، بكلّ رياحها وأمطارها الخفيفة الممتزجة بالثلج؛ إنها لموتي، يا فارينكا! ليحفظني الله من هذه الحرارة! كوني متسامحة يا أمَيْمَتي، مع طريقتي في الكتابة؛ فأنا لا أملك أسلوباً بارعاً، يا فارينكا، بل لا أملك أي أسلوب بالكل. أكتب مجرد حماقات وسخافات ممّا يمرّ بخلدي، لغاية واحدة وهي أن أُدخِل إلى قلبك بعض البهجة. فلو سبق لي أن تعلّمت قليلاً، لكان الأمر مختلفاً؛ لكن، أي تعليم حصلت عليه؟ تربيتي لم تكلّف شيئاً كبيراً يُذكر، حتى ولو كان مقابلها بعض القطع النقدية النحاسية.

صديقك المخلص دائماً،

ماكار دييفوشكين.

25 أبريل.

عزيزي السيد ماكار ألكسييفيتش،

التقيت اليوم بابنة عمّي ساشا! يا له من رعب! ستضيع هي أيضاً، هذه المسكينة! وصلني كذلك، بطريقة غير مباشرة ومن جهات متنوعة، بأنّ أنّا فيدوروفنا لا تزال تستعلم عنّي. يبدو أنها لن تتوقف أبداً، عن اضطهادي. تقول إنها تريد أن **تصفح عنّي**، وتنسى الماضي كله، وبأنها ستأتي بالتأكيد لزيارتي. كما تقول بأنك لستَ قريبي، وبأنّ القرابة بينها وبيني أقوى منها بيني وبينك، وبأن لا حقّ لك بصفة نهائية، في التدخّل في علاقتنا العائلية، وبأنه من المخجل

وغير اللائق بي، أن أقبل منك الصدقات، وبأن أبقى امرأة يُنفَق عليها. . . وتقول بأني نسيتُ حسن استضافتها لي، وبأنه لولاها لمتّ أنا وأمي من الجوع، وبأنها قدّمت لنا الطعام والشراب، وكلّفناها مالاً كثيراً لمدّة عام ونصف، وبأنها استطاعت أن تنقذنا من ورطة الديون. إنها لم تترك حتى أمي جانباً! وماذا لو أنّ أمي المسكينة علمت بما عملوه فيّ؟! الله وحده شاهد علي!. . . أنّا فيدوروفنا تقول إني فوَّتُّ لغلطتي، الفرصة التي كنت خلالها سأكون سعيدة، وبأنها وضعتني هي بالذات على السكّة القويمة، التي من شأنها أن تفضي إلى السعادة، وبأنها لن تؤاخذ نفسها على شيء لم تفعله من أجلي، وبأني أنا نفسي لم أعرف، ولم أرغب في الدفاع عن شرفي. فلمن تعود الغلطة إذن، يا ربّي؟ وتقول إن السيد بويكوف على حقّ بشكلٍ كلي، وأنه لا يمكن للمرء أن يتزوج من الفتاة الصغيرة، التي. . . لكن، لماذا عليّ أن أكتب هذا؟ إنّ سماع مثل هذه الأكاذيب لأمرٌ فظيع، يا ماكار ألكسييفيتش! لا أعرف ما الذي حلّ بي، الآن. أنا أرتجف، وأبكي، وأجهش؛ لقد استغرقتُ مدة ساعتين، كي أكتب إليك هذه الرسالة. كنت أعتقد بأن أنّا فيدوروفنا ستعترف على الأقل بأخطائها حيالي، وإذا بها تتكلّم الآن بهذه الكيفية! أرجو ألّا تكترث لهذا يا صديقي، ويا سابغ نعمته وحمايته عليّ! إن فيدورا تبالغ في كل شيء: أنا لستُ مريضة. لقد حلَّت بي نزلة برد خفيفة بالأمس فقط، حين ذهبت إلى فولكوفو للترحّم على روح أمي. لماذا لم ترغب في المجيء معي، بعد أن طلبتُ منك ذلك، بشكل كبير؟! آه! يا لأمي المسكينة! لو أنكِ خرجت من القبر، لعلمتِ، ورأيت ماذا فعله بي هؤلاء!. . .

ف. د.

20 مايو.

عزيزتي فارينكا!

أبعث إليك ببعض العنب يا يمامَتي، وهو جيّدٌ ومفيدٌ - حسب ما يقال - لمن يتماثل للشفاء، وينصح به الأطباء للتخفيف من حدّة العطش؛ من حدّة العطش، وحسب. كنتِ ترغبين في اليوم السابق، في بعض الأزهار؛ وعليه، ها أنذا أبعث إليك بها، الآن. هل تشتهين الأكل، يا أمَيْمَتي؟ هذا شيء أساسي. ومع ذلك، عليك أن تحمدي الله بأنْ مضى كلّ شيء، وانتهى عهد أحزاننا كذلك. لنحمد الله على كل شيء! بالنسبة إلى الكُتب، أنا لم أستطِع بعد تدبيرها من أيّ مكان. يُقال إن ثمة كتاباً جيّداً هنا، كُتبَ بأسلوب رشيق جدّاً؛ ويُقال إنّ مؤلفه رفيع القدر، لكني أنا بالذات لم أقرأه، لكن الجميع هنا يكيل له الكثير من المدح. لقد طلبتُ الحصول عليه؛ وسيُبعَث به إليّ، لكن فقط، هل ستقرئينه؟! إنك لَكَثيرة الاشتراط بخصوص هذا الأمر، ومن الصعب إرضاء ذوقك، وأنا يا عزيزتي أعرفك؛ أنتِ لا تحتاجين سوى إلى بعض الشعر، وبعض الكتب التي تحكي عن الحبّ والعاطفة الجيّاشة؛ وعليه، سأتدبّر لكِ بعض الأشعار، وكل شيء؛ ثمة أشعار مكتوبة هنا، بخطّ اليد على دفتر.

أنا أعيش على نحو جيّد، فلا تشغلي بالك من ناحيتي يا أمَيْمَتي، رجاء. كلّ ما روَتْه لك فيدورا عنّي، هو ضربٌ من العبث. قولي لها إنها كذبت، لا تفوّتي عليك فرصة قول ذلك، إلى هذه النمّامة!... أنا لم أبع بالكلّ، بزّتي الجديدة. ولماذا - فكّري معي أنت بالذات في الأمر - لماذا لزمني أن أبيعها؟! أنا سأتقاضى - مثلما يُشاع - مكافأة قدرها أربعون روبلاً؛ فلماذا عليّ والحالة هذه، أن أبيع متاعي؟! لا تنزعجي، ولا تقلقي، يا أمَيْمَتي؛ إن فيدورا

لَمُرتابة ومتوهِّمة، وحسب. أنا أعيش على قدر استطاعتي، يا عزيزتي! اعتنِ فقط بنفسك يا ملاكي الصغير، وتماثلي للشفاء بربّ السماء، تماثلي للشفاء، ولا تشغلي عليك بال عجوز هرم من عظمه. فمَن ذا الذي قال إني هزلت؟ هذا باطل، وباطل! أنا على ما يرام، وقد سمنتُ كثيراً، إلى أن بلغتُ من السمنة حدّاً مخجلاً؛ أفعل كل شيء بإرادتي؛ وأتناول الطعام حدّ الشبع: ما يلزمك أنتِ فقط، هو أن تتماثلي للشفاء!

هيّا، الوداع يا ملاكي الصغير؛ إنّي لأقبّل منك أنامل يديك الصغيرة، وأبقى وفيَّك الأبدي، وصديقك الدّائم.

ماكار دييفوشكين.

استدراك: بالمناسبة، لماذا تعودين مرّة أخرى إلى هذا الموضوع، يا أمَيْمَتي؟... أي حماقة! كيف يتسنّى لي إذن، أن أزورك في أغلب الأوقات، يا أمَيْمَتي؟ كيف؟ إني لأسألك! إلّا إذا حدث ذلك في الليل، باغتنام فرصة انتشار العتمة؛ لكن، في الفصل الذي نعيش أجواءه يا أمَيْمَتي، ليس ثمة إنْ صحّ التعبير، أي ليل على الإطلاق! دون شك، أنا لم أترك سريرك طوال المدّة، التي استغرقها مرضك، يا أمَيْمَتي، وخلال المدّة التي كنتِ فيها غائبة عن الوعي، يا ملاكي الصغير؛ إلا أني لا أعرف أنا بالذات، كيف رتّبتُ لذلك الأمر؛ وبعدها، توقّفتُ عن التردّد على زيارتك، لأنّ فضول الناس قد استفاق، وشرع هؤلاء في طرح الأسئلة. ثم إنّ هناك ما يكفي من الإشاعات التي شرعت من قبل، في الرواج هنا. إني لَأُراهن على تيريز: فهي ليست ثرثارة؛ لكن، هذا لا يهم؛ فكّري أنت بالذات في الأمر، يا أمَيْمَتي، ماذا عساهم يحسبون، إذا ما أحاطوا علماً بشؤوننا

كلها؟ ماذا سيعتقدون حينها، وماذا سيقولون؟ لذلك، تماسكي، وتصلّبي ضدّ رغباتك، يا أمَيْمَتي، وانتظري إلى حين شفائك؛ عندئذٍ، سنرتّب موعداً بيننا في مكان ما، خارج البيت.

1 يونيو.

عزيزي الغالي جدّاً: ماكار ألكسييفيتش!

في لحظة من لحظات الفراغ، قرّرت أن أنبش أخيراً في أدراج منضدتي، بحثاً عن هذا الدفتر الذي أبعث به إليك الآن، لرغبتي العارمة في إدخال السرور، وإيجاد شيء جميل وعذب أجازيك به، جراء ما ظللتَ تكنّه لي من مشاعر فيّاضة، وما تحمّلته من عنت لأجلي. فقد كنتُ حينما شرعت في كتابته، لا أزال أعيش فترات سعيدة من حياتي.

كنتَ كثيراً ما تسألني عن حياتي الماضية، وعن أمّي، وعن بوكروفسكي، وعن إقامتي في بيت أنّا فيدوروفنا، وعمّا لاقيته في الأخير من حظ تعيس؛ وأبديتَ رغبة جيّاشة جدّاً في قراءة هذا المخطوط الذي دوّنتُ فيه، لعلم لا يعرفه غير الله وحده، بعض اللحظات المتقطّعة من سيرة حياتي؛ وهو الدّفتر الذي سوف يُرضي رغبتك كثيراً، حين يصلكَ. أمّا أنا فلم أشعر حياله، حين أخذتُ في قراءته مجدّداً، سوى بحزن وتعاسة. يبدو لي أني هرمتُ بشكلٍ مضاعَفٍ، منذ اللحظة التي خططت فيها آخر سطر من هذه المذكرات. كلّ ذلك قد كُتب على فترات متفرقة. الوداع الآن، يا ماكار ألكسييفيتش! أشعر اللحظة بسأم رهيب، وغالباً ما يجافي النوم عيني. ألا ما أتعس هذه الفترة المنذورة للنّقاهة!

ف. د.

I

لم أكن أبلغ من العمر، حين توفي والدي، سوى أربع سنوات. كانت طفولتي أسعد لحظات حياتي. لم تبدأ طفولتي هنا، وإنما بدأت في الرّيف، في مقاطعة بعيدة عن بيترسبورغ. كان والدي ناظر أملاك الأمير ب. الشاسعة، المشارك في حكومة ت. وكنّا نحن في قرية من قرى الأمير السابق، نعيش هناك في كنف هادئ وسعيد... وكنتُ أنا حينها صبيّة حادّة الطباع؛ أقضي وقتي بأكمله في الرّكض بين الحقول والغابات والبستان، ولم يكن أحد يهتمّ لحالي، أو يرقُبُني. كان والدي منشغلاً دائماً بأعماله، ووالدتي مهتمة بأعباء البيت؛ ولم يكن هناك من يهتمّ لتعليمي، أو لتلقيني أي شيء، وكنت أنا سعيدة بذلك. ويحدث لي أن أركض منذ ساعات الصباح الباكرة، إما في اتجاه المستنقع، أو الغابة؛ وكنتُ أحتكّ بميبّسي الكلأ أو الحصّادين؛ كنتُ أهرب من القرية، دون أن أعرف إلى أية ناحية كانت تأخذني رجلاي، غير عابئة بلهيب الشمس، ولا بالأدغال الشوكية التي ظلت تمزّق وجهي، وتحيل كسوتي إلى مجرد أسمال؛ لذلك كنت أتلقّى التقريع والتوبيخ لدى عودتي إلى البيت؛ لكني ظللتُ لا أكترث لحدوث ذلك أبداً.

يخيّل إلي أني كنت سأعيش في غاية من السعادة، لو أني اضطررتُ إلى العيش في ذلك الرّيف عمري كله، من غير الاضطرار إلى الخروج منه. لكن، وبما أني كنت صغيرة، فقد أجبرتُ على ترك ذلك المرتع، الذي رأيت فيه نور الحياة لأول مرة. لم تكن لي سوى اثنتي عشرة سنة، حين نُقِلنا إلى بيترسبورغ. آه! ما أشدّ حزني حين أتذكّر استعداداتنا الشّاقة والأليمة للسّفر! ولكَم بكيتُ وأنا أودّع كل ما بات غالياً لديّ! أذكر أني ارتميتُ فوق عنق والدي، وأخذتُ

أتضرّع إليه، والدمع ينهمر من عينيّ، كي نبقى في القرية بعض الوقت. أخذ والدي يشتمني، بينما كانت أمّي تبكي؛ قالت إننا مضطرون للرحيل، ما دام أن متاعنا المجموع يفرض علينا ذلك. كان الأمير الهرم السيد ب. قد مات؛ وفصَل ورثة المرحوم والدي عن عمله. وكان والدي قد وضع بعض المال رهن إشارة مؤسسات مالية في بيترسبورغ، وظنّ أنّ عليه أن ينتقل إلى هذه المدينة، وقد حداه الأمل في أن يساهم في تطوير وضع ثروته. علمتُ بكلّ هذا في ما بعد، من خلال ما روته لي أمّي. وقد استقرّ بنا المقام هنا، على الضفة اليمنى من سان - بيترسبورغ، ولم نغيّر إقامتنا قطّ، طيلة المدّة التي بقي فيها والدي على قيد الحياة.

لكم عانيتُ الأمرّين، حتى أتلاءم مع حياتنا الجديدة! وصلنا بيترسبورغ في فصل الخريف. حين غادرنا القرية، كان النهار جميلاً، والسّماء صافية جدّاً، والجوّ حاراً للغاية! كانت أعمال الحصاد قد أذنت بنهايتها، فتكدّستْ في الحقول أكوام ضخمة من سنابل القمح، التي تتجمّع حولها أسراب الطّيور المشقشقة؛ وكان كلّ شيء ينعم بغبطة رائقة. بينما وجدنا الأجواء هنا، لدى وصولنا إلى المدينة، وقد اكتنفها سوء الأحوال الجوية، وشاع فيها المطر وتهاطلُ حبّاتِ الجليد الخريفية، كما وجدنا جمهرة غفيرة من الوجوه الجديدة، والغريبة عنّا، والمتجهّمة، والمُزورّة، والمستثارة الأعصاب. أقمنا في بيتنا الجديد كيفما اتّفِق. ما زلتُ أذكر كافة المتاعب والمشاق التي صادفناها، في سبيل تهييئ استقرارنا في الإقامة الجديدة. لم يكن والدي يوجد في البيت على الإطلاق، بينما لم تكن تنعم أمي بالرّاحة أبداً، فتعرّضتُ أنا لنسيان شامل. لَكَم كانت يقظتي مُشابة بالحزن، بعد الليلة الأولى، التي قضيتها في

المسكن الجديد! كانت نوافذنا تطلّ على حائط دُهِن باللون الأصفر، وكان الشارع موحلاً على الدّوام. وكان المارّة نادرين، والجميع ملتفّ في دثاره ويشعر بقرّ شديد.

في بيتنا، كانت النّهارات تمضي في قلق وسأم رهيبين. وكنّا لا نرى حقاً من الأقارب والأصدقاء، أيّ أحد. وكانت علاقة والدي بأنّا فيدوروفنا فاسدة (ظلّ مديناً لها بشيء من المال). وغالباً ما كان بعض الزّوار يأتوننا، في شأن أعمال ما. كانوا في العادة يتخاصمون، ويصرخون، وتصدر عنهم ضجّة كبيرة. بعد كل زيارة، يتعكّر صفو والدي كثيراً؛ يعبس، ويشرع في قطع البيت جيئة وذهاباً لساعات مديدة، دون أن ينبس ببنت شفة. وكانت أمي كذلك، تخلد إلى الصّمت، ولا تجرؤ على التوجّه إليه بأية كلمة. وكنتُ أنزوي في ركن صغير، وأجلس مركِّزة عيني في كتاب، وهناك أبقى ساكنة، مَخافَة أن تصدر عنّي أدنى نأمة أو حركة.

بعد ثلاثة أشهر من حلولنا ببيترسبورغ، وُضِعتُ في بنسيون. ووجدتُني منذ البدء، في وضعية صعبة للغاية، وأنا بين الغرباء؛ أضف إلى ذلك، أن البنسيون كان في مجموعه بمظهرٍ قاسٍ وغير جذاب، إلا بنسبة قليلة؛ إذ كانت المربيّات كثيرات التقريع والتأنيب، والبنات شديدات السخرية! وكنت أنا كثيرة التوحّش، والقوانين المطبّقة قاسية وصارمة! كان الإجبار على القيام ببعض الأمور في أوقات محدّدة، وتناول الطعام بكيفية مشتركة، والأساتذة التافهون؛ كان كل هذا بالنسبة لي، منذ اللحظة التي وضعتُ فيها قدميّ بالبنسيون، مجرّد عقاب. ولم أستطع حتى الخلود إلى النّوم فيه. كنتُ على امتداد الليالي الطويلة والباردة والمضجرة، أبيتُ طول الليل باكية. كانت التلميذات خلال المساء يتمرّنَّ، أو يحفظن

الدروس؛ وكنت أنا أدرس حواراتي أو معجمي؛ لا أجرؤ على الحركة، غير أني أظلّ أفكّر دائماً في بيتنا: في والدي وخادمتي العجوز، وحكاياتها... آه! ما أشدّ ما كنت حزينة! كانت أتفه الأشياء المرتبطة بحياتنا هناك، تخطر ببالي بمتعة رائقة. أردّد في نفسي: «لكم كان سيبدو الأمر جميلاً الآن، لو كنتُ في البيت، أجلس بغرفتنا الصغيرة أمام السّاموفار، قرب والديّ! كنتُ سأشعر بالدفء الشديد، وسأكون سعيدة ومتوازنة لو أني بين أرجاء ذلك الرّكن الذي تعوّدتُ عليه! وبأي حنان سأقبّل أمّي لحظتها!». لمثل هذه الأفكار، يكبس عليك بكاء حارّ، فلا تستطيع إلا البكاء في صمت، وأنت تخنق نشيجك، ولا تكترث بعدها للحوارات ولا للوحدات المعجمية، التي تكون منهمكاً في دراستها. وبذلك، لا تحفظ درس اليوم الموالي، فتحلم طيلة الليل بالأستاذ، والسيّدة المربّية، والبنات؛ وتكرّر دروسك طيلة الليل، حتى إذا ما حلّ اليوم الموالي، تجد نفسك لا تفقه شيئاً. حينها، يأمرونك بالرّكوع على ركبتيك، ويحرمونك من نصف وجبتك المسائية. لقد كنتُ شديدة الحزن والضجر! أولاً، لأن جميع البنات يستهزئن بي، ويسخرْن من حالي، ويقلقن راحتي، حين أختلي بنفسي لحفظ الدروس، وكنّ يقرصنني حين نسير في الصفّ نحو المطعم؛ ويشتكينني إلى المربّية لأتفه الأسباب. ولشدّ ما كنتُ أحسّ، في مقابل هذا الوضع، بأني أغادر دار الشّقاء، وأدخل الجنّة الرّحيمة، حين تأتيني نينا مساء يوم السبت، لتصطحبني معها إلى البيت! حينها، كنتُ أقبّل خادمتي العجوز في جذل وحبور. كانت تُلبسني، وتغطيني بأردية دافئة؛ وفي الطريق، لا تستطيع اللحاق بي، ولا أتوقف أنا عن الثرثرة معها، وسرد كل شيء لها. كنت أصل إلى البيت، وأنا في غاية الغبطة

والسعادة والحبور؛ أغمر والديّ بالقُبل، وكأني غبتُ عنهما عشر سنوات. بعدها، تبدأ الأحاديث والحكايات؛ كنتُ أتبادل التحية مع الجميع، وأضحك، وأجري، وأقفز. وكانت الأحاديث مع والدي، تأخذ منحى جاداً: عادة ما كان الكلام يتّجه بيننا، صوب دروب المعرفة والتحصيل، مستخبراً إياي عن أحوال الأساتذة، وشؤون اللغة الفرنسية، وقواعد لهوموند النّحوية (Lhomond)؛ وكنّا جميعاً مرحين وفرحين للغاية! وما زلت أحبّ إلى حدّ الآن، تذكّر تلك اللحظات. كنتُ أبذل قصارى جهدي لأتعلّم، حتى أُفْرِح والدي. كنتُ أرى أنه يُضحّي من أجلي إلى آخر قطعة نقدية يمتلكها، وهو بنفسه يقاوم بشكلٍ ميؤوس. كان من يوم لآخر، يزداد تجهّماً وحزناً، وغضبه يتزايد؛ وكان مزاجه يحتدّ، ويسوء؛ ظلّت أعماله على غير ما يرام، وقد تورّط في ديون ثقيلة. ولم تكن أمي تجرؤ حتى على البكاء، ولا على النبس بأية كلمة، مخافة أن ينجم عن ذلك ما لا تُحمد عقباه؛ وكانت صحّتها تتدهور، إذ هزُلَت بشكل مكشوف للعيان، وشرعت تسعل سعالاً خبيثاً. وقتها، كنت حين أعود من البنسيون، ولا أجد في البيت غير وجوه عابسة ومقطّبة؛ أمي تبكي في صمت، وأبي يغضب ويثور. وظللتُ أنا لا أتلقى سوى اللوم والتقريع والمؤاخذة. والدي يقول إني لا أدخل عليه أيّ فرح، ولا أمنحه أيّ عزاء، وبأنهما - والدي ووالدتي - يحرمان نفسيهما من آخر المدّخرات لأجلي، وبأني لم أتعلّم بعد الحديث بالفرنسية؛ كان والدي باختصار، ينتقم من أمّي ومنّي كذلك، بسبب جميع أنواع المآسي والمرارات، التي يتلقاها. إنّما كيف أمكنه تعذيب أمّي المسكينة؟! كان مجرد النظر إليها كافياً لتمزيق القلب: خدّاها تقعّرا، وعيناها غارتا في محجريهما، وسحنتها تبدو سحنة المريض بداء

السّل. وكنتُ أنا، أكثر منها، الشخص الذي عليه أن يعاني من غارات والدي الناقمة والغاضبة. تبدأ الأمور دائماً بسيطة، ومن قبيل الترّهات التافهة، إلّا أن النهاية لم يكن يعلم بها إلّا الله وحده! لم أكن أفهم في الأغلب الأعم، حتى بصدد ماذا يتعلّق الأمر. يا للتعلاّت! كنتُ في نظره، لا أتقن اللغة الفرنسية، كما كنت بلهاء من الصنف الأول، وكانت مديرة البنسيون امرأة بلهاء وغبية كذلك، ولا تهتمّ بأخلاقنا؛ وهو لم يحصل بعد على أيّ عمل؛ وكانت قواعد لهوموند النحوية كريهة، وقواعد زابولسكي (Zapolski) أفضل بكثير؛ وكان قد أنفق في سبيل تعليمي مبلغاً ضخماً، إلا أنه ذهب سدى وهباء؛ وكان يعتقد بالطبع أني بلا قلب ولا إحساس، مثل صخرة جامدة؛ لقد كنت باختصار - أنا الفتاة الصغيرة والمسكينة - أكدّ ما وَسِعَني الكدّ، لأحفظ الحوارات والكلمات المعجمية، إلّا أنّ كل ذلك الجهد كان يرجع عليّ باللوم والتقريع: كنت كبش فداء! ليس معنى ذلك أن والدي لم يكن يحبني! كان بالعكس يكنّ لنا المحبة، أنا ووالدتي، لكن مزاجه مع الأسف، كان كذلك.

أصبح والدي المسكين، تحت تأثير الهمّ والحزن وخيبة الأمل، محترزاً وغضوباً؛ وكان غالباً ما يوشك على اليأس والانهيار. أخذ في إهمال صحته، فأصابته نزلة برد، مات على إثرها بعد أن مرض لفترة قصيرة. هبطت علينا صاعقة مفاجئة وغير متوقعة بالكامل؛ فلبثنا عدّة أيام تحت تأثير تلك الصاعقة، دون التمكّن من استعادة وعيَيْنا. وكانت حالة الوهن والانبطاح، التي دخلتها والدتي، قد ملأت نفسي بالخوف على مصيرها. ما أن مات والدي، حتى شرع الدائنون يتوافدون علينا، وكأنهم كانوا ينبعون من تحت الأرض. تركنا لهم كلّ ما كنا نملكه من أثاث ومتاع؛ وخضع حتى بيتنا

الصغير بالضفة اليمنى من بيترسبورغ، الذي اشتراه أبي بعد ستة أشهر من وصولنا إلى مدينة بيترسبورغ، هو الآخر للبيع. أمّا ما تبقّى، فلم أدرِ كيف رتبنا أموره، لكن، بالنسبة إلينا، فقد مكثنا سوية دون سقف، ولا ملاذ نلجأ إليه، ولا طعام. كانت أمي تعاني من مرض عضال استنزف قواها؛ وكنّا لا نستطيع كسب قوت يومنا بقوة عضلاتنا، مثلما لم نكن نملك أية وسيلة أخرى للعيش؛ لقد كانت الهاوية شأناً وشيك الوقوع. ولم أبلغ وقتها من العمر، سوى أربع عشرة سنة؛ فإذا بأنّا فيدوروفنا تزورنا، في تلك الأثناء. كانت تقول دائماً إنها تملك بعض الأراضي، وتدّعي دائماً بأنها ترتبط بنا من خلال قرابة دموية بعيدة. لم تكن أنّا فيدوروفنا قد زارتنا أبداً، حين كان والدي لا يزال على قيد الحياة. جاءت تذرف الدموع، وهي تدّعي اهتمامها الكبير بحالنا، وتشفق على الخسارة التي مُنينا بها، وعلى المصير الأليم الذي ألمّ بنا، وهي تضيف بأن السبب في كلّ ذلك هو والدي بالذات: إذ لم يكن يعيش على قدر مستواه الاجتماعي، وكان كثير التطلّع، وكثير الاعتداد بقوته. أبدت أنّا فيدوروفنا رغبة كبيرة في الارتباط بنا أكثر، واقترحت علينا أن ننسى الخلافات القديمة بيننا. وحين ردّت عليها أمي قائلة إنها لم تكن تشعر نحوها قط، بأيّ مشاعر سيئة، أذرفت هي الدمع، وقادت أمي إلى الكنيسة، وصلّت على روح «العزيز» (كذلك كانت تقول، وهي تتحدث عن والدي). وعقب الصلاة، تصالحت مع والدتي، على نحو مفعم بالأبهة والفخامة.

بعد سلسلة من التمهيدات المسهبة، وبعدما لوّنت لنا النهاية بتلاوين حيّة، وكذلك الوضع الميئوس الذي يدعو إلى الرثاء، الذي تركنا فيه المرحوم والدي، دعتنا أنّا فيدوروفنا للّجوء إلى حماها.

تلك كانت بالحرف العبارة، التي استعملتها. شكرتها والدتي، إلا أنها تلكّأت في اتخاذ القرار. لكن، ما دام أنه ليس ثمة أي بديل آخر، فقد انتهت بأن أكّدت لأنّا فيدوروفنا، بأننا نقبل دعوتها بامتنان. ما زلت أحتفظ إلى الآن، بذكرى ذلك اليوم الذي غادرنا فيه الضفة اليمنى من بيترسبورغ، للرحيل نحو جزيرة فاسيلييفسكي. حدث ذلك صبيحة يوم خريفي مشرق؛ وكان الجو بارداً برودة صقيعية جافة. كانت أمي تبكي؛ وكنت أنا أتقطّع من أعماقي؛ وشعرت حينها بتمزُّق في صدري؛ كان هناك خوف ليس له تفسير، يضغط على نفسي... لقد كانت لحظة صعبة وعصيبة.

....

II

في البدء، وقبل التعوّد على سكننا الجديد، كنّا نشعر أنا وأمّي، فيه بالحرج، ونحسّ بما يشبه الخوف لدى أنّا فيدوروفنا. وكانت هذه الأخيرة تقيم في الحيّ السادس، ببيت يقع في ملكيتها؛ لا توجد فيه غير خمس غرف نظيفة. ثلاث منها كانت تحتلّها أنّا فيدوروفنا والصبيّة ساشا، وهي طفلة أرملةٍ احتضنتها أنّا، لتقيم لديها. أقمنا نحن في الغرفة الرّابعة، بينما الغرفة الأخيرة الواقعة بجوار غرفتنا، كانت مأوى لنزيل يقطن لدى أنّا فيدوروفنا بالمقابل، وهو طالب جامعي فقير يُدعَى بوكروفسكي. كانت أنّا فيدوروفنا تعيش عيشة ميسورة، في سعة ووفرة كبيرتين جدّاً، ما استطعنا تصوّرهما قط؛ إلّا أن مصدر ثروتها ظلّ ملتبساً وملغزاً، مثلما انشغالاتها كذلك. كانت دائمة الحركة والانشغال، وتخرج عدّة مرات في اليوم، إما راجلة أو على متن العربة؛ إلا أنّ ما كانت تفعله، وما ظلّت تشتغل فيه، قد

استحال عليّ حزره. كانت علاقاتها متعدّدة ومتنوعّة؛ تستقبل ناساً كثيرين، والله وحده يعلم أي نوع من الناس كان هؤلاء! زوّارها يأتون دائماً لقضاء بعض المآرب، ولا يمكثون غير برهة وجيزة. ولم يكن يفوت أمّي أن تسحبني إلى غرفتنا، مباشرة بعد أن يرنّ الجرس، الذي يعلن عن زيارة ما. وكان هذا السلوك من أمّي يستثير حنق أنّا فيدوروفنا بشكل كبير، وقد ظلّت تردّد دون توقف، بأننا مفرطات في الاعتداد بنفسينا، وأنِ ذلك لا يتناسب مع وضعيتنا، وبأن علينا ألّا نعتدّ بذلك في إفراط، وهكذا دواليك ظلت تكرّر على مسامعنا، خلال ساعات بكاملها. لم أكن أنا حينها، أفهم اتهامها لنا المتكرّر بالاعتداد بالذات؛ كما أني كذلك لم أستنبط إلا الآن فحسب، أو على أني لم أفهم على الأقل إلا الآن، سبب تردّد والدتي في الذهاب إلى بيت أنّا فيدوروفنا، للسكن معها. لقد كانت هذه امرأة شريرة؛ ولم تكن المدّة التي قضيناها معها سوى مجرد عذاب أليم، طال بنا أمده. وما زلتُ إلى الآن، أتساءل عن السّبب الذي دعاها، كي تستضيفنا عندها. في البداية، كانت تراعي قليلاً مشاعرنا؛ لكن طبعها الحقيقي سرعان ما تكشّف لنا بالملموس، حين اقتنعت بأننا وحيدتان في الدّنيا بشكل كلّي، وبأننا نعدم من قريب أو بعيد أي عائلة ممتدّة، مثلما نعدم المكان الذي يمكننا الذهاب إليه. بعد ذلك، بدت لنا لطيفة لطفاً ذهب إلى حدّ أن تحوّل إلى مجاملة فظة؛ لكنني ما كنت مبدئياً أعاني منها بأقل ممّا عانته معها أمّي. كنّا دوماً تحت رحمة ملاماتها؛ ولم تكن تتوقف أبداً عن تذكيرنا بأياديها البيضاء علينا. كانت تقدّمنا إلى الغرباء، على أننا من مقربيها الفقراء، ولا تتردّد في التحدّث عن أمّي باعتبارها أرملة معدمة، وعنّي على أساس أنّي يتيمة مثل أمي، وبأنها تكرم وفادتنا، وتُحسن

إلينا من باب الإحسان الديني. وحين نتحلق حول المائدة، تتابع بعينيها كلّ قطعة كنّا نتناولها، وإنْ نحن توقفنا عن الأكل، تصبح تلك حكاية أخرى. «ألا تجدان هذا طيّباً؟ كانت تقول. لا تكونا صعبتَي الطبع بشكل مفرط. إن القليل ممّا أملكه، أقدّمه لكما بسخاء وقلب ودود. لقد كنتما ستطهيان في بيتكما دون شك، أفضل من هذا الطعام!». وكانت في كلّ لحظة وحين، تكيل لأبي الشتائم: «كان يريد أن يكون أفضل من الآخرين، فإذا به يسيء إلى نفسه وإلى الآخرين؛ لقد حوّل زوجته وابنته إلى مجرد متسولتين؛ ولولا قريبة لهما تحبّ الخير والإحسان، ولها روح مسيحية خالصة، روح رحيمة بالضعفاء، لماتت المسكينتان من الجوع، في الشوارع!». وما الذي لم تقله؟! كنّا ونحن نصغي إليها، لا نشعر بالإهانة وحسب، وإنما بالتقزّز والاشمئزاز. لم تكُن أمّي تكفّ عن البكاء، وظلّت حالتها تتدهور يوماً وراء آخر، وتزداد سقماً بشكلٍ واضح للعيان؛ ومع ذلك، كنّا أنا وهي، نشتغل من الصباح إلى المساء، ونتزوّد بالشغل من المدينة، وننكبّ على الخياطة، وهو الأمر الذي ظلّ لا يروق لأنّا فيدوروفنا؛ كانت تكرّر على مسامعنا في كلّ لحظة وحين، بأنّ بيتها ليس محلًّا للموضة. لكن، كان علينا أن نكسب ما نشتري به كسوتنا، وما نسدّ به حاجتنا، كلّما طرأ طارئ؛ لقد اضطررنا إذن، إلى وضع بعض المال جانباً. ومهما حدث، فإننا كنّا ندّخر منه القليل؛ ونأمل في أن نتمكّن من الانتقال بعيداً عن تلك الدار، مع مضي الوقت، لكن ما تبقّى من قوى والدتي، كان يستنزف في الشغل، فصارت كلّ يوم تهزل، وتزداد نحولاً أكثر فأكثر. ظلّ المرض ينخر جسمها، مثلما تفعل الدّود، ويقودها حتماً نحو القبر. ظلّ كل ذلك مكشوفاً لعيني: أراه، وأشعر به؛ ولَكَمْ كان مؤلماً!

كانت الأيام تتوالى علينا تباعاً، لكن حالها لم يكن يتغيّر. كنّا نعيش في عزلة تامة، وكأننا نحيا في ريف من الأرياف. أخذت أنّا فيدوروفنا تهدأ شيئاً فشيئاً، بعد أنْ شعرت بوضوح بأنّ قدرتها وسلطانها صارا مطلقين علينا. ومع ذلك، لا أحد فكّر فِي مماحكتها بخصوص شيء من الأشياء أبداً. كان هناك ممرّ يفصل غرفتنا عن شقتها، وكان يسكن بالقرب منّا بوكروفسكي، كما أوضحتُ ذلك أعلاه. كان هذا يعلّم ساشا الفرنسية، والألمانية، والتاريخ، والجغرافيا، و«كافة العلوم»، حسب ما كانت تقول أنّا فيدوروفنا، مقابل ما كان يتلقاه من الطعام والمأوى، من هذه الأخيرة. كانت ساشا فتاة صغيرة غاية في الذكاء، حتى ولو أنها ظلت صبية لعوباً ولاهية؛ وكان عمرها حينئذٍ ثلاث عشرة سنة. وفي هذا الصدد، أشارت أنّا فيدوروفنا إلى أمي بأنه من الأحسن لي أن آخذ أنا أيضاً بعض الدروس، ما دمتُ قد انفصلت عن البنسيون، قبل إنهاء تعليمي. وبسرعة، وافقت أمي على ذلك، فشرعتُ لمدّة عام كامل، أدرس مع ساشا الدروس، تحت إشراف بوكروفسكي.

وكان هذا الأخير شاباً فقيراً، فقيراً جدّاً، لم تسمح له صحته بمتابعة الدروس بانتظام في الجامعة؛ ومن ثمة، فإننا إذا كنّا ننعته بالطالب، فإنما نفعل ذلك بحكم العادة، وحسب. كان يعيش بكيفية متواضعة جدّاً، وهادئة جدّاً؛ ولم نكن نحن نسمع من غرفتنا بالكلّ، أي نأمة ولا ضجّة في غرفته. كان بوكروفسكي يتميّز بفرادة قوامه؛ وكانت مشيته مائلة للغاية، وطريقته في التحية متميزة، كما كان غريباً جدّاً في لغته، بحيث إنّي لم أكن أستطيع في البداية، أن أنظر إليه دون أن أضحك. وكانت ساشا تحتال عليه دائماً، وخاصة أثناء الدرس. أضف إلى ذلك، أنه كان ذا طبع سريع الغضب، يحتدّ

بشكل دائم؛ وكان يغضب لأتفه حماقة، ويُستثار، فيوبّخنا بشدّة، وكان يشتكي منّا، وغالباً ما كان يتوقف عن التدريس وهو غاضب، وينتحي في غرفته بعيداً عنّا، دون إكمال الدرس. كان يقضي النّهارات في غرفته، وهو يقرأ. وكانت له كتب كثيرة، وثمينة، ونادرة. وبفضل تدريسه لبعض التلاميذ، كان يكسب مالاً، وما أن يحصل على شيء منه، حتى يهرع لشراء الكتب.

مع مضي الوقت، عرفته جيّداً، وتعرّفت عليه بكيفية حميمة. كان شاباً طيّباً جدّاً، وجديراً بالاحترام والتقدير، وأفضل من أتيحت لي فرصة اللقاء بهم. ظلّت أمّي تحترمه بشكل كبير، وأصبح بالنسبة إليّ فيما بعد، أفضل أصدقائي، بعد أمي بالطبع.

في البدايات الأولى، كنتُ وأنا فتاة كبيرة في السنّ، أشترك مع ساشا في لعبها الصبياني: كنّا نكدّ على مدى ساعات كاملة، ونجتهد في ابتكار الحيل، حتى نُقلق راحة بوكروفسكي، وندفع به إلى الغضب والحنق. وكان هو يخرج عن طوره، وتصدر عنه ردود فعل مثيرة للضحك، كثيراً ما كنّا نحن معاً، نتسلّى على إثرها. (لا أكاد أتذكّر ذلك اليوم، دون الشعور بالخجل!). وذات يوم، حدث أن استثرناه إلى أنْ كادت عيناه تدمعان تقريباً، وسمعته يردّد بصوت خفيض وواضح، هذه العبارة: «يا لهاتين الطفلتين الشرّيرتين!». فقدتُ اتّزاني على حين غرّة، وارتبكت، وشعرتُ على إثر ذلك بمزيج ملتبس من مشاعر الألم والشفقة؛ بعدها، التمستُ منه - وقد تشبّع وجهي حدّ الأذنين، بحمرة خجل قانية، وكادت الدموع تنبجس من عيني - أن يهدأ، وألّا يغتاظ من مزاحنا الأخرق؛ لكنه أغلق الكتاب، ولم يتمّ إعطاء الدّرس، ثم عاد قافلاً إلى غرفته. ظللتُ أنا طيلة النّهار، أتعذب جراء تأنيب الضمير. كانت فكرة كون فظاعاتنا

الصبيانيّة قد دفعت بذلك الشاب إلى مشارف البكاء، عذاباً أليماً بالنسبة إليّ. هكذا إذن، كنّا ننتظر رؤية دموعه! هكذا إذن، كنّا متعطشتين لرؤية ذلك! هكذا إذن، استطعنا أن نفقده صوابه وصبره! هكذا إذن، فرضنا عليه، هو ذلك الشاب البائس والشقي والمسكين، أن يتذكّر مصيره الأليم! لقد بات الحزن والندم يلازمانني طيلة الليل، ويمنعان عنّي النوم. يُقال إنّ النّدم يخفف عن النفس؛ لكنه على العكس من ذلك، بات يمتزج عندي - بطريقة لا أعرف كيف حصلت - بالشعور بالكبرياء والألم! لم أكن أريد أن يعتبرني بوكروفسكي، مجرد صبية. كان عمري حينها، خمس عشرة سنة.

انطلاقاً من ذلك اليوم، فرضتُ على خيالي العذاب الأليم، وأنا أرتّب في ذهني آلاف التصاميم، لتغيير رأي بوكروفسكي فيّ. لكني كنتُ بعض الأحيان خجولة، فلم أتمكّن بشأن تلك الحالة، من أن أعزم على فعل شيء ما بتصميم؛ لذلك، اقتصرت على أحلام اليقظة (والله وحده يعلم أية أحلام كانت!). توقفتُ فقط عن مشاركة ساشا أفعالها الصبيانية؛ ولم يعُد بوكروفسكي يغتاظ كليّة ضدنا؛ غير أن ذلك لم يكن يرضي كبريائي، بشكل تام.

سأقول الآن شيئاً ما عن الرّجل الأشدّ غرابة وعُجباً والأدعى للشفقة، من بين سائر مَن رأيت من البشر في حياتي. وإذا كنتُ أتحدّث الآن، عن هذا الرّجل في سياق هذه المذكرات، فلأني إلى حدود هذا الوقت بالذات، لم أكن قد انتبهت إليه إلا ضمن حدود ضئيلة؛ غير أن جميع ما بات يمتّ بصلة إلى بوكروفسكي، صار فجأة يكتسب أهميّة قصوى، بالنسبة إليّ.

كان يحلّ ببيتنا شيخٌ قصير القامة، أبيض الشَّعر، متسخ، رثّ الثياب، في حركاته بعض الميل والحرج؛ أي أنه كان باختصار

شديد، شيخاً غريب الأطوار. ويمكن من خلال النظر إليه وحسب، أن نعتقد أنه يشعر بالخجل، وبأنه محرج من شخصه، ما دام أنه يُجهد نفسه كثيراً، كي يختزل قامته؛ وظلّت حركاته وهيئته توحي لمن يراه، بأنه لا يملك كامل قوته العقلية. فحين يصل إلى بيتنا، يتوقف عند حدود المدخل، في مواجهة البوابة الزجاجيّة، ولا يجرؤ على التقدّم إلى الأمام، أبداً. وحين يعبر أحدٌ منّا - سواء أكنت أنا، أم ساشا، أم خادماً يعرف أنه يرفق به - ينادي على العابر فوراً، بحركات ميمية متنوعة من ذراعيْه، ولمّا يومئ له أحدُنا برأسه بعد ذلك، بإشارة تدلّ على أن ما من أحد غريب بالبيت، وأن بإمكانه الدخول إذا ما أحبّ ذلك، يفتح الشيخ البوابة حينها، دون أي صخب أو ضجيج، وهو يبتسم في فرح، ويفرك راحتي يديه برضا، ويسير رأساً صوب غرفة بوكروفسكي، على رؤوس قدميه؛ إذ كان الشيخ والده.

بعد ذلك، عرفتُ قصّة ذلك الرّجل المسكين، بتفاصيلها. كان يشتغل في السابق، مجرد مستخدم في مكان ما؛ ولأنه ظلّ لا يملك أية مواهب أو مؤهلات، فقد احتلّ ضمن السلّم الإداري البيروقراطي، المنصب الأتفه والأحطّ. وبعد وفاة زوجته (أمّ الطالب بوكروفسكي)، عزم على الزواج مرّة ثانية، فاقترن ببرجوازية. بعدها، انقلب كل شيء في حياته وبيته رأساً على عقب؛ لم تترك الزوجة البورجوازية أحداً، كي ينعم بالرّاحة والهدوء، وصارت تتحكّم في مصير الجميع. ولم يكن الطالب الجامعي بوكروفسكي حينها، سوى مجرد طفل في العاشرة من العمر. حقدت عليه زوجة أبيه، إلا أنّ القدر مكّنه من اتقاء شرّ تلك المرأة. تكفّل بويكوف بالفتى، وهو سيدٌ ملاّك كان على معرفة مسبقة بالمستخدم

بوكروفسكي، ويقدّر الخدمة التي قدّمها له هذا الأخير، في وقت من الأوقات؛ ووضعه في عهدته، وأرسله إلى المدرسة. لقد اهتمّ به الرّجل، لأنه كان أيضاً يعرف المرحومة أمه، وهي امرأة ظلّت أنّا فيدوروفنا تغدق عليها من إحسانها، وهي بعد فتاة شابّة، ثم هي من زوّجها ببوكروفسكي. أبدى السيد بويكوف، الصديق الحميم لأنّا فيدوروفنا، عطفه وسخاءه اتجاه محميّة السيدة أنّا؛ وحين تزوّجت، منحها هبة تقدّر بخمسة آلاف روبل. ترى، أين آلت تلك الأموال؟ لا أحد يعرف. كلّ هذا روته لي أنّا فيدوروفنا. أما بخصوص الطالب بوكروفسكي، فلم يكن يحلو له الخوض في شؤونه العائلية. يُقال إنّ أمّه كانت جميلة للغاية، وأنا لا أستطيع أن أفسّر بسبب أي حظ عاثر، تزوّجت هي من ذلك الرجل الخامل الذكر... لقد ماتت المسكينة، وهي لا تزال شابة، بعد أربعين سنة من الزواج.

بعد التخرّج من المدرسة، دخل بوكروفسكي مدرسة الرّياضة، وبعدها الجامعة. وظلّ السيد بويكوف، الذي غالباً ما كان يحلّ ببيترسبورغ، يتكفّل به باستمرار. واضطر بوكروفسكي، بحكم تدهور حالته الصحيّة، أن يتوقف عن الدراسة الجامعية. وفي تلك الأثناء، عرّفه السيد بويكوف على أنّا فيدوروفنا، وحرص على أن يقدمه إليها بنفسه، فتكفّلت هذه بإقامته وطعامه، شريطة أن يُعنى بتعليم ساشا الصغيرة.

كان بوكروفسكي العجوز، بينما هو يعيش حياته الزوجية في شقاء كبير، يبحث عن العزاء والسلوان في أحطّ الرذائل وأخسّها، فظلّ يجنح تقريباً إلى السّكر الدّائم. وكانت زوجته تعنّفه، وتعزله في المطبخ؛ وقد عوّدته على الضرب وسوء المعاملة، إلى أن انتهى به المطاف إلى تقبّل ذلك منها، دون شكوى أو تذمّر. لم يكن قد هرم

بما يكفي، لكنّ الإدمان على السّكر ساقه تقريباً، إلى مرحلة الخرف. وظلّ الأثر الوحيد، الذي يُجلي رقّة العواطف التي احتفظ بها، هو حبّه الجمّ لولده. وكان بوكروفسكي الابن، مثلما يُشاع، يشبه والدته المرحومة شبهاً كبيراً، وكأنهما كانا قطرتَي ماء. وكانت هذه زوجة بارّة. فهل أنّ ذلك الشيخ الفاسق لا يمحض ابنه كلّ ذلك الحبّ، إلا لذكراها في نفسه؟! لم يكن يستطيع الحديث إلا عنه، وظلّ يزوره بانتظام، مرّتين في الأسبوع. ولم يكن يجرؤ على المجيء في أغلب الأوقات، لأن بوكروفسكي الشاب لا يحتمل زياراته. وظلّ العيب الكبير لذلك الابن، من بين كافة العيوب الممكنة لديه، هو الوقاحة التي يبديها لوالده، وعدم احترامه له. ومع ذلك، ينبغي أن نعترف بأن هذا الأخير، قد ظلّ هو الكائن الوحيد في العالم، الذي يصعب على المرء أن يتحمّله. أولاً، لأنه كان فضولياً بشكل كبير؛ وثانياً، لأنه يحلّ لدى ابنه، في الأوقات التي يكون فيها هذا منشغلاً بأمر ما، فيأتيه ليشغله في كلّ لحظة وحين، بالحديث عن بعض الترّهات، أو ليسأله تلك الأسئلة الأشد لغواً وتفاهة؛ ثم لأنه في المقام الأخير، ظل يأتي في بعض الأحيان سكران. وشيئاً فشيئاً، قلّص الفتى الشاب من عادات والده السيئة، إلى أن انتهى به المطاف إلى جعله يصغي إليه وكأنه يستمع إلى كلام كاهن، وإلى ألّا يتجرّأ على فتح فمه بالحديث كلية، دونما استئذان.

ولم يستطع الشيخ المسكين من أن يشفي ظمأه من رؤية ابنه بيتينكا (هكذا كان يسميه!). حين يأتي لزيارته، يبدو دائماً بمظهر المنشغل البال والخائف، لأنه لا يعرف على الأرجح، أي استقبال سيلقاه من ابنه. كان عادة ما يتردّد للحظات طويلة في الدخول، وإذا ما حدث أن عبرتُ من هناك بالصدفة، يسألني مدّة دقائق بعينها،

مستفسراً عن: «كيف حال بيتينكا، إذن؟ وهل هو بخير؟ وكيف هو مزاجه، بالضبط؟ وهل ينشغل بأشياء مهمة؟ وماذا يفعل، تحديداً؟ أيكتب، أم هو غارق في التأمل؟». وحين أقدّم لهذا العجوز جميع التطمينات لأطمئنه، يقرّر في الأخير أن يدخل؛ يفتح الباب إلى حدود المنتصف، وقد احتاط في ذلك ألف احتياط، ثم يشرع ببطء شديد في إقحام رأسه، والدّفع به إلى الأمام. وإن حدث أن استقبله الابن بتحية خفيفة، عوض علامة الغضب، يمرق إلى داخل الغرفة، بخطوات غير مسموعة، وينزع عنه المعطف والقبّعة المثقوبة، دائماً في صمت وهدوء؛ بعد ذلك، يتجه خفية صوب مكان ما للجلوس، وعيناه تحملقان في ابنه بيتينكا، مراقباً جميع الحركات الصّادرة عنه، كي يحزر أية حالة نفسية يوجد عليها. وما أن يُظهِر الابن القليل من المزاج العكر، حتى يهبّ الوالد واقفاً، وهو يقدّم اعتذاراته قائلاً: «لم أشأ المكوث معك سوى دقيقة واحدة، يا بيتينكا. لقد كنت أقضي بعض الأغراض بالناحية، ولمّا مررتُ من هنا، دخلت البيت لأستريح عندك للحظة». بعدها، ودون إضافة كلمة واحدة إلى ذلك، يأخذ معطفه وقبعته بوداعة، ويفتح الباب بالحيطة نفسها، التي فتحه بها من قبل، فينصرف وهو يجهد نفسه، كي يبتسم في وجه ابنه، حتى يخفي عنه أثر الحزن الذي غمر قلبه.

لكن، حين يستقبله الطالب بكيفية حفية، يطير الوالد من شدّة الفرح. تشعّ الطمأنينة من عينيه، وتراها تنبثق من حركاته وردود أفعاله. وإذا وجّه له الكلام، يقوم عن كرسيه نصف قومة، ويجيبه بصوت منخفض، وبنبرة ذليلة وخاشعة تقريباً، مستعملاً بعض العبارات المنتقاة بعناية فائقة، ما أمكنه ذلك؛ بمعنى تلك العبارات التي تبعث أكثر على الضحك. فقد كانت تعوزه موهبة البلاغة في

التعبير: دائماً ما يضطرب، ويخجل من نفسه إلى ذلك الحدّ الذي لا يعرف معه، أين ينبغي له وضع اليدين، ولا ما الذي ينبغي أن يصنعه بنفسه؛ وبعد أن ينطق بما تيسّر له النّطق به، تسمعه يغمغم مع نفسه لوقت طويل، وكأنّه يريد أن يعدّل من طبيعة الكلام، الذي تفوّه به من قبل. لكنْ، وعلى العكس من ذلك، حين يحالفه الحظّ في الردّ على كلام ابنه بكيفية جيّدة، تراه يتطاوس، ويسوّي من صدريته، ومن رابطة عنقه، ومن بزّته الرّسمية؛ أي يبدو عليه باختصار، مظهر مَن يثق في نفسه، ويعتدّ بكفاءته الذهنية. وفي مثل هذه الحالات، يذهب في جرأته وثقته بنفسه أحياناً، حدّ القيام من كرسيه بهدوء، والاقتراب من الرفّ المليء بالكتب، وإخراج مجلد كيفما كان نوعه، والانهماك في قراءته. يفعل كلّ ذلك، وهو يتصنّع اللامبالاة وبرودة الدّم، وكأنه كان يتصرّف مع كتب ابنه دائماً بتلك الكيفية، وكأنّ لطف هذا الأخير معه، لم يكن قط شيئاً نادراً بالنسبة إليه. إلا أني كنت شاهدة على خوف ذلك المسكين، في يوم كان بوكروفسكي قد طالبه فيه، بعدم لمس الكتب. اضطرب الرّجل في اللحظة التي أسرع فيها بردّ الكتاب إلى الرفّ، فزرع الفوضى في بقية الكتب؛ ثم قلب ذلك الكتاب الذي كان في يده قلباً، بأن وضع وجهه محل قفاه بين الكتب، في إهمال منه. وظلّ يبتسم، ووجهه يحمرّ، ولا يعرف كيف ينبغي له أن يمحو جريرته. وشيئاً فشيئاً، أخذت نصائح بوكروفسكي الشاب، تنتصر على ميول العجوز السيئة. فحين لا يلاحظ الطالب الجامعي على والده، حالة السكر البيّن لثلاث مرّات متتالية، يعطيه في الزيارة الموالية، وفي اللحظة التي يريد فيها توديعه، إما خمسة وعشرين كوبيكاً، أو نصف روبل، أو حتى أكثر. ويشتري له بين الفينة والأخرى، إما حذاء، أو ربطة عنق، أو

صدرية. وكان المستخدم العجوز، حين يرتدي تلك الأشياء الجديدة، يختال زاهياً بنفسه، فيبدو وكأنه ديك. وكان في بعض الأحيان، يأتي لقضاء أوقات معنا. يأتي بتفاح أو بحلوى عجينية لساشا ولي أنا أيضاً، فيتحدث إلينا طيلة الوقت عن بيتينكا. يطلب منّا أن ننتبه جيّداً في حصة الدّرس، وأن نكون مطيعتين جيّدتين لمعلمنا؛ وكان يقول إن بيتينكا يظل بالنسبة إليه، ابناً بارّاً ونموذجياً، وهو إلى جانب ذلك ابنٌ عالِم. وحين يتحدث إلينا بتلك الكيفية، كانت عينه اليسرى تغمز على نحوٍ مثير حقاً للسخرية، وكان يقطّب بعض التقطيب الهزلي، إلى حدّ أننا لا نستطيع كبت رغبتيْنا المجنونتين في الضحك. وكانت أمّي تحبّه كثيراً، لكن العجوز ظلّ يكره أنّا فيدوروفنا، حتى ولو أنه كان يبدو أمامها «أهدأ من ماء راكد، وأبطح من عشب واطئ».

لم ألبث أن انقطعت عن أخذ الدروس عن بوكروفسكي. فقد ظلّ لا يراني إلا مجرد صبية وطفلة، مثلي مثل ساشا. وكان ذلك منه قد أغاظني كثيراً، لأني لم آلُ جهداً في محاولة محو آثار سلوكي القديم معه. لكنه لم يلاحظ ذلك، وهو ما ظلّ يستثير حفيظتي أكثر فأكثر. ولم أكن أنا تقريباً، أتحدث إلى بوكروفسكي خارج حصص الدرس؛ زدْ على ذلك أنه كان من المستحيل علي التحدّث معه بتلقائية. فقد كان وجهي يحمرّ من فرط الخجل، ويخونني الاسترسال في الكلام، فأنسحب مرغمة على البكاء في ركن ما.

لا أعرف كيف كان سيؤول ذلك، لولا صدفة عجيبة قرّبت فيما بيننا الفجوة. ذات مساء، وبينما كانت أمي تزور أنّا فيدوروفنا في غرفتها، دلفتُ أنا إلى غرفة بوكروفسكي. كنتُ أعرف أنه غائب، وأجهل حقّاً كيف تسنّى لي التفكير في دخول غرفته. إلى حدّ ذلك

الحين، لم أدخل قط إلى غرفته، رغم أنّ بابها ظل لصيقاً بباب غرفتنا، ورغم أننا صرنا جيراناً، منذ أكثر من عام. أخذ قلبي بسرعة يخفق هذه المرّة بقوة، إلى أن بدا وكأنه سيندفع خارج صدري. ألقيت بنظرة فضولية من حولي. كانت غرفة بوكروفسكي مؤثثة بأثاث فقير للغاية، وغير مرتّبة بعناية. في جدران الغرفة، ثُبِّتت خمس لويحات خشبية مليئة بالكتب. ثمة ورق متناثر على المنضدة، وفوق الكراسي. لا يوجد بكثرة هناك، غير الورق والكتب! وفي الحال، خطرت ببالي فكرة رهيبة، تسبّبت لي في اللحظة نفسها، في حسرة حقيقية. افتكرتُ أنّ مجرد الصداقة والعاطفة الصادقة لقلب محبّ، ظلت بالنسبة إلى بوكروفسكي شيئاً قليلاً. فهو إنسان متعلّم، بينما أنا فتاة بلهاء، لا تعرف أي شيء، ولم تقرأ أي شيء، ولو مجرد كتاب واحد... ألقيت نظرة حاقدة في اتجاه الرّفوف الطويلة، التي تنثني من فرط الثقل المحمول فوقها، فاستبدّ بي الحزن والغيظ ونوع من الهياج. ورشّحتُ نفسي في الحال، وأنا كلي عزم وتصميم، كي تقرأ كتب بوكروفسكي، رشّحتها كي تقرأها كاملة، إلى آخر كتاب منها، في أقرب مناسبة. ولم أعرف لماذا عزمت على ذلك في الحال، وإنما اعتبرت أني ربما سأكون جديرة أكثر بصداقته، حين أحيط علماً بكل ما كان هو يعرفه. لذلك، دنوت بحماس من الرفّ الأول، وتناولت أول مجلد كان طوع يدي، دون تفكير ولا تردّد، وكان كتاباً قديماً يكسوه الغبار، ثم حملته إلى غرفتي، وأنا أحمرّ وأصفرّ وأرتعش من شدّة الانفعال والخوف، وقد نويت قراءته في الليل، على ضوء قنديل السّهر، حين تنام والدتي.

لكن، شدّ ما كانت خيبتي كبيرة، حين اكتشفت، وأنا أفتح الكتاب، بعدما دخلت غرفتنا، بأنه كان مؤلفاً قديماً كُتِب باللاتينية،

قرضتْ الأرضة نصفه! حينها، عدتُ على الفور إلى غرفة بوكروفسكي. وما أن تهيأت لإعادة الكتاب إلى الرفّ، حتى سمعتُ على أرضية المدخل، وقع خطوات تتجه صوب الغرفة. لم يكن أمامي وقت كافٍ لإضاعته، فشرعت في إرجاع المجلد بسرعة إلى مكانه؛ لكن الصفّ الذي أخذت منه ذلك الكتاب اللعين، ظلّ متماسكاً ومتكاثفاً جدّاً، إلى درجة أنه لمّا انتزع من بين الكتب الأخرى، سدّت البقية الفراغ المتروك من تلقائها، ولم تترك بالكلّ أيّ مكان إضافي، ليحتلّه. حاولتُ عبثاً إنقاذ الموقف، لكني لم أتمكّن من إرجاع الكتاب إلى المكان، الذي أخذته منه. ومع ذلك، لم أتراجع، وإنما ظللتُ أجهد نفسي لإرجاعه، لكن المسمار الصدئ، الذي كان يمسك اللويحة الخشبية، ولا ينتظر غير تلك اللحظة للانكسار، تكسر! هوى الرفّ من أحد طرفيه، وإذا بالكتب تتبعثر على الأرضية، مخلفة صوت فرقعة مسموعاً. فُتِح الباب في تلك الأثناء، ودخل بوكروفسكي إلى الغرفة.

في هذا المقام، ينبغي أن أشير إلى أن بوكروفسكي، لم يكن يحتمل أن يتصرف أيّ أحد بحرية في غرفته، وكأنه صاحب البيت. والويل كل الويل لمن تسوّل له نفسه الاقتراب من الكتب! لذلك، أدعوكم إلى تصوّر مدى الخوف الذي اعتراني، حينما رأيت تلك الكتب، بسائر أحجامها وأشكالها، تهوي من الرفّ، وتتدحرج تحت المنضدة والكراسي، وتتوزع على أرجاء الغرفة كلها. أردت أن أفرّ فالتة بنفسي، لكن الوقت قد فات. «لقد انتهى كل شيء!»، ردّدت في قرار نفسي. «كل شيء قد انتهى! ضعت، وانتهيت! ها إني ضبطتُ كطفلة في العاشرة من عمرها، تتسلى بأعمالها الصبيانية! إني والله لفتاة خرقاء، فتاة كبيرة وخرقاء وغبية، كذلك!». دخل

بوكروفسكي، وقد استبدّ به غضب شديد. «ما كان ينقص غير هذا!»، صاح زاعقاً. «ألا تخجلين من نفسك، ومن أفعالك الصبيانيّة؟!. . . ألا تكفّين عن هذا، أبداً؟!. . .». ثم شرع في جمع الكتب، هو نفسه. انحنيت لأساعده في ذلك، فانبرى يصيح في وجهي: «هذا لا ينفع! لا ينفع! كان عليك بالأحرى، ألّا تدخلي إلى هذا المكان، لم يدْعُكِ أي أحدٍ إلى دخوله!. .». لكن الخضوع الذليل الذي ترجمه تصرفي أمامه، ما لبث أن هدّأ من فورة غضبه، وشرع بعد أن خفّت حدّة صوته، يلقنني درساً في الأخلاق، مثلما تسمح له صفة المربّي القديمة أن يفعل: «بالله عليكِ، متى تصبحين أكثر نضجاً ورصانة في أفعالك؟ متى ستتعقلين؟ انظري إلى نفسك، أنت لم تعودي بعد طفلة صغيرة، إذ صار لك خمسة عشر عاماً!». وفي الحال، نظر دون شك إلي، ليتأكّد من أني كبرت، وأني لم أعد بعد طفلة صغيرة، فإذا بوجهه يتضرّج بحمرة، امتدّت إلى أذنيه. لم أفهم أنا سبب ما وقع له، فوقفتُ أمامه، أتفحّص في عينيه المنبلقتين في دهشة. استقام في وقفته من جديد، واقترب مني في نوع من الارتباك، ثم أخذ يتلعثم بعبارات غير منسجمة، بعد أن استبدّ به اضطراب قوي؛ بدا وكأنه ربما يعتذر، عن كونه لم يلاحظ قبل ذلك الوقت، أني أصبحت فتاة يافعة. في النهاية، فهمت ما حلّ به. حينها، لم أعُد أذكر ما حدث بدواخلي؛ احمرّ وجهي أكثر مما احمرّ وجهه، واضطربت، وبقيتُ ذاهلة؛ وبعدها، اندفعت أعدو خارج الغرفة، وقد غطيتُ وجهي بكلتا يدي.

لم أدرِ ما العمل، ولا أين أختبئ، من فرط خجلي. كان من شأن عثوره علي فقط، في غرفته، كفيل بجعلي أخجل، وأحرى أن يقع كلّ ما وقع! لقد استحال علي تحمّل رؤيته، لمدّة ثلاثة أيام.

كنت أحمرّ من فرط الخجل، إلى أن تكاد الدموع تنبجس من عيني. وظلّت بعض الأفكار الغريبة، والأفكار المثيرة للسخرية وللضحك، تعتمل في رأسي. وكان من أغرب وأشذّ تلك الأفكار جميعاً، هذه: أردتُ التوجّه إلى بوكروفسكي، لأشرح له الدّافع الذي حذا بي إلى الدخول لغرفته، وأن أصارحه بشأن كلّ شيء، وأحكي له صراحة عن كل شيء، وأطمئنه بكوني لم أفعل كلّ ذلك، من منطلق أني طفلة غبية، وإنما كان قصدي نبيلاً. وقرّ قراري على تنفيذ تلك الفكرة، إلّا أن الشجاعة لم تواتني، ولله الحمد. إني لأتصوّر الآن، مقدار الحماقة التي كنت سأقدِمُ عليها! ولم أعد إلى حدّ الآن، أقوى على تذكّر كلّ ذلك، دون أن أشعر بالارتباك أو الخجل.

بعد ذلك بوقت قليل، مرضتْ أمّي بكيفية خطيرة. بقيَت هي طريحة الفراش ليومين، وكانت تعاني من الحمى والهذيان، لثلاث ليال متوالية. وسهرتُ أنا بقربها ليلة كاملة، وكنت أجلس إلى جوار سريرها، وأقدّم لها الماء والدواء في الأوقات المحدّدة. وفي الليلة الثانية من مرضها، وجدتني منهارة القوى. كان النوم يهاجمني بين الفينة والفينة، وأحسّ برموشي تتثاقل، ورأسي تدور. وفي كلّ لحظة، كنت على وشك السقوط من فرط التّعب، إلا أنّ أنين أمّي المتقطّع ظلّ يوقظني، فأحرّك أعضائي، وأفلت بنفسي للحظة من الإغفاء، لكني سرعان ما أنام للحظات بعدها مجدّداً، وأنا مُكرَهة على ذلك. كنت أتعذّب بشدّة. لست أعرف، إذ لم أعد أتذكر، إنما مرّ بي حلم مروع، هو رؤية مرعبة رأيتها في لحظة من تلك اللحظات العصيبة، حين كانت رأسي المنهكة تعاني من صراع اليقظة والنوم. وكان رعبي شديداً، إلى حدّ أني استفقت منتفضة ومرتجفة. كانت العتمة تنتشر حولي، وقنديل السّهر على وشك الانطفاء، وبعض

خيوط الضوء تنير الغرفة كلها تارة، وتتحرّك رافة على الحائط تارة ثانية، وتختفي بشكل نهائي تارة أخرى. سيطر عليّ الخوف. تملّكني نوع من الهلع الشديد؛ وكان خيالي قد تحرّك بفعل تلك الرّؤية المروّعة، والخوف كبس على مغالق قلبي... قفزتُ من فوق الكرسي، وانفلتتْ من بين شفتيّ صيحة مدوّية، خرجت بالرغم عنّي. وفي تلك الأثناء، انفتح الباب، ودخل بوكروفسكي إلى غرفتنا.

لا أتذكّر فقط إلّا كوني عدتُ إلى رشدي، وأنا بين ذراعيه. حملني بعناية إلى الأريكة، وقدّم لي كأس ماء، وطوّقني بالأسئلة. «إنّك مريضة، أنتِ أيضاً مريضة جدّاً»، قال وهو يشدّني من يديّ؛ «أنت مصابة بالحمى، وستقتلين نفسك إنْ لم تعتنِ بصحّتك؛ اهدئي، نامي، نامي قليلاً... نامي إذن، نامي!»، تابع قائلاً دون أن يتركني أنبس بكلمة واحدة. استسلمتُ له، فانغلقَت رموشي من تلقاء نفسها. تمدّدت فوق الأريكة، لا ألوي سوى على إغفاءة تدوم نصف ساعة، غير أني نمت إلى الصّباح. لم يوقظني بوكروفسكي إلا في اللحظة التي تعيّن عليّ فيها تقديم الدّواء لأمّي.

في الغد، استأنفتُ السّهر بقربها، بعد أن ارتحتُ قليلاً في النّهار، وأنا عازمة بحزم هذه المرّة، على مقاومة النوم. في السّاعة الحادية عشرة، دقّ بوكروفسكي باب غرفتنا. فتحت له. قال، حين رآني: «إنّ البقاء وحيدة أمرٌ مملّ، بالنسبة إليك... هذا كتاب، خذيه؛ لن تشعري على الأقل بالضّجر، وهو بين يديك». تناولتُ منه الكتاب. لم أعُد أذكر أيّ كتاب كان؛ كما أني لم أعد أذكر إن كنت حينها فتحته أم لا، لكني ليلتها لم أنَم. أرّقني اضطراب نفسي غريب، فلم أستطع المكوث جالسة في مكاني، إذ غادرت الأريكة عدّة مرّات، وأخذتُ أمشي وسط الغرفة. غمر جميع كياني نوع من

الرّاحة النفسيّة. شعرتُ بالفرح لكوني توصّلت من بوكروفسكي بإشارة تنمّ عن بعض الاهتمام! كنتُ فخورة لما أظهره نحوي من همّ، وانشغال بال. بتُّ الليل وأنا أفكّر، وأحلم. لم يجدّد بوكروفسكي زيارته؛ وكنت مع ذلك أعرف مسبقاً بأنه لن يجدّد زيارته بالكل، فانشغل بالي بالتفكير في ما سيحدث مساء اليوم الموالي.

في مساء الغد، وبعدما خلد جميع من بالدّار إلى النوم، فتح بوكروفسكي باب غرفته، ووقف على العتبة، وأخذ يحادثني. لم أعُد أذكر بالكلّ أيّة كلمة من تلك الكلمات، التي تبادلناها حينذاك؛ لكني أذكر وحسب أني كنت مضطربة، وذاهلة، وغير راضية عن خجلي، وأنتظر بنافد الصّبر حلول اللحظة، التي ينتهي فيها الحديث؛ رغم أني كنتُ أرغبُ فيه طيلة النهار، وأفكّر فيه، وأهيّئ أسئلتي وأجوبتي، من قبل... ومن ذلك المساء، بدأت صداقتنا. وكنّا طوال المدّة التي دام فيها مرض أمّي، نقضي كل ليلة بضعة ساعات مع بعضنا. وشيئاً فشيئاً، انتصرتُ على خجلي، رغم أني كنت أمكُث بعد كلّ حديث من أحاديثنا، غير راضية عن نفسي بما فيه الكفاية. ومع ذلك، ظللتُ أحسّ بلذة خفية، وبرضى عن كبريائي، حين أرى أني أُنسي محدِّثي كتبه غير المحتملة. وفي يوم من الأيام، بلغ بنا الحديث بالصدفة، إلى موضوع الحادثة التي جرت لي مع الكتب. كانت لحظة غريبة؛ ربما أفرطتُ أثناءها في الصراحة والصدق؛ فبحتُ له بكل شيء، تحت سطوة حماس منقطع النظير... قلت له إني أردتُ التّعلم، ودراسة شيء ما، وأني شعرت بالحنق حين نعَتَني بكوني مجرّد صبية، وطفلة صغيرة... وأعود إلى القول بأني كنتُ حينها، تحت تهيؤ ذهني غريب جدّاً؛ ظلّ قلبي أثناءه يضعف، ودمعي يترقرق في عيني؛ لم أخْفِ عنه أي شيء،

فبحثُ بكل شيء: بصداقتي له، وبرغبتي في محبّته، وفي العيش معه في اتصال روحي، وفي أن أحظى بأن أكون له العزاء والسلوان، وفي أن أهدّئه. ظلّ ينظر إليّ نظرة غريبة، وقد شعر بالحرج والدهشة، ولم ينطق ولو بكلمة واحدة. فجأة، شعرتُ بحزن مرير. خيّل إليّ أنه لم يفهمني، وأنه ربما يستخفّ منّي. انفجرت بالبكاء على حين غرة، وكأني صبية صغيرة، وشرعتُ في النشيج دون القدرة على كبح نفسي؛ وكأنما اعترتني فورة عصبية داهمة. أمسك بيديّ، وقبّلهما، وضغط عليهما فوق صدره، وأغدق عليّ من عبارات المواساة؛ وبقي متأثراً. لم أعُد أذكر ما قاله لي؛ أذكر فقط أني بكيت، وضحكتُ، وبكيت من جديد، واحمرّ وجهي من فرط الخجل، ولم يسمح لي الفرح بأن أنبس ولو بكلمة واحدة. ومع هذا، لاحظتُ رغم انفعالي واضطرابي، بأنّ بوكروفسكي ظل يشعر بالحرج والضيق. بدا كأنه لم يستطِع أن يفيق من وقع المفاجأة، التي تسبَّب له فيها انجذابي نحوه، واستثارتي المتحمّسة له، أي هذه الصداقة المباغتة والمتّقدة والجموحة للغاية. في البدء، لم يبدُ له كل هذا إلّا مثيراً ربما للفضول؛ لكنه فيما بعد تردّد، فقبل صداقتي وعباراتي المتودّدة واهتمامي، مهما كان ذلك صريحاً وساذجاً؛ فردّ عليه بعاطفة صديق صدوق، وأخ حقيقي. شعرت حينها بقلبي يمتلأ بحرارة كبيرة وفرح عارم!... لم أخفِ عنه أي شيء، ولم أبقِ على شيء ملغز؛ وظل هو يلاحظ ذلك، وصار يتعلّق بي أكثر، يوماً بعد آخر. لم أعد أتذكّر صراحة، عن أي شيء كنّا نتحدّث سوية بالليل، لساعات هي في الوقت نفسه شاقة وممتعة، على ضوء القنديل المرتجف الضوء، الذي وُضع أمام أيقونة العذراء، بالقرب نسبياً من أمي المسكينة المريضة... كنّا نقول كلّ ما يخطر ببالِنا، وينبع

مباشرة من قلبيْنا، وما يتطلّع للانفلات من بين شفتيْنا؛ وكنّا تقريباً سعيديْن. . . آه! لكم كان عهداً تعيساً وسعيداً، في الآن ذاته! وما زلت أتذكّره إلى اليوم، بمزيج من الفرح والحزن. إن الذكريات، سواء أكانت ممتعة أم مؤلمة، لتتسبّب للمرء دائماً في المعاناة؛ هذا على الأقل هو الانطباع، الذي أشعر به. لكن، ثمة كذلك بعض العذوبة التي يشعر بها المرء في تلك المعاناة؛ وحين ينوء القلب تحت ثقل التعاسة، أو المرض، أو الحزن، فإنّ تلك الذكريات سرعان ما تنعشه، وتحييه من جديد، مثلها كمثل الزّهرة الصغيرة المسكينة، التي تنتعش، وتحيا مرة أخرى، بفضل قطرات النّدى التي تسقط فوقها ذات مساء رطب، بعد نهار حارق يبّستها فيه أشعة الشمس.

دخلت أمّي مرحلة النقاهة، لكني واصلتُ السهر بالقرب من سريرها. وغالباً ما كان بوكروفسكي يعيرني الكتب؛ وكنت أنا أقرأها، كي لا أنام في البداية، لكنها صارت تخلق عندي في ما بعد، الكثير من الاهتمام، فانتهيتُ أخيراً بالتهامه، في نهم كبير. لقد صار عالم كامل، ظلّ مجهولاً بالنسبة إليّ إلى ذلك الحين، ينفتح أمامي على حين غرة. كنت كمَن أغرَقَه سيلٌ جارف من الأفكار والانطباعات الجديدة. وكلما كان انقضاض تلك الأحاسيس فظّاً وعاصفاً ومبلبلاً، كلما كانت بالنسبة إليّ عزيزة، وكلما حرّكت على نحوٍ شهواني ما، مجامع روحي. وفجأة، انتشرت بقلبي جملة وتفصيلاً، دون أن تتركه يتنفّس. وشرع على إثر ذلك، سديم غريب يتحرّك في كامل كياني، لكنّ هذا العنف المعنوي لم يستطع أن يخرّبني بشكل كليّ، من الدّاخل. لقد كنت حالمة على نحوٍ مفرط، وهو ما أنقذني.

وضَعَ شفاء والدتي نهاية لتلاقينا في المساء، ولتجاذبنا أطراف الحديث الطويل سوية؛ وكان يحدث لنا في بعض الأحيان، أن نتبادل الأحاديث التي غالباً ما تكون فارغة وعديمة الأهمية، إلا أنه ظلّ يحلو لي أن أمنحها دلالة معنوية، وأعطيها قيمة خاصّة، ومعنى ضمنياً. كانت حياتي قد امتلأت، فصرتُ سعيدة، سعيدة على نحو هادئ وعذب. وهكذا، تعاقبت عدّة أسابيع...

في تلك الأثناء، جاء العجوز بوكروفسكي لزيارتنا. تحدّث معنا طويلاً، وبدا في غاية الابتهاج، وحيويّاً جدّاً، ومتدفّق الكلام أكثر من المعتاد؛ يضحك، ويمزح على طريقته، واكتشفنا في الأخير سبب فرحه: كان عيد ميلاد بيتينكا على مسافة أسبوع؛ وبهذه المناسبة، سيقوم هو بالتأكيد بزيارة ابنه؛ سيرتدي أثناء ذلك صدرية جديدة، وقد وعدته زوجته بأن تشتري له جزمة جديدة. كان باختصار في غاية الفرح، ويثرثر ثرثرة لا ينضب لها مَعين.

عيد ميلاد بيتينكا! لم تتركني هذه الفكرة أهدأ، لا ليلاً ولا نهاراً. لقد عزمتُ على البرهنة له عن صداقتي، وعلى أن أقدّم له هدية. لكن، أية هدية؟ رأيت في النهاية أن أهديه كتباً. كنتُ أعرف بأنه يرغب في اقتناء الطبعة الأخيرة من أعمال بوشكين الكاملة؛ لذلك، قررتُ أن أشتري له تلك الأعمال. فقد كنت أملك ثلاثين روبلاً، كسبتها من عملي، ووضعتُ المبلغ جانباً، لعلّي أشتري به فستاناً جديداً. لذلك، أرسلتُ على وجه السرعة طباختنا، العجوز مارتينا، كي تستعلم عن سومة الأعمال الكاملة لبوشكين. للأسف! يصبح ثمن أحد عشر مجلداً، بالإضافة إلى ثمن التسفير، ستين روبلاً! تُرى، من أين يمكن لي أن أجد بقية المال؟ أعدتُ طرح السؤال بأكثر من صيغة، وأنا أفكّر في الأمر، لكنني لم أتوصّل لأي

جواب. لم أشأ الالتجاء إلى والدتي. كانت ستنجدني بدون شك من ورطتي، إلّا أن كافة مَن بالبيت بالمقابل، كان سيسمع بأمر هديتي. زِدْ على ذلك، أن أمّي والآخرين لو علموا بذلك، لما اعتبر ذلك هدية منّي، وإنما تسديد لدين مستحق، ومكافأة للأعباء التي تجشَّمها بوكروفسكي من أجلي، وهو يدرّسني طيلة سنة بكاملها. لقد تمسّكتُ بأن أقدّم له الهدية لوحدي، في جهل تام للجميع بذلك. أما بالنسبة إلى الدروس، التي قدّمها لي معلمي القديم، فأردتُ أن أبقى له مَدينة بذلك دائماً، وألّا أكافئه عليها بغير صداقتي. وفي نهاية المطاف، وجدتُ وسيلة للخروج من الورطة.

أعرف أنّ بإمكان المرء، حين يشاكس في الثمن، أن يعثُر لدى باعة الكتب المستعملة، بناحية غوستيني دوفور، على كتاب يكاد يفقد في الغالب رونقه، إلا أنه يبقى مع ذلك، أقرب إلى حالته الجيّدة للغاية؛ وكل ذلك بنصف الثمن الأصلي. وهكذا، استقرّ قراري على الذهاب إلى ناحية غوستيني دوفور. ولَكَم كانت الفرصة مواتية! فقد كنّا غداة اليوم الموالي، بحاجة إلى اقتناء بعض الحاجيات، مثلما كانت أنّا فيدوروفنا في حاجة إلى ذلك أيضاً. وكانت أمّي متعبة بعض الشيء، ولا تعبأ أنّا فيدوروفنا يومها بالخروج، لقضاء أغراضها بنفسها؛ لذلك، تكلّفتُ أنا إذن بالقيام بتلك الأعمال، وخرجت رفقة ماترينا.

لحسن الحظ، وجدت بسرعة نسخة من الأعمال الكاملة لبوشكين، وكانت مسفّرة بالجلد كذلك. ثم بدأتُ في مشاكسة الكُتُبِيّ. في البداية، طالبني بثمن أكبر بكثير من ثمن المكتبات، لكن بعد أن ماحكته، وتظاهرت له عدّة مرات بالانصراف، اضطرّ بعدما لانت قناته إلى المطالبة بعشرة روبلات نقداً. ولكم كانت فرحتي

كبيرة، وأنا أشاكسه بتلك الكيفية!... لم تفهم ماترينا المسكينة ما الذي حلّ بي، ولا لماذا تمسّكتُ بشراء كلّ ذلك الكمّ الهائل من الكتب. لكن، للأسف! كانت كل ثروتي تتلخّص في ثلاثين روبلاً ورقياً، ولم يشأ التاجر أن يسمع منّي أيّ سعر مخفّض جديد. انهمكتُ في التوسّل إليه، وتوصلت بفعل إلحاحي واستعطافي، إلى الحصول منه على تخفيض، إلّا أنه كان تخفيضاً لروبلين وخمسين كوبيكاً وحسب؛ وأقسم الكتبي بأغلظ أيمانه، وهو يقول بعد ذلك، إنه لم يقبل بذلك التخفيض، إلّا إرضاء لسواد عيني وحسب، لأني آنسة جميلة جدّاً، أما لو كان الأمر يتعلق بأحد آخر غيري، فإنه لن يخفض من تلك السومة، على الإطلاق. لقد ظلّ ينقصني روبلان ونصف نقداً! في تلك الأثناء، بلغ مني الحزن مبلغاً عظيماً، كدتُ أبكي معه. لكنني توصّلت، بفضل الظرف الذي لم يكن أبداً في الحسبان، إلى الخروج من الورطة.

أمام بسطة الكتب المعروضة في كشك آخر، غير بعيد عنّي، أبصرتُ العجوز بوكروفسكي. كان يجتمع حوله أربعة إلى خمسة كتبيين، يضايقونه، ويذهلونه أكثر فأكثر بعروضهم. كان كلّ واحد من هؤلاء، يقدّم له سلعة خاصة. فأي شيء لم يقدّموه له؟! وأية بضاعة لم يرغب هو في اقتنائها؟! ظلّ المسكين ضائعاً بين هؤلاء الباعة، لا يعرف ماذا عليه أن يختار، من بين جميع ما عُرض عليه. اقتربتُ من العجوز، وسألته عمّا يفعل هناك. ابتهج للقائي به؛ فقد كان العجوز يكنّ لي حبّاً جمّاً، يشبه ما ظلّ ربما يكنّه لابنه بيتينكا. «ها أنت ترين بأني منهمك في شراء بعض الكتب لبيتينكا. عمّا قريب، سيحلّ عيد ميلاده، وهو يحبّ الكتب؛ لهذا، أريد شراءها له، إذن...». كان العجوز يعبّر دائماً بطريقة مثيرة للضحك، وما

بالك في هذه اللحظة التي أوشك فيها على فقدان عقله! كان ثمن بعض الكتب التي شاكس في شأنها، يتراوح بين روبل نقدي واحد، وروبلين، أو ثلاثة روبلات؛ أما المجلدات الضخمة، فلم يسأل حتى عن ثمنها؛ إذ ظلّ ينظر إليها فقط، بعين مفعمة بالرغبة، ويقلّب صفحاتها، ويعيد طرحها بين يديه، ثم يعيدها إلى مكانها. «لا، لا، ثمنه باهظ، قال بصوت خفيض... لكنني ربما سأجد شيئاً هنا...». وشرع يتفحّص بعض اللويحات الصغيرة المتنوعة، وبعض المؤلفات الغنائية، وروزنامات التقويم؛ وكان كل ذلك بثمن بخس. «لكن، لماذا تريد شراء كل هذه الحثالة؟! سألته... فهي ليست سوى رداءة!». «آه! لا، لا، أجابني... انظري فقط أي كتب جميلة، هنا! سترين بأن هناك كتباً جميلة جدّاً جدّاً هنا!». ونطق هاتين الكلمتين بنبرة منتحبة وشاكية أكثر، إلى درجة أني اعتقدت أنه أوشك على البكاء من شدّة الألم والحسرة، لأنّ الكتب الجميلة كانت باهظة الثمن؛ وكنتُ أنتظر رؤية دمعة صغيرة تطفر من عينيه، وتجري على خديه الشاحبين، لتلتفّ حول أنفه المحمر. «ما هو المبلغ الذي تتوفّر عليه؟»، سألته. «ها هو ذا»، فكشف المسكين عن المال الذي يملكه كله، وكان ملفوفاً في ورقة قذرة من أوراق الجريدة. «ها قطعة من البولتينيك، وأخرى من الدفوغريفينيك، وقطع نحاسية أخرى من فئة عشرين كوبيكاً». وعلى الفور، جررتُه نحو الكتبي الذي توقفت عنده من قبل. «المجلدات الأحد عشر التي ترى، تساوي كلها اثنين وثلاثين روبلاً ونصف؛ وأنا معي ثلاثين؛ وإذا أضفت روبلين ونصف من عندك، اشتريناها بالثمن المطلوب؛ وبذلك، سنقدّمها نحن الاثنين جميعها، هدية مشتركة».

دفع العجوز، وقد جُنّ من شدّة الفرح، بكلّ ما كان في ملكه

للكتبي، وتركه هذا يحمل كلّ الكتب التي شكّلتْ مكتبتنا المشتركة. دسّ الرجل الأخرق بعض المجلدات في كافة جيوبه، وأمسك بالعديد منها بيديه، ووضع أخرى تحت إبطيه، ثم انصرف إلى بيته وهو محمّل بتلك الحمولة الثقيلة، بعدما أقسم لي أنه سيأتي بها إلى بيتنا، خلسة، في اليوم الموالي.

وفي الغد، جاء العجوز لزيارة ابنه، وبقي معه بعض الوقت كالعادة، وقد اكتسى وجهه هيئة ملغزة، يشوبها شيء مضحك للغاية. أخذ وهو يبتسم، في فرك يديه بطريقة تنمّ عن الرضى المفعم بالزهو، الذي يشعر به كلّ مَن كان ينطوي على سرّ ما؛ ثم شرع في إخباري أنّ كل الكتب قد تمّ نقلها إلى البيت، دون لفت انتباه أي أحد، وأنها توجد في ركن ما من المطبخ، تحت عناية ماترينا. بعد ذلك، تحادثنا في ما بيننا بشكل طبيعي، حول العيد المقبل؛ وعلى إثر ذلك، انتقل العجوز إلى طرح السؤال الذي ظل يلحّ عليه طويلاً، حول الكيفية التي سوف نقدّم بها الهدية. وبقدر ما كان يعمق الحديث في موضوع السؤال، بقدر ما كنت ألاحظ على نحو أفضل، أنه يحتفظ في قراره بفكرة لم يستطع، ولم يجرؤ على التحدث عنها. مكثتُ أنتظر طيلة الوقت، دون التفوّه بشيء. وشيئاً فشيئاً، اختفى الفرح الكتوم، والرضى الخاص عن النفس، اللذين كنتُ إلى ذلك الحين أقرأهما بسهولة في طرائقه الغريبة، وتقطيب وجهه، وغمز عينه اليسرى. لقد صار بين لحظة وأخرى، مهموماً على نحوٍ كبير، ومنشغل البال بكيفية كبيرة؛ ولم يستطع في النهاية أن يكتم أكثر، ما ظلّ يعتمل بين جوانحه.

- اسمعي، بدأ الكلام بطريقة خجولة، وبصوت خفيض. اسمعي، يا فارفارا ألكسييفنا... هل تعلمين يا فارافارا

ألكسييفنا. . .؟ ظلّ العجوز منزعجاً أشدّ الانزعاج. اسمعيني. . . حين سيحلّ يوم عيد الميلاد، ستأخذين عشرة مجلدات، وستقدِّمينها له بنفسك، بمعنى أنها مهداة منك، من قِبلك؛ أمّا أنا، فسآخذ حينها المجلد الحادي عشر، وسأعطيه له من جهتي كذلك، بمعنى أنه هدية باسمي الخاص. وبهذه الكيفية، سيكون بمقدورك أن تقدّمي له هدية، كما سيكون بإمكاني أنا كذلك، أن أفعل الشيء نفسه. . . وهكذا، سيكون لكلّ واحد منّا شيء، يقدّمه له هدية. . .

حالَ الاضطراب المستبدّ بالعجوز، دون أن يسمح له بمواصلة الحديث.

- لكن، لماذا لا تريد أن نقدّم له الهدية مجتمعة بطريقة مشتركة إذن، يا زاخار بيتروفيتش؟

- لأني يا فارافرا ألكسييفنا. . . لأني. . . ذلك أني. . . ولم يستطع محاوري إتمام جملته، بعدما ارتبك، وتشوّش باله، واحمرّ من فرط الخجل. . . أنا أخلّ دائماً، مثلما ترين، يا فارفارا ألكسييفنا، بمواعيدي. . . أنا رجل تستهدفه العادات السيئة. . . أنتِ تعلمين أنّ الجوّ يبرد شيئاً ما في الخارج، فتنتاب المرء في الغالب بعض الأحزان والهموم والكآبة؛ إلى حدّ أني أترك نفسي تميل أحياناً نحو التهتّك، والإسراف في الشرب. ولا يروق هذا كثيراً لبيتروشا. أنت تفهمين يا فارفارا ألكسييفنا، إنه يغتاظ منّي، ويوبّخني، ويعطيني دروساً في الأخلاق. هكذا إذن، هو الأمر! أريد الآن، أن أبرهن له بهديتي الخاصة، على أني قوّمت سلوكي، وشرعت في سلك الطريق المستقيم، وبأني وفّرت بعض المال، كي أشتري كتاباً، وفرته من مدّة طويلة، لأني لا أحصل على أي شيء أبداً، إلا ما يقدّمه لي بيتروشا فقط، بين الحين والحين. إنه يعرف ذلك. ومن ثم، سيرى

كيف أتصرّف في نقودي، وسيعلم أني أقوم بكل ذلك، من أجله وحسب.

أثرت فيّ تلك الأقوال بشكل عميق، فلم يطل تفكيري. ظلّ العجوز ينظر إليّ بقلق، وباله مشوّش.

- إذن، اسمع، يا زاخار بيتروفيتش. سأعطيكها كلها، قلت.

- كيف: كلها؟ بمعنى: كل تلك الكتب؟!

- أجل، كل الكتب.

- وكأنها جاءت منّي؟!

- وكأنها جاءت منك.

- منّي وحدي؟ أي: هديتي، أنا؟

- نعم، بمعنى أنها هديتك أنت.

كنت قد أوضحتُ، مثلما اعتقدت، وجهة نظري بكيفية واضحة جدّاً؛ إلا أن العجوز بقي مع ذلك، غير قادر على فهمي لوقت طويل.

- إذن، نعم. قال، بعد برهة من التفكير. نعم! سيكون ذلك جيداً، سيكون جيداً جداً؛ لكن، كيف ستتصرفين أنت، إذن، يا فارافارا ألكسييفنا؟

- لن أهديه شيئاً.

- كيف يُعقل هذا؟! صاح العجوز في نوع من الفزع. بهذا، لن تقدّمي شيئاً لبيتينكا، ألا ترغبين في إهدائه أي شيء؟!

كان خائفاً ومرْعَباً؛ وبدا في تلك اللحظة، متهيئاً لسحب اقتراحه بشكل تام، حتى أتمكّن أنا كذلك، من إعطاء ابنه شيئاً ما. لَكَم كان ذلك العجوز رجلاً شهماً! أكّدت له بأني كنت سأسعد لو أني قدّمتُ له شيئاً، لكني لم أرِدْ حرمانه هو بالذات من لذته.

- إذا سرّ ابنك، سأكون سعيدة أنا أيضاً، قلت مضيفة؛ لأني سأشعر في أعماق نفسي بالشعور ذاته، الذي كنت سأشعر به لو أني قدَّمت له في الواقع، هدية.

أعاد هذا الكلام الطمأنينة والسكينة للشيخ بوكروفسكي. بعدها، مكث ساعتين إضافيتين كذلك بغرفتنا؛ إلا أنه خلال كلّ ذلك الوقت، لم يستطع أن يمكث في مكان واحد: ظلَّ ينهض من مكانه، ويطوف بين أرجاء الغرفة بشكل ضاج، ويداعب ساشا، ويطبع على خدّي بشكل مختلس بعض القبل، ويقرص ذراعي، ويقوم بحركات بهلوانية من خلف أنّا فيدوروفنا. وفي النهاية، طردته هذه. كان العجوز باختصار، ثملاً من شدّة الفرح، وكأنه لم يفرح من قبل أبداً، بمثل ذلك الفرح. وفي يوم عيد ميلاد ابنه، جاء إلى البيت، عند الساعة الحادية عشرة بالضبط، بمجرد خروجه من الصلاة؛ وكان إلى جانب ارتدائه اللباس الرسمي الأسود والضيّق، الذي أدخل عليه بعض الرتوش، حتى يتلاءم بشكل لائق مع تلك المناسبة، يرتدي بالفعل صدرية وجزمة جديدتين. وكان يحمل في كلتي يديه علبة الكتب. حينها، كنّا جميعاً لدى أنّا فيدوروفنا، نحتسي القهوة في الصالون (وكان اليوم يوم أحد). شرع العجوز يقول، على ما أعتقد، إن بوشكين شاعر جيد للغاية، ثم انتقل دون تمهيد، بسبب الانفعال الذي أفقدَه الإبقاء على الخيط الناظم لكلامه، إلى فكرة أخرى أكّد فيها على أنه: يتعيّن أن ينضبط المرء جيداً في سلوكه، وإنْ لم يفعل، فمعناه أنه يتعاطى الرذيلة؛ وأضاف إن جنوح المرء، وميله إلى ارتكاب المعاصي، يسبِّبان له الخسران والبوار؛ وذهب إلى حدّ إعطاء بعض الأمثلة، للتأكيد على مخاطر المغالاة في ارتكاب المعاصي، وختم بالقول إنه قوّم سلوكه بصفة تامة، منذ وقت لا

يُستهان به، وأنه صار يسلك سلوكاً نموذجياً؛ وأنه إذا كان لم يشعر في قراره بالأمس فقط، بصدق الملاحظات السديدة التي ظلَّ ينبهه ابنه إليها، فإنه صار الآن يزهد فعلاً في الشراب، مثلما تشهد له على ذلك هذه الهدية، هذه الكتب التي اضطرّ كي يشتريها، إلى الادِّخار لمدة طويلة.

لم أقاوم نفسي في البكاء والضحك، وأنا أستمع إلى خطبة العجوز المسكين؛ لقد كان يعرف بالطبع كيف يكذب، كلما كان في حاجة إلى الكذب! تمّ نقل الكتب إلى غرفة بوكروفسكي، ووُضِعَت فوق رفّ. وعلى الفور، حزر الشاب الحقيقة. دُعي العجوز إلى العشاء. وكنّا جميعاً خلال ذلك اليوم، فرحين غاية الفرح. وبعد العشاء، لعبنا لعبة الرّهان ولعبة الورق؛ وكانت ساشا تلعب وكأنها شيطان حقيقي، فاستطعتُ وفق هذا المعطى، أن أتنافس معها. وظل بوكروفسكي، الذي أظهر الكثير من الاهتمام بي، يبحث دائماً عن الفرصة المواتية للتحدث إليّ بشكل خاص، إلا أني كنت أتهرب من مبادراته الملاطفة. لقد كان ذلك اليوم أسعد أيامي، طيلة فترة أربع سنوات.

لم يعُد يتبقى لي انطلاقاً من هذه اللحظة، سوى ذكريات حزينة وشاقة؛ وسأشرع الآن في قصّ حكاية أيامي الحزينة والقاتمة. لهذا السبب ربما، شرعت ريشتي في التحرُّك بتثاقل فوق الورقة، ويبدو أنها ترفض لنفسها القيام بهذه المهمة، التي بقي عليها أن تقوم بها. ولهذا السبب ربما، لذّ لي كثيراً أن أتعاطى التذكر بأدق التفاصيل الخاصة بحياتي، خلال مرحلة الأيام السعيدة. إلا أن هذه الأيام لم تدُم إلا قليلاً! بعدها، حلّ الشقاء، ويا له من شقاء طويل، لا يعلم إلا الله، إلى متى سيدوم!

بدأت مصائبي بمرض بوكروفسكي، وموته.

سقط طريح الفراش، بعد شهرين عن الوقائع الآنفة الذكر، التي سبق أن رويتها. خلال هذين الشهرين، كان يبذل الكثير من الجهد في البحث عن وسيلة للعيش، لأنه ظلّ إلى ذلك الحين، دون وضع اقتصادي قارّ. وحافظ مثل غيره من المرضى بالسلّ، على الأمل في عمر طويل، إلى آخر لحظة من حياته. عرضت عليه وظيفة مربّي خاص، لكنه كَرِهَ هذه المهنة. ولم تكن صحّته تسمح له بامتهان وظيفة عمومية؛ أضف إلى ذلك، أنه كان يتعين عليه البقاء لمدّة طويلة، موظفاً غير مرسّم في سلك الوظيفة. والخلاصة، أن مزاج بوكروفسكي أخذ يفسد، حين رأى أن جميع محاولاته باءت بالفشل. تضعضعت صحته؛ ولم يعُد يعتني بها. وحلّ الخريف. وكان يخرج كل يوم، للقيام ببعض الإجراءات، والتماس منصب شاغر لأيّ عمل، وهو لا يحتمي من البرد إلّا بمعطفه القصير؛ وهو ما كان في العمق، مهمة شاقة جدّاً بالنسبة إلى ظروفه الصحيّة؛ فكانت قدماه تبتلان، والمطر ينفذ منه إلى العظام؛ وتضعضعت صحته في النهاية، فلازم الفراش، ولم يعد في استطاعته مفارقته أبداً. ثم مات حوالي منتصف فصل الخريف، في نهاية شهر أكتوبر.

أستطيع أن أقول إني بقيت في غرفته لرعايته، طوال المدّة التي استغرقها المرض، الذي ألزمه الفراش. كنتُ أؤدي وظيفة الممرّضة التي تعتني بمريضها، وغالباً ما أقضي بياض ليالي كاملة، ساهرة على راحته. كان لا يعود إلى وعيه إلّا في النادر؛ وظلّ الهذيان هو حالته الثابتة؛ كان يستعلم عن أشياء، لا يعلم بها إلا الله: عن الوظيفة التي يتمناها، وعن كتبه، وعنّي أنا، وعن أبيه... وبذلك، تناهت إلى علمي أشياء كثيرة خاصة به، كنت أجهلها عنه بصفة

كلية، وهي الأشياء التي ما كنت حتى لأشكّ فيها بالكل. في البدايات الأولى لمرضه، كان جميع مَن بالبيت ينظر إليّ بشكل غريب نسبياً؛ وكانت أنّا فيدوروفنا تهشّ برأسها. لكني لم أكن أنكّس بصري خجلاً أمام أي كان، لاهتمامي ببوكروفسكي، فتوقف الجميع عن تأنيبي، وعلى الأقل أمي.

كان بوكروفسكي يتعرّف عليّ في بعض الأحيان، لكن ذلك ظلّ أمراً نادراً. لقد كان فاقداً للوعي تقريباً. وكان أحياناً يتكلم طيلة ليالي كاملة، مع مخاطب وهمي، يوجّه له كلاماً طويلاً مصاغاً بعبارات غامضة وقاتمة؛ وكان صوته الأجش يتردَّد في غرفته الضيقة، على نحوٍ غير واضح، وكأنه يخرج من داخل تابوت؛ فكان الخوف حينها يعتريني. وفي الليلة الأخيرة من حياته على الخصوص، استبدّ به نوع من الاحتداد والسّعار؛ وبات يعاني بكيفية شنيعة، وقد وقع ضحية قلق قاتل؛ وكانت أنّاته تمزّق قلبي. تروّع جميع مَن كان بالبيت. ولم تتوقف أنّا فيدوروفنا عن الصلاة والتضرّع إلى الله، كي يأخذه إلى جواره بأقصى سرعة. وذهب أحدهم إلى استدعاء الطبيب، إلّا أن هذا الأخير قال إن المريض سيموت بشكل مؤكّد، مع حلول الصباح.

أمضى العجوز بوكروفسكي الليلة كاملة في الممرّ، قرب غرفة ابنه، حيث بُسِط له بساطٌ صغير. بات اللّيل كلّه يدخل على ابنه الغرفة، مستطلعاً في كل لحظة من اللحظات أحواله، بهيئة ظلّت تبدو مُفزعة. لقد سحقه الحزن سحقاً، حتى بدا أنه فقد كلّ شعور وتفكير. ولفرط ما صعقه الخوف، كان يُحرّك رأسه بكيفية آلية، فيرتجف كامل جسده، ويدمدم دون توقف بصوت مهموس، وهو يحدِّث نفسه. لقد اعتقدتُ بأنّ الآلام ستتسبّب في زوال عقله.

وقبيْل الفجر بقليل، غفا العجوز فوق البساط الصّغير، بعد أن هدّه العذاب، وهزمته الآلام النفسية المُمضّة؛ وكان نومه شبيهاً بسكينة الموت. وبين السّاعة السابعة والثامنة، شرع الابن في الاحتضار، فأيقظتُ الأب. كان بوكروفسكي يودّعنا جميعاً، وهو في تمام الوعي. والمدهش أنّي لم أستطع أن أبكي، حتى ولو أن روحي قد تشظّت مثلما يتشظى الزجاج، إلى قطع صغيرة.

لكنّ اللحظات الأخيرة من عمر المريض، كانت بالنسبة لي، أكثر إيلاماً وتعذيباً من كلّ ما تبقى. ظلّ يطلب، وهو يحرّك لسانه بجهد جهيد، أن نلبّي له طلباً ما، دون أن أكون قد تمكّنت من فهم أدنى كلمة، من مجموع ما كان يلهج به. بات قلبي يتحسّر، ويتقطّع. كان لساعة كاملة يتحرّك، ويضطرب اضطراباً، وقد عذّبته الرّغبة التي بحث - سدى - عن كيفية من الكيفيات للكشف عنها. لقد أجهد نفسه ليشير بيديه، اللتين كانتا قد بردتا من قبل، كي يعبّر بهما عمّا تلجلج في صدره، ثم عاد إلى التوسّل مرّة أخرى، بصوت منتحب وأجش ومصمّ للآذان، لكن فمه لم يُخرج غير أصوات مفكّكة، ممّا زاد في استحالة قدرتي على فهم أي شيء من الأشياء. جئته بجميع مَن بالمنزل، وعرضتُ عليه الماء للشرب، لكنه ظلّ يهزّ رأسه بالنّفي، بشكل حزين. وفي الأخير، أدركتُ قصده. كان يطالبني بإزاحة ستائر النافذة، وفتح خصاصها. من المؤكّد أنّه رغب في رؤية النهار والنّور الربّاني والشّمس، للمرّة الأخيرة. استجبتُ لرغبته، لكنّ النّهار الذي شرع في التشكّل وقتئذٍ، كان حزيناً وشاحباً مثل حياة ذلك المسكين المشرفة على الانطفاء. لم تكن ثمة شمس. بدت السّماء الممطرة، التي كستها الغيوم، مكفهرّة ومتجهّمة. وكان المطر الذي ينزل على شكل خيوط رقيقة، ينكسر على زجاج

النوافذ، ويغمرها بمياه باردة ومتّسخة. لقد كان الطّقس المستبدّ بالأجواء داكناً ومشبعاً بالغيوم. كانت أشعّة الضّوء الباهتة، قد مرقت إلى الغرفة بكيفية واهنة، حتى إنها لم تكد تغطي إلّا بصعوبة شديدة، على ضوء المصباح المرتجف، الذي كان يشتعل أمام الأيقونة. ألقى عليّ المحتضر نظرة مشبعة بالحزن، وحرّك رأسه. وما هي إلّا لحظات وجيزة، حتى أسلم الروح.

تكفّلت أنّا فيدوروفنا بالذات، بإجراءات الدّفن. اقتَنَت نعشاً بسيطاً، واكترَت عربة صغيرة لنقل التابوت. وحتى تعوّض ما أنفقته، وضعت أنّا فيدوروفنا يدها على جميع الكتب والأمتعة، التي كان يملكها الفقيد. تشاجر العجوز معها، فاستردّ منها ما استطاع أن يستردّه من كتب، بعد ضجّة كبيرة، وملأ جيوبه وقبّعته وكلّ مكان شاغر لديه، بذلك. حمل الكتب معه، ولم يشأ لمدّة ثلاثة أيّام أن ينفصل عنه، حين حان الوقت للذهاب إلى الكنيسة. لقد بدا طيلة تلك المدّة، مثل أبله فقَدَ ذاكرته. كان يطوف دون توقف حول التابوت، بهيئة فزعة، محاولاً أن يكون حضوره مفيداً في شيء ما، إذ تارة ما يعدّل من وضع الطّوق الموضوع حول جسد الميّت المسجّى في التابوت، وتارة أخرى يشعل الشموع، أو يغيّر من وضعها ومكانها. لقد بدا واضحاً أنّ فكره لم يكن يستطيع التركيز على أيّ شيء، لوقت طويل. لم تذهب لا أمي، ولا أنّا فيدوروفنا إلى الكنيسة، لحضور قدّاس الغفران. كانت أمّي مريضة، بينما تشاجرت أنّا فيدوروفنا مع العجوز، فلم تشأ أن تحشر أنفها بعد ذلك، في أي شيء. ذهبتُ وحدي معه. وأثناء القدّاس، استبدّ بي خوف غامض، أشبه ما يكون باستشعار ممزوجٍ بالخوف للمستقبل، فلم أتمكّن إلا بصعوبة من البقاء واقفة على قدمي. وأغلق التابوت

أخيراً، ودُقّت فوقه المسامير، وتمّ حمله على عربة تسير به. ألزم الحوذي حصانه بأن يجري خبباً، فركض العجوز خلف العربة، وهو ينتحب بشكلٍ مسموع. كان انتحابه يمتزج باللّهاث، ويتقطّع بالفُواق، بفعل تسارع تنفّسه الناجم عن الجهد، الذي فرضته عليه عملية ملاحقة العربة. وفي خضم ذلك السّباق، وقعَت من العجوز المسكين القبّعة، فلم يتوقّف ليلتقطها. بلّل المطر رأسه، وهبّت رياح قارسة، سرعان ما حوّلت الأمطار إلى حبّات جليديّة، تلسع الوجه. ومع كلّ ذلك، بدا وكأنّ العجوز غير عابئ بأحوال ذلك الطّقس الرّهيب، إذ ظلّ يركض خلف العربة دون اكتراث، منتقلاً من جهة إلى أخرى، وهو لا يكفّ عن الانتحاب. ظلّت جنبات معطفه المهترئ تتحرّك، وهي تتطاير في الهواء، وكأنها جناحان كبيران. ومن كافة جيوبه، كانت تسقط الكتب، بينما هو يمسك بمجلّد ضخم بين يديه، وقد شدّه إلى صدره بكلّ القوّة التي يمتلكها. وكان المارّة الذين يتقاطع سيرهم مع مرور العربة، يرفعون القبعات عن رؤوسهم، ويرسمون الصليب. وكان البعض منهم يتوقف، ويلتفت إلى الخلف، وهو ينظر بدهشة إلى ذلك العجوز، الذي يجري وراء العربة. وفي كل لحظة، كان يفلت من بين جيوبه كتاب، ليسقط على الأرض في الوحل. كان البعض يستوقفه، لينبّهه لما سقط منه، فيتوقّف، وينحني لالتقاط ذلك، ثم ينطلق نحو العربة مسرعاً، للبقاء وراءها. وانضمّت إليه عند ناصية الشارع، امرأة متسوّلة، أخذت تعدو بالقرب منه. وعندما اختفت العربة عند منعطف ناصية الشارع، غاب كل شيء عن ناظري. عدتُ إلى البيت، وارتميتُ بفعل ما اعتراني من حزن شديد على صدر والدتي، فصرتُ أضغط عليه بقوة بين ذراعي، وأغرقه بالقبل، وأنا أنتحب؛ لقد حاولتُ بشكلٍ ما، وأنا أحتضن صدر أمّي

بقوة، أن أتمسّك بآخر كائن فضل عندي من بين الأحبّة المقرّبين، وأن أنتزعه من الموت... لكن هذا الطائر المشؤوم ما انفكّ من قبل، يحوم فوق جسد أمي المسكينة...

....

11 يونيو.

لكم أنا ممتنّة لك يا ماكار ألكسييفيتش، بسبب نزهة الأمس إلى الجزر! كم كان الجوّ جميلاً ومعتدلاً، هناك! وكم كانت الطبيعة خضراء! منذ مدّة طويلة جدّاً، لم أرَ الخضرة، حتى ساورني الاعتقاد أثناء فترة مرضي، بأنْ لا أمل لي في الشفاء، وبأني سأموت حتماً؛ ومن ثمة، لك أن تتصوّر إذن، مقدار ما شعرتُ به البارحة من سعادة، وما كان من المتوقّع أن تكون عليه مشاعري! لا تؤاخذني رجاء، لكوني حزنتُ كثيراً البارحة؛ فقد كنت سعيدة جدّاً جدّاً، لأن أكون - وأنا في أزهى وأجمل لحظاتي - حزينة على الدوام. إنّ الدّموع التي ذرفتُها، لا تدلّ على أي شيء؛ أنا نفسي لا أعرف لماذا أبكي دائماً. لديّ حساسية مشبعة بالمرض والاحتداد، ومشاعري عليلة. السّماء الشاحبة والصّافية، وغروب الشمس، وهدوء المساء - كل هذه الأشياء - أنا لست أدري كيف تفعل فعلها فيّ؛ لكنني كنت البارحة متهيّئة بشكلٍ كبير، إلى حدّ أنّ كل المَشاهد كان من شأنها أن تؤثر عليّ بشكل ثقيل، وتجعلني أتألم؛ وقد انتهى قلبي بأنْ فاضت مشاعره المكروبة، وكانت روحي بحاجة إلى دموع. لكن، ما جدوى أن أكتب لك كل هذا؟ إنّ هذا لمن قبيل الأمور التي يصعب على المرء أن يجد لها تفسيراً مع نفسه، وأحرى أن يشرحها لأحد آخر. لكن، لعلّك تستطيع مع ذلك، أن تفهمني. كنت فرحة وحزينة

في الآن ذاته! ألا ما أطيبك حقاً، يا ماكار ألكسييفيتش، لكونك ركّزت البارحة عينيك في عينيّ، كي تستقرئ فيهما ما كنتُ أشعر به، ولكونك استمتعت بما شعرت به من نشوة! لقد كنتَ هناك، تقف أمامي في هيئة عاشق لطيف، سواء عند الغابة الصغيرة، أو عند شعبة من الشّعاب، أو بالقرب من أحد الغدران؛ كنت لا تكفّ عن النظر إلى عيني؛ حتى ليتهيأ لمن يراك على تلك الحال، أنّك تحيطني بشرف زيارة أراضيك وأملاكك! وإنّ هذا ليثبت بحق، أنّ لك قلباً طيّباً يا ماكار ألكسييفيتش. وهذا بالذات هو ما يجعلني أحبّك. لقد آن الأوان لتوديعك. أنا ما زلت مريضة اليوم، إذ ابتلّت قدماي البارحة، الشيء الذي تسبَّب في إصابتي بالزّكام؛ مثلما أنّ فيدورا مريضة كذلك، ممّا جعلنا نعاني معاً، في الوقت نفسه. لذلك، عليك ألّا تنسى الإكثار من زيارتي.

المخلصة ف. د.

12 يونيو.

عزيزتي فارفارا ألكسييفنا!

لقد اعتقدت يا أميمتي، أني سأقرأ قصيدة شعرية طويلة في وصف نزهتنا، فإذا أنت لم تملئي غير وُريقة واحدة. إنّ ما أريد قوله هو أنّ رسالتك، مهما كانت قصيرة، فإنها وصفت الأمور مع ذلك، بطريقة مدهشة للغاية، وبالكثير من الرّوعة. ففي رسالتك وصفٌ للطبيعة، ولمناظر الرّيف، وفيها حيزٌ كبيرٌ للكشف عن المشاعر والعواطف؛ إنك وصفت - باختصار - كلّ هذا، بكيفية بارعة جدّاً. أمّا أنا فلا أملك هذه الموهبة. إذ مهما سوّدت بياض الكثير من الصفحات، ومهما حاولت الكتابة، فلن أصل إلى أي شيء بالمرة،

ولن أظفرَ بإنشاء وصف موفّق بالكلّ. كتبتِ تقولين لي يا عزيزتي، بأني إنسان طيّب ووديع وعاجز عن إيقاع الأذى بالآخرين، ومدركٌ لمقدار الجمال الربّاني المتجلّي في الطّبيعة؛ كنتِ باختصار تكيلين لشخصي العديد من أنواع المدح. كلّ هذا يا أميمتي، صحيح بشكل دقيق، أنا بالفعل مثلما قلتِ، وإني لأعرف ذلك أنا بالذات؛ لكن، حين يقرأ المرء ما كتبتِه، يتأثر قلبه بشكلٍ غير إرادي، وينكفئ على نفسه ليغيب في بئر من التأملات البعيدة الغور. إذن، اسمعيني جيداً يا أميمتي، فإني سأحكي لكِ عن شيء ما، يا عزيزتي.

أول ما سأبدأ به الحكاية يا أميمتي، هو التأكيد على أنّ عمري كان سبع عشرة سنة، لمّا التحقتُ بسلك الخدمة، وبأني سأكمل الآن ثلاثين سنة، وأنا أؤدي هذه الخدمة. هيّا، يجب أن أعترف بأنني أبليْتُ خلال هذه المدّة، ما لا يُستهان به من البزّات الرّسمية؛ وبأني بلغتُ سنّ النضج، وكسبتُ بعض المعرفة، ورأيت النّاس؛ لقد عشت، وفي استطاعتي أن أؤكد بأني عشت كثيراً في هذا العالم، إلى حدّ أنّ البعض أراد ذات مرّة أن يعرّضني للصّلب. أنتِ لا تصدّقينني ربما، لكنها الحقيقة، وأنا لا أكذب عليك. لماذا تعرّضت إذن، يا أميمتي، لهجوم الأشرار؟ إنني مهما كنت عديم المعرفة وجاهلاً يا عزيزتي، فإنّ لي مع ذلك قلباً مثل الآخرين. فهل تعلمين إذن، يا فارينكا، ما صنعه بي أحد الأشرار ذات يوم؟ إنما من المخجل أن أقول ما فعله؛ لذلك، اطلبي منّي بالأحرى أن أحدثك عن السبب، الذي دفعه إلى القيام بما قام به. لأني ببساطة إنسان متواضع، لأنني إنسان وديع، لأنني إنسان طيّب! لم يَرُق له طبعي؛ فكان عليّ أن أؤدي ثمن ذلك، منه ومن أمثاله. في البداية، شرعوا في التحدّث عني قائلين: «أنت كذا وكذا، يا ماكار ألسكييفيتش»؛

بعدها، أردفوا قائلين: «إنها من الماكاريات الألكسييفيتشية، فلا داعي للسؤال عنها». والآن، يُقال: «بالتأكيد، هو ماكار ألكسييفيتش». انظري إلى ما حدث، يا أميمتي؛ فقد صار ماكار ألكسييفيتش عُرضة لكافة الإهانات؛ وبفضل هؤلاء تحوّل إلى أمثولة في دائرتنا كلها. ولم يكتفوا بضرب المثل باسمي، الذي صار تقريباً سُبّة، وإنّما ذهبوا إلى أكثر من ذلك، إذ أخذوا في انتقاد حذائي الطويل، وبزّتي الرّسمية، وشعري، ووجهي: لم يُرضِهِم فيّ أيّ شيء، ممّا يعني أنّ عليّ أن أغيّر كلّ شيء! ويتكرّر هذا معي كلّ يوم، منذ وقت طويل! وقد تعوّدتُ على ذلك، لأنّي أتعوّد على كلّ شيء، ولأنّي كائن وديع، ولأنّي كائن أصغر من إنسان؛ لكن، لماذا - مع ذلك - كل هذا؟ ما هو الأذى الذي صدر عنّي، اتجاه أيّ كان؟ هل خطفتُ من أحد منهم حظوة ما؟ هل أضررتُ بزميل من الزملاء عند الرؤساء؟ هل منحتُ نفسي دون حق، مكافأة لا أستحقها؟ هل قمتُ بتدبير دسيسة ما؟ لكن سيكون من الخطيئة يا أميمتي، أن يُظَنّ بي ذلك، لدقيقة واحدة فقط! فلماذا يحدث كل هذا، إذن؟ لكن، افحصيني أنتِ فقط يا عزيزتي، لتتأكدي بنفسك إنْ كنتُ أملك بالفعل، القدرة المطلوبة لأكون دسّاساً ومتآمراً؟ فكيف تصيبني، إذن - وليصفح عني الربّ! - كلّ هذه الشرور والآلام؟ على كلّ، أنتِ ترين أنّي رجلٌ محترم، وإنّك يا أميمتي لأفضل من كلّ هؤلاء جميعاً. ما هي أكبر الفضائل المدنيّة؟ قال إيفستافيي إيفانوفيتش ذات يوم، خلال حديث خاص دار بيننا، إن الفضيلة المدنيّة الرئيسة هي أن يعرف المرء كيف يكسب مالاً. قال ذلك على سبيل المزاح (أنا أعرف أنه قال ذلك ليمزح)؛ لكنّ العِبْرة التي ينبغي على المرء استخلاصها من ذلك القول، هي أن لا يكون عالة على

أحد، وأنا لستُ عالة على أيّ أحد! إنّ كسرة خبزي هي ملكٌ لي، ومن عرق جبيني. إنها في الحقيقة مجرد كسرة من الخبز، غالباً ما تكون صلبة؛ إنما أكسبها أنا من عملي، وهي حلال طيّب لي، ولا أحد يستطيع أن يؤاخذني على ذلك. فما العمل، إذن؟ أنا لا أخفي عن نفسي بأنَّ عملي كناسخ، ليس عملاً رفيع الشأن ولا مرموقاً، لكني فخور به مع ذلك: أنا أعمل، وأعرق. وما الذي يهمّ النّاس في الواقع، إن كنت أستنسخ وأستنسخ؟ أهذه جريمة؟ يقولون: «إنه يستنسخ». لكن، ما الذي يسيء كثيراً لشرف المرء في ذلك، إذن؟ لدي خطٌّ جميل ومقروء بكيفية واضحة؛ خطٌّ يسرّ الناظر إليه، وصاحب المعالي راضٍ عنه؛ وأنا أنسخ وثائقه شديدة الأهمية. صحيح أني لا أملك أسلوباً، وأني أعلم أنا نفسي بأنّ ذلك الأسلوب اللعين يعوزني؛ وهو ما حالَ بيني وبين الارتقاء في سلّم الخدمة، وجعلني كذلك أكتب إليك حتى هذه اللحظة يا عزيزتي، ببساطة لا تكلّف فيها، ولا تنميق أو تزويق، متبعاً سير خواطري كيفما اتفق، وحسب... كل هذا أعرفه، لكن لو كان كل الناس كُتّاباً، فمن سيفضِّل منهم ليكون ناسخاً؟ هذا هو السؤال الذي أطرحه، وألتمس منك يا أميمتي أن تجيبي عنه. أنا أشعر الآن، بأن هناك حاجة ما إليّ، وبأني إذن ضروري، وبأن كافّة تلك السّخافات التي تروّج ضدي، لا أساس لها. طيّب، فلأكنْ فأراً مثلما يدّعون، لأنهم يشبّهونني بذلك: إنما وجود هذا الفأر ضروري، وجوده مفيد، ويتمّ الحرص على وجود هذا الفأر، ويكافأ كذلك! ثم ماذا عن البقية؟! يكفي السكوت عنها الآن، يا عزيزتي؛ لأني لم أشأ الخوض في هذا الحديث، إلّا أني تركت نفسي تبوح به. إن الإنسان ليحبّ، بعد كل شيء، أن ينصف نفسه بين الحين والآخر. أودّعك

الآن يا عزيزتي، ويا صديقتي، ويا عزائي الجميل! سأمرّ عليك في البيت، ولن أتغيّب عنك، سأمرّ لرؤيتك، يا جميلتي الصغيرة. وإلى أن يتحقَّق ذلك، عليك ألّا تنزعجي. سآتيك بكتاب. هيّا، الوداع يا فارينكا.

صديقك الصادق في إخلاصه،

ماكار ديفوشكين.

20 يونيو.

السيد ماكار ألكسييفيتش،

أكتبُ إليك على عجلة من أمري، لأنّ عليّ إنهاء عمل ينتظر منّي أن أنهيه على وجه السّرعة. يتعلّق الأمر الذي دفعني إلى الكتابة بهذه الطريقة المتسرّعة، بفرصة مواتية لعقد صفقة شراء مشجّعة. تقول فيدورا إنّ لدى أحد معارفها بزّة جديدة معروضة للبيع، ومعها صدرية وسروال وقبّعة، وكلّ ذلك - مثلما قيل - بسعر زهيد؛ ممّا يتعيّن عليك الإسراع في اقتناء ذلك. أنتَ لستَ الآن في حالة عوز، ولديك بعض المال؛ وإنّك لتقرّ بهذا نفسك. ألقِ نظرة على نفسك، لتر إذن أية بزّة قديمة ومهترئة تلبس. إنّ هذا لمخجلٌ! فهي لا تكاد تخلو من الرّقع! أنا أعلم علم اليقين بأنك لم تعُد تملك زيّاً جديداً بالكل، مهما حاولت أن تدّعي العكس، لكي تطمئنني. الله وحده يعلم أين اختفى ذلك الزّي الجديد. لذلك، أصغِ إليّ: اقتنِ ذلك اللّباس، رجاء. افعل ذلك من أجلي؛ وإذا كنت تحبّني، فعليك أن تشتريه.

بعثت لي بلباس داخلي على سبيل الهدية؛ لكن، اسمعني يا ماكار ألكسييفيتش: أنت بهذا السلوك تدفع بنفسك إلى الكساد. أهذه

مزحة؟ كم من المال أنفقت عليّ؟ آه! يا لك من متلاف! أنا لست بحاجة إلى ذلك، ومن ثمة، فإنّ كلّ ما قمتَ به هو ضربٌ من العبث غير المفيد تماماً. أنا أعرف حقّ المعرفة، ومتأكّدة من أنّك تحبّني؛ لكن صدّقني بأن ترجمة صداقتك لي عن طريق الهدايا، أمرٌ غير ضروري بالكلّ، إذ يصعب عليّ أن أقبل منك ذلك، لأني أعرف أنها تكلّفك الكثير. لذا، أقول لك للمرّة الأولى والأخيرة: كفى! أتسمع؟ إنه لرجائي وتوسّلي.

تلتمس منّي أن أبعث إليك يا ماكار ألكسييفيتش، بتتمّة المذكّرات التي ترغب في أن أنهيها. لكني لم أعد أعرف حتّى كيف تسنّى لي كتابة ما كتبته. فأنا قد لا أملك القوّة اللازمة الآن، للتّحدّث عن ماضيّ؛ بل لستُ راغبة حتّى في التفكير فيه؛ إذ ترعبني تلك الذكريات. إن الحديث عن أمّي المسكينة، التي تركت ابنتها الوحيدة فريسة لهؤلاء الوحوش، أمرٌ شاقّ وصعب بالنسبة إلي. إن تلك الذكرى وحدها لتُدمي قلبي! كلّ ذلك لا يزال حيّاً وطريّاً في قرار نفسي! أنا لم أستطع بعد استعادة وعيي وحسب، وأحرى أن أدّعي أني هدأت؛ حتى ولو مضى عام كامل على ذلك! ثم إنك لتعرفُ كل شيء. لقد حدثتك عن أنّا فيدوروفنا؛ فهي تتّهمني بالجحود والكفر بنعمتها، دافعة عن نفسها تهمة التواطؤ مع السيد بويكوف! لقد دعتني لأعود إلى بيتها، مدّعية بأني صرت أتسوّل الصّدقات، وبأني صرتُ أسلك طريق الضّلال. وأضافت أنني إذا ما عدتُ إلى بيتها، فإنها ستتكفّل بإصلاح ذات البين بيني وبين السيد بويكوف، الذي يريد أن يمنحني الصداق. فليكن في عونهما الله! أنا مرتاحة هنا معك، وبالقرب من فيدورا الطيّبة، التي تذكّرني علاقتي بها بعلاقتي مع المرحومة، التي ربّتني. وعلى الرّغم من أنّ الآصرة

الدّموية التي تجمعني بكَ بعيدة، فإنّك مع ذلك تحميني باسمك. أمّا هؤلاء، فإنّي لا أعرفهم؛ ولسوف أعمل على نسيانهم إذا ما استطعت. ماذا يريدون منّي بعد كلّ ما حصل؟ فيدورا تعتبر كلّ ذلك ضرباً من الثرثرة، وتقول إنهم سينتهون بتركي وشأني. وأسأل الله أن يَصدُق كلامها!

ف. د.

21 يونيو.

عزيزتي وأميمتي!

أريد أن أكتب إليك، لكنّي لا أعرف من أين ينبغي أن أبدأ. لَكَم هي غريبة الكيفية التي نعيش عليها الآن، أنا وأنت، يا أميمتي! أقصد أنّي لم أقضِ من قبل أبداً، أيامي في مثل ما تحفَل به أيامنا الآن من سعادة، وكأنّ الربّ وهبني بيتاً وعائلة! أنت طفلتي الصغيرة، يا فاتنتي! لكن ما ذلك الكلام الذي تقولينه عن تلك الأردية الدّاخلية الأربعة، التي بعثت بها إليك؟ إنّك والله لفي حاجة إليها، وقد علمت بذلك عن طريق فيدورا. ثم إنّ قضاء حاجاتك والبقاء في خدمتكِ، لَمن دواعي سعادتي الخاصّة، يا أميمتي. إنها متعتي، فلا تحرميني منها أو تعترضي عليها، يا أميمتي. فأنا لم أعرف في حياتي كلّها، مثل ما عرفته معك يا أميمتي. وها أنذا الآن، صرتُ أقتحم العالم. أنا أولاً أعيش حياة مضاعفة، لأنك تعيشين بالقرب منّي أيضاً، وتمنحينني العزاء؛ ولأني ثانياً توصّلت بدعوة لحضور حفلة شاي عند راتازاييف اليوم، وهو ذلك الجار الذي يسكن بجواري، ويقيم حفلات أدبية في المساء. ثمة حفل عنده اليوم، ستُقرأ فيه نصوص أدبية. هذا ما نحن عليه الآن، يا

أميمتي! إذن، أودّعك اللحظة. لقد كتبتُ كل هذا دون هدف آخر واضح، غير إخبارك بمدى سعادتي. لقد أبلغتني عن طريق تيريز، بأنّك في حاجة إلى بعض الخيوط الحريرية الملوّنة، لكي تطرّزي؛ وأنا سأشتري لك ذلك، يا أميمتي؛ سأشتري لك خيوط الحرير. غداً، سأكون سعيداً بتلبية طلبك. أعرف أين تُباع تلك الأشياء. والآن، سأظلّ صديقك الصّدوق.

ماكار ديفوشكين.

22 يونيو.

الآنسة فارفارا ألكسييفنا!

أخبرك يا عزيزتي بأنّ حادثاً مؤلماً قد وقع في منزلنا، وهو جدير بالشفقة! لقد مات اليوم، ما بين الرّابعة والخامسة صباحاً، أحد أبناء آل غورشكوف. أنا لا أعرف بالضبط، ما الذي أصابه قبل أن يسلم الرّوح. أهي الحمّى القرمزية؟ الله وحده يعلم ما أصابه! قمتُ بزيارة لآل غورشكوف. إنّ ثمة يا أميمتي، لبؤساً شاملاً في غرفتهم! وأية فوضى تلك التي تشمل الغرفة بأسرها! ومع هذا، فليس ذلك بالأمر المثير للدهشة، ما دام أنّ عائلة كاملة تعيش في الغرفة نفسها؛ وتضع على سبيل الحشمة، حاجزاً فقط يفصل بين أركان الغرفة. لقد تمكّنوا من الحصول على تابوت؛ صغير وبسيط للغاية، إنما هو جميل مع ذلك؛ اشتروه جاهزاً. كان عمر الفتى الذي توفي تسع سنوات، وهو طفل كانت بعض الآمال معقودة عليه، مثلما قيل. لكَمْ يحسّ المرء عند رؤيتهم بالحسرة والشفقة، يا فارينكا! الأم لا تبكي، لكنها المسكينة شديدة الحزن! لعلّ موت الفتى الصغير قد يخفّف عنهم بعض الأعباء، إلا أنّ

طفلين اثنين لا يزالان في كفالتهم مع ذلك: صبي رضيع وطفلة تتعدّى سنّ السادسة بقليل. على فكرة: أية متعة يمكن للمرء أن يشعر بها، حين يرى طفلاً ما، هو فلذة كبده، يتعذب ويتألم، دون أن يستطيع مساعدته؟ كان الأب، وقد ارتدى معطفه الرثّ والقذر، يجلس فوق كرسي متهرئ، ويبكي. لكن، أكان يبكي من الحزن والكمد؟ من الممكن أن تكون دموعه قد فاضت هكذا تلقائياً، بحكم العادة. إنه لغريب جدّاً! يحمرّ لونه دائماً حينما يتوجّه إليه أحدهم بالكلام، فيضطرب، ولا يدري بماذا عليه أن يجيب. أمّا البنت الصّغيرة فكانت تقف متكئة على التابوت، وهي حزينة للغاية، وشاردة وراء أفكارها، المسكينة! أنا لا أحبّ يا أميمتي فارينكا، أن أرى طفلاً ما يشرد في أفكاره؛ إنّ ذلك لمنظرٌ مقرف! بجوارها كانت تنام فوق الأرضية، دمية تلبس خرقاً بالية. لم تكن تلعب، وإنما بقيت جامدة، وقد وضعت أصبعها فوق شفتيها. أعطتها ربّة البيت قطعة من الحلوى، فأخذتها منها، إلا أنّها لم تأكلها. إنّ هذا لمُحزن يا فارينكا؛ أليس كذلك؟

ماكار دييفوشكين.

25 يونيو.

عزيزي الغالي ماكار ألكسييفيتش!

أعيد إليك كتابك، وهو كُتيّبٌ خبيث وخالٍ من أية قيمة! بل وغير مسموح للمرء حتى بلمسه! تُرى، أين عثرت على مثل هذه «التحفة» الفريدة؟! ثم هل من الممكن بجدّ، أن تكون معجباً بمثل هذه الكتب، يا ماكار ألكسييفيتش؟ لكم وعدتني بأن تجد لي شيئاً ما لأقرأه، في يوم من الأيام! سأتحمّل - إن شئت - نصيبي من

الإنفاق، في سبيل اقتناء شيء ما للقراءة. والآن، أودّعك. ليس لي في الحقيقة، أي وقت لأنفقه في الكتابة.

ف. د.

26 يونيو.

عزيزتي فارينكا! ما حصل هو أني لم أقرأ ذلك الكُتيّب من قبل، يا أميمتي! لقد ألقيتُ عليه في الحقيقة، مجرد نظرة خاطفة، تبيّن لي على إثرها أنه يتضمّن بعض الحماقات، والأمور المكتوبة لأجل الإضحاك وحسب، وإبهاج النّاس. فقلت في نفسي إذن، سيكون هذا من دواعي التّسليّة بالفعل، ولربّما حظي لدى فارينكا بالإعجاب؛ لذلك، اقتنيته وأرسلته إليك.

بيْد أنّ راتازاييف قد وعدني بأن يعيرني شيئاً ما يتميّز بقيمة أدبية حقة. حينها، لن تعدمي الكتب، يا أميمتي. إنّ راتازاييف على دراية كبيرة بالكتب الأدبية القيّمة، لأنه إنسان فطن، ويمارس هو بالذات الكتابة. أوه، لكم يكتب! إنّ لديه ريشة متأهّبة دائماً للكتابة، كما أنّ له سعة في الأسلوب وافرة. معنى هذا أنّ باستطاعته أن يصيغ كلّ كلمة، حتى ولو كانت مبتذلة وسوقية، مثل أي جملة قد أتلفظ بها أنا باتجاه فالدوني أو تيريز، صياغة أدبية رفيعة الأسلوب! إني أحضر سهراته. ندخّن التبغ، وهو يقرأ لنا. يقرأ لنا لمدّة خمس ساعات، بينما نحن نستمع إليه طيلة ذلك الوقت. ليس ما نحضره معه جلسة أدب وحسب، وإنما وليمة حقيقية! إنّ لذلك سحراً على النفوس؛ وإنه لمثابة زهور، زهور إيجابية؛ ففي كلّ صفحة يقرأها، تصادفك باقة منها! إنّ راتازاييف رجل لطيف المعاشرة وطيّب وظريف! فماذا أكون أنا إذن، أمامه؟ ماذا؟ لا شيء. إنه رجل مشهور، بينما أنا،

من أكون؟ أنا غير موجود على الإطلاق. ومع هذا، فإنّه يتعامل معي بلطف. صحيح أني أنسخ له بعض الصفحات، لكن عليك ألّا تظنّي بأن وراء هذا العمل، يا فارينكا، قصداً أو نيّة مبيَّتة ما، من قبيل أنه لا يعاملني معاملة لطيفة، إلا لأنه يستفيد منّي بالتحديد، كناسخ. لا تصدّقي القيل والقال يا أميمتي، ولا تأبهي لمثل هذه الثرثرة المنحطّة! لا، بالكلّ. ذلك عمل أقوم به أنا بالذات، من تلقاء نفسي، كي أكون معه لطيفاً أنا الآخر؛ وإنْ كان يعاملني بالعطف والمودة، فإنّما ليجعلني مسروراً. إنّي لأدرك رقّة ذلك السّلوك، يا أميمتي. فهو رجل طيّب، طيّب جدّاً، وكاتب لا مثيل له.

إنّ الأدب شيء رفيع جدّاً، يا فارينكا؛ وهذا ما عرفته منه أول أمس. إنه لشيء عميق! شيءٌ يقوّي قلوب النّاس، ويغذي عقولها، وثمة أفكار أخرى متنوعة عن هذا الموضوع، في الكتاب الذي قرأناه. أفكار معروضة بكيفية جميلة جدّاً! إنّ الأدب للوحة، بمعنى أنه - بشكلٍ من الأشكال - لوحة ومرآة، فيهما نجد عدّة أمور، منها: العواطف، والتعبير، والنقد المرهف، والدروس الباعثة على التقوى، والوثائق. هذا هو كلّ ما بقي عالقاً بذهني من كلام تلك الثلة، التي سهرتُ معها بالأمس. أقرّ لك بصراحة يا أميمتي، بأني آخذ مكاني بينهم، وأصغي إليهم (وأنا أدخن الغليون مثلهم)، لكنني ببساطة أنمحي، حينما يشرعون في مناقشة مختلف المواضيع. ليس لدينا نحن الآخرين ما نعمله يا أميمتي، سوى الانمحاء. حينها، لا أجدني سوى مجرد كائن حقير، فأخجل على الفور من نفسي، وأحاول طيلة السّهرة أن أبحث عن فرصة مواتية للقذف على الأقل بنصف كلمة، ضمن السيّاق العام للمناقشة. إلّا أن نصف الكلمة ذاك لا يطاوعني بالكلّ؛ وكأنّ في ذلك شيئاً متعمّداً! وحينئذٍ، لا يفضل

للمرء سوى أن يشتكي من مغبّة تلك العاقبة الكسيفة، يا فارينكا. ولا يَفضُل له حينها، إلا التحسّر على كونه ليس كذا ولا كذا، وأنه كبُر من دون أن يصير ذكيّاً، مثلما يقول المثل! وما الذي ترينني أفعله الآن، حين أكون حرّاً ومتمتّعاً بوقت فراغي؟ إني أنام! إنني - أنا الحقير - أنام! إذ يمكن للمرء أيضاً، بدل النوم، من غير حاجة ولا ضرورة، أن يُشغل نفسه بالجلوس إلى مكتبه بكيفية ممتعة، والانهماك في الكتابة. إنّ هذا عمل مثمر بالنسبة إلى المرء، وجيّد بالنسبة إلى الآخرين. تصوّري فقط يا أميمتي، كم يتقاضى هؤلاء المتعاطين الأدب، غفر الله لهم! خذي راتازاييف على سبيل المثال: كم يتقاضى من المال؟! وماذا تعني بالنسبة إليه كتابة ورقة في اليوم الواحد؟! قد يحدث له كتابة خمس ورقات في اليوم، وهو يأخذ عن كلّ واحدة مثلما يقول، خمسمائة روبل: «سواء شئت أم أبيت، فإنّك - حين يلزمك أن تموت - ستعطيها، وإلّا فإنني سأطالبك في المرّة القادمة، بألف روبل!». ما قولك في هذا، يا فارينكا؟! إنما هذا ليس هو كل شيء! يطالب راتازاييف، مقابل دفتر كُتِبت عليه أبيات شعرية قصيرة، بما قدره سبعة آلاف روبل، يا أميمتي! تصوّري ذلك! إن هذا لثمن عمارة، ولثمن بيت متعدّد الغرف! قال إن هناك مَن عرض عليه مبلغ خمسة آلاف روبل، لكنه لن يتخلى عن مخطوطته مقابل ذلك العرض. قلت له، وقد أردتُ أن أردّه إلى عين الصواب: «اقبل بمبلغ خمسة آلاف روبل المعروض عليك، يا باتوشكا؛ ثم اسخر من هؤلاء. إن خمسة آلاف روبل لَهِيَ، قبل كل شيء، مبلغ محترم!». «لا»، أجابني. «سيدفع لي هؤلاء الأوغاد سبعة آلاف!». إنه رجل يفهم حقاً، في الصفقات.

وما دمت قد حدثتك عن الأدب، فلا بأس أن أنقل إليك يا

أميمتي، مقطعاً صغيراً من مؤلف بعنوان: **أشواق إيطالية**، ألّفه راتازاييف؛ ولكِ أن تحكمي بعد ذلك، أنت بنفسك.

«... ارتعش فلاديمير، بينما أخذت بعض الأشواق العارمة تجمح بداخله، كما أخذ دمه يغلي ويفور...

- أيتها الكونتيسة، أيتها الكونتيسة! صاح. أتعلمين كم هي رهيبة هذه الأشواق، وكم هو جموح هذا الجنون؟ لا، لا، أحلامي لم تخنّي! أنا واقع في الحبّ! أنا أحبّ بشكل محموم وهذيانِيّ ومجنون! لن يهدّأ دم زوجك من التروّع غير المحدود، الذي يستبدّ بروحي! مثل هذه العقبات الصغيرة لن تخمد النّار المستعرة، التي تلتهم صدري المنهك، يا زينابيد!

- فلاديمير!... غمغمت الكونتيسة، وهي لا تتحكّم في انفعالاتها، ثم مالت على كتف الشاب...

- زينابيد! صاح سميلسكي بحماس.

وخرجت من صدره زفرة حارّة. ألقى الحريق شعلة ساطعة على هيكل الحبّ، والتهم صدر العشيقين الشّقيين.

- فلاديمير!... قالت الكونتيسة بصوت مهموس، وهي ذاهلة. كان صدرها يعلو، وخدّاها يحمرّان، بينما عيناها تلتمعان...

ومرّة أخرى، يُهتك غشاء البكارة الرّهيب!

(...)

بعد ذلك بنصف ساعة، يدخل الكونت العجوز مخدع زوجته.

- ما قولك يا روحي، في إعداد بعض الشاي السّاخن، لضيفنا العزيز؟ قال، وهو يربّت على كتف زوجته، بكيفية خفيفة».

كيف وجدتِ هذا إذن، يا أميمتي؟ لن أناقشك في أنه - حقيقة - كلام جريء بعض الشيء؛ لكنه جميل في المقابل. هو بالنسبة إلى ضوابط الجمال، كلام جميل! لذلك، اسمحي لي بأن أنسخ لك كذلك، مقطعاً من القصة التي تحمل عنوان: **أيرماك وزليخة**.

تصوّري يا أميمتي، بأنّ ذلك القوقازي الرّهيب والمتوحّش الذي غزا سيبيريا، ويدعى أيرماك، عشق زليخة ابنة كوتشوم، ملك سيبيريا، التي وقعت أسيرة لديه. الموضوع - مثلما تلاحظين - مستلهم من الحقبة، التي كان يحكم فيها إيفان الرّهيب. إليك الآن الحوار الذي دار بين أيرماك وزليخة:

« - أتحبينني، يا زليخة؟ أوه! ألا فلتردِّدي ذلك على مسمعي!...

- إني أحبّك، يا أيرماك! أجابت زليخة بصوت مهموس.

- الحمد والشكر لكما، أيتها السماء والأرض! أنا سعيد!... لقد أعطيتماني كل شيء، جميع ما كانت تهفو إليه روحي الثائرة، منذ يفاعة سنّي. ها إلى أين قدتني أيتها النجمة السيارة، التي ظلَّت تقود مصيري، وتوجّهني؛ من أجل هذا قدتني إلى هنا، بعيداً عن سلاسل الجبال! لسوف أعرض على العالم بأسره حبيبتي زليخة، ولن يتجرأ الرجال - أولئك الوحوش الغضبى - على توجيه أيّ لوم لي! آه، لو أنهم يستطيعون أن يفهموا هذه المعاناة الخفيّة، التي تكابدها روحها الرّقيقة، لو أنهم كانوا قادرين على رؤية قصيدة بكاملها مركوزة في دمعة واحدة من دموع حبيبتي زليخة! آه! دعيني أمسح عن خدّك هذه الدمعة بقبلاتي، دعيني أمتصّها، وأشربها... دعيني أصير بذلك كائناً متسامياً!

- العالم يا أيرماك شرير، والنّاس ظالمون! قالت زليخة. سيطردوننا عنهم يا عزيزي الغالي أيرماك، وسيدينوننا! فماذا عسى فتاة مسكينة، ترعرعت وسط سيبيريا بين الثلوج، أن تفعل بين ربوع عالمكم البارد والجامد والأناني والعديم الرّوح؟! إنّ الرّجال لن يفهموني أبداً، يا مُناي وحبّي الكبير!

- حينها، سيخرج السّيف القوقازي من غمده، وسيهوي على رقاب هؤلاء! صاح أيرماك، وقد برز من بين عينيه لمعانٌ حادّ».

ولك أن تتصوّري حالة أيرماك، حين سيتناهى إلى علمه خبر اغتيال حبيبته، يا فارينكا! لقد استغلّ كوتشوم، ذلك العجوز الأعمى، فرصة هبوط اللّيل وانتشار العتمة، ليتسلّل إلى خيمة أيرماك، في غياب هذا، فذبح ابنته، بُغية القضاء على ذلك القوقازي الذي سلبه عرشه وتاجه، بضربة تكون قاضيّة.

« - يحلو لي حكّ أطراف الحديد على الحجر! صاح أيرماك، وهو في ذروة الغضب، بينما كان يشحذ خنجره على مسنّ من حجر، مخصّص لذلك. أنا متعطّش لدمائهم! أنا متعطّش إلى اللحظة التي سوف أقطّعهم فيها إرباً إرباً!!!».

وبعد هذا كلّه، يُلقي أيرماك بنفسه - بعد أن يدرك أنه لن يقوَ على العيش أبداً، بعد موت حبيبته زليخة - في نهر الأيرتيش، لتنتهي بذلك القصّة.

إليكَ الآن هذا المقطع النموذجي في الوصف السّاخر، وهو مجموعة من الأسطر التي كُتِبت خصيصاً لاستثارة ضحك القراء:

«هل تعرفون إيفان بروكوفييفيتش؟ طيّب، إنّه الشخص الذي عضّ ساق بروكوفيفي إيفانوفيتش. إنّ إيفان بروكوفييفيتش رجل خشن الطّبع، غير أنّه يتميّز في المقابل بعدّة فضائل نادرة؛ فهو

على العكس من بروكوفيفي إيفانوفيتش، يحبّ الفجل الحارّ المخلوط بالعسل، حبّاً جمّاً. ففي الوقت الذي كانت فيه بيلاجي أنتونوفنا لا تزال متعلّقة به... لكن، هل تعرفون بيلاجي أنتونوفنا؟ طيّب، إنّها تلك المرأة التي ترتدي دائماً تنورتها بالمقلوب».

إنّ هذه فكاهة يا فارينكا، إنها ببساطة شديدة فكاهة! فقد انكفأنا على أنفسنا من فرط الضّحك، لمّا قرأ لنا ذلك. إنه إنسان مضحك للغاية، إلى درجة يتمنّى معها المرء من الربّ أن يغفر له! ومهما كان ذلك مضحكاً نوعاً ما، ومفرطاً في المجون، فإنه يتبقّى عليّ أن أشير يا أميمتي، بأنّه لا يتضمّن أيّ شيء - ولو كان ضئيلاً جدّاً - من الزّندقة والتفسّخ الليبرالي. ثم إنه لتجدُر الإشارة يا أميمتي إلى أنّ راتازاييف إنسان متَّسم بسلوك قويم جدّاً، كما أنه من بين كافّة الكُتاب، أديب ممتاز واستثنائي كذلك. لكن، ما رأيك لو أنّي بالمناسبة عرضتُ عليك هذه الفكرة، التي تخطر أحياناً ببالي؟!... تُرى ما الذي قد يحدث لو أني كتبتُ شيئاً من الأشياء؟ فلنفترض على سبيل المثال، ظهور ديوان شعري بعنوان: «قصائد ماكار دييفوشكين» فجأة، ودون سابق إشعار! فما قولك حينها إذن، يا ملاكي الصّغير؟ كيف ستجدين الأمر؟ وماذا سيخطر ببالك، وقتها؟ أنا أردّد في قرار نفسي يا أميمتي، بأني بعد نشر ذلك الكتاب، لن أقوى بشكل قطعي أبداً، على الظهور في شارع نيفسكي. تخيّلي معي كيف سيكون وضعي، وأنا أسمع النّاس يقولون، حين أعبر الشارع: «ها هو ذا الكاتب والشاعر دييفوشكين... إنّه دييفوشكين بالذات والصّفات!». حينها، ماذا سيحدث مع حذائي الطويل مثلاً، يا أميمتي؟! يجب أن أقول في

معرض هذا السّياق يا أميمتي، بأنّي أنتعل حذاء مرقّعاً على الدّوام، وأنّ نعليه - حتى لا أخفي عليك أيّ شيء - غالباً ما ينفصلان عنه، بكيفية غير لائقة بشكلٍ كبير. لذلك، ماذا سيكون عليه الأمر، حين يعلم الجميع بأنّ الكاتب ديفوشكين ينتعل حذاء مرقعاً؟! وما الذي ستقوله عنّي بعض الكونتيسات أو الدّوقات، إن هنّ علمن بذلك، يا روحي؟ هنّ لن ينتبهن لذلك ربّما، لأنّ الكونتيسات والدّوقات لا ينشغلن بمراقبة الأحذية، خاصّة حينما يتعلق الأمر بحذاء أحد المستخدمين (ثمّة بالفعل تفاوت شديد بين أصناف الأحذية!)؛ إلا أنّ كلّ شيء سيتناهى إلى علمهن، لأنّ أصدقائي سيخونونني. وسيكون راتازاييف على رأس هؤلاء الذين سيخونونني؛ فهو يتردّد على بيت الكونتيسة ف؛ يقول إنه يذهب إلى زيارتها في كثير من الأحيان، ودون أي تكلّف. فهي - كما يقول - امرأة متميّزة للغاية، وشديدة التعلّق بالآداب! إنّ راتازاييف لَشَوْكة في الحلق!

ولكن، حسبي ما قلته بشأن هذا الموضوع؛ فأنا يا ملاكي الصغير، لم أكتب كلّ ذلك إلّا على سبيل المزحة، ولكي أخفّف عنك وأسليك. الوداع، يا عزيزتي! لقد دبّجت لك هذه الخربشات المشبعة بالحماقة والكذب، لأن مزاجي اليوم ظلّ رائقاً. فقد تعشينا جميعاً لدى راتازاييف اليوم، و(لأنهم سوقيون يا أميمتي)، أداروا كؤوس الخمرة بينهم... لكن، ما جدوى أن أحدّثك عن هذا؟ عليك فقط ألّا تظنّي بي الظنون، يا فارينكا. فأنا لم أكتب هذا كله، إلا على سبيل الهزل. سأبعث إليك ببعض الكتب، ولن أخالف وعدي... هنا، بين السّاكنة، يتمّ تداول كتاب من توقيع بول دوكوك؛ لكن لن تكون لك نسخة من بول دوكوك هذا، يا أميمتي... بالكلّ! إنّ بول دوكوك لا يتلاءم مع ذائقتك. يُقال يا

أميمتي إنه مثير للسخط الشديد لدى كافة نقّاد بيترسبورغ. سأبعث إليك برطل من الحلوى، اشتريته عن قصد من أجلك. كلي من تلك الحلوى يا أميمتي، كي تذكّرك كلّ قطعة منها بي. أودّ أن أشير فقط إلى أن عليك، بخصوص قطع الحلوى المفنّدة بالسّكر، ألّا تقضميها قضماً بأسنانك، وإنما أن تكتفي بامتصاصها، وإلا أوجعتك أضراسك. أتحبّين ربّما مصبّر الفاكهة، أيضاً؟ إذا كنت كذلك، فلا بأس من أن تذكريه لي في رسالتك القادمة. طيّب، الوداع، الوداع. ليكن المسيح في عونك، يا عزيزتي! أمّا أنا فسأظلّ دائما وأبداً،

صديقك المخلص للغاية،

ماكار دييفوشكين.

27 يونيو.

السيد ماكار ألكسييفيتش،

قالت فيدورا إنّ هناك أناساً سيهتمون بأمري عن طيب خاطر، إنْ أنا شئتُ ذلك، وسيجعلونني أحصل على عمل مشرّف في بعض البيوت، من قبيل مربّية مثلاً. فما رأيك، يا صديقي؟ أأذهب أم لا؟ حينها، لن أبقى دون شك، عالة عليك؛ ثمّ إنّ المنصب المقترح ليبدو مغرياً؛ لكن من الصّعب جداً من ناحية أخرى، أن يقبل المرء بالسّكن في بيت لا يعرف أهله حقّ المعرفة. إنهم من فئة ملاكي الأرض. وسيستعلمون عنّي، ويسألونني، ويودّون معرفة كل شيء يخصّني؛ فماذا سأقول حينها، إذن؟ زِدْ على ذلك، أني منطوية قليلاً على نفسي، ومتوحشة جدّاً، ولا أحبّ مغادرة الرّكن الذي ألفته، وعشت فيه. إنّ المرء ليشعر بالطمأنينة والرّاحة في المكان، الذي أَلِفَ العيش بين أركانه: ذلك أنه مهما لقي فيه من التعاسة والشقاء،

فإنه يشعر فيه مع ذلك بالتوازن والطمأنينة. وإلى جانب هذا وذاك، سأكون مجبَرَة على الذهاب إلى البادية، ويعلم الله وحده أية مهام ستُسنَد إليّ كذلك؛ لربّما لا يريد هؤلاء منّي أن أكون سوى خادمة لأطفالهم، لا أكثر ولا أقل. أضف إلى ذلك كلّه، أنه يتعيّن عليّ أن أتلاءم مع طبيعة مزاجهم وطبعهم الخاص: فهم قد غيّروا المربيّة لثالث مرّة، في ظرف سنتين وحسب! لذا، أعنّي بربّك يا ماكار ألكسييفيتش، بنصيحة تنفعني إذن، وقلْ لي أأذهب أم لا؟ أنت لم تعد ترى إلا نادراً. لم نعُد نرى بعضنا بعضاً إلا يوم الأحد، على هامش القدّاس، فقط. يا لك من متوحّش يخشى مخالطة النّاس! أنت تشبهني بشكل تام! فأنا أُعَدّ على وجه التقريب، إحدى قريباتك. أنت لا تحبّني يا ماكار ألكسييفيتش؛ وكثيراً ما أشعر بالحزن الشديد، خلال عزلتي ووحدتي. أجدني في بعض الأحيان، وحيدة في البيت بشكل كلّي، خاصة مع هطول الليل. فيدورا تذهب إلى مكان غير معلوم، وأنا أبقى هنا مأخوذة بالتفكير، واستعادة الماضي بأحزانه ومسرّاته - كلّ شيء يتمثل إليّ، ويتجلى أمام ناظري، وكأنه يخرج من بين الضباب. أرى بعض الوجوه المألوفة لدي (بدأت الأخيلة تتراءى لي تقريباً، وأنا في حالة الصحو!) - وأرى وجه أمّي في الأغلب الأعم... وأي حلم أعيش! أحسّ وكأنّ صحتي تدهورت؛ أشعر بوهن شديد؛ وها أنذا اليوم أجدني لحظة صحوي، أشعر بالألم؛ ثم أشكو إلى جانب ذلك، من سُعال خبيث! إني لأشعر، بل أعلم أنني سأموت عمّا قريب. فمَن ذا الذي سيدفنني؟ مَن سيسير وراء نعشي. ومَن سيبكيني؟... ولذلك، سيتعيّن عليّ أن أموت ربما لدى الغير، في بيت غريب، وفي زاوية غريبة!... ربّاه! لَكَم هي حزينة هذه الحياة، يا ماكار ألكسييفيتش!

- لماذا تجعلني ألتهم الحلوى دائماً، يا صديقي؟ أنا لا أعرف بصدق، من أين يأتيك كل هذا المال الوفير، الذي تنفقه في شراء الحلوى؟! أتوسّل إليك يا صديقي، بحقّ السّماء، بأن توفر المال، وأن لا تبذِّره في مثل هذا الإنفاق! - إنّ فيدورا ستبيع السّجاد الذي طرّزته؛ وقد منحنا فيه البعض مبلغاً يقدّر بخمسين روبلاً، من فئة الأوراق التعيينية. إنه مبلغ كبير جداً، لم أكن آمل في أن أحظى به من قبل. سأنقد فيدورا ثلاثة روبلات فضية، وسأشتري لي فستاناً بسيطاً، لكن دافئاً. وسأصنع لك صدرية، أنا من سيصنعها بالذات. سأختار لها قماشاً جيّداً.

جاءتني فيدورا بكتاب موسوم بعنوان: «حكايات بييلكين»، من تأليف بوشكين، سأبعث به إليك، إنْ كنت تريد قراءته. أطلب منك فقط ألّا تلطِّخه، وألّا تحتفظ به لوقت طويل؛ فهو ليس في ملكيتي. لقد قرأت تلك الحكايات بصحبة والدتي، منذ عامين سابقين، لكني أجد نفسي الآن شديدة الحزن، وأنا أنخرط في قراءتها! ولا تنسَ إن كانت لديك كتبٌ ما، أن تبعث لي ببعضها، شريطة ألّا يكون راتازاييف هو كاتبها. بالتأكيد، هو سيمنحك بعض تآليفه، إذا ما حصل أن نشر منها شيئاً ما. إنّما قُلْ لي، بالله عليك، كيف أعجبتك تلك التآليف، يا ماكار ألكسييفيتش؟ كيف تستطيع أن تتذوّق مثل تلك السّخافات؟!... والآن، الوداع! لكم تركتُ لريشتي حرية الإسهاب في الثرثرة معك! حين أكون حزينة، يحلو لي التحدث حول شيء ما. إنّ ذلك نوع من العلاج، يشعر المرء بعده بالرّاحة على الفور، خاصّة حين يكشف عمّا ظلّ يجثم على قلبه. الوداع، الوداع يا صديقي!

المخلصة ف. د.

28 يونيو.

أميمتي، فارفارا ألكسييفنا،

كفّي عن الحزن! كيف لا تخجلين بالله عليك، من الإفراط في الحزن على نفسك؟! هيّا يا ملاكي، يكفي هذا؛ كيف تخطر مثل تلك الأفكار على بالك؟! أنت لست مريضة يا ملاكي الصغير، أبداً لست كذلك؛ أنت نضرة، أجل، إنك حقاً لنضرة؛ بك بعض الشحوب، إلا أنك نضرة مع ذلك. وما ذلك الكلام الذي قلتيه عن الأحلام والجيران؟ إن ذلك مخجل يا عزيزتي، فلتكفّي عنه؛ ابصقي على تلك الرؤى والأحلام، ابصقي عليها فحسب. ولماذا أتمتع أنا بنوم مريح، إذن؟ لماذا لا يحدُث لي أي شيء؟ انظري إلي، يا أميمتي. أنا أعيش على إيقاع حياتي بهدوء، وأنام بكيفية مريحة، وأتمتع بصحّة جيّدة؛ إنّ رؤيتي - وأنا على مثل هذه الحال - لمتعة تسرّ الناظرين! لذلك، كفّي عمّا أنت فيه يا أميمتي، واخجلي منه! اعدلي عن هذا السلوك، وقوّمي نفسك. إنني على علم بطبيعة ما يهيمن على رأسك، إذ يكفي أن يحدث لك أقل شيء ممكن، حتى تصبحي حزينة وكئيبة، وتري كلّ الأشياء المحيطة بك على أنها سوداء. أناشدك الله يا أميمتي، بأن تكفّي عن ذلك، من أجلي أنا... لقد سألتني عن رأيي بخصوص إمكانك الدخول في خدمة بعض النّاس. بالنسبة لي، ذلك غير ممكن أبداً! لا، ولا، وألف لا! ثم كيف أمكنك الاعتقاد بأنّ ذلك ملائم لك؟ كلاّ، أنا لن أسمح لك بذلك يا أميمتي، سأتصدّى لمثل هذه المشاريع بكامل قواي. سأعرض لباسي الرّسمي الرّث للبيع، وأمشي بين الجادّات والدّروب بمجرد قميص، لكني لن أتركك تشعرين - وأنت بيننا - بالحاجة والعوز. لا، يا فارينكا، لا، فأنا أعرفك! إنّ ذلك لَضرْبٌ من

الشطط والجنون الخالص! إنّ ذلك بالتأكيد لخطأ، تتحمّل فيه فيدورا المسؤولية كاملة: إن هذه الحمقاء هي من أوحى لك بداهة، بهذه الفكرة. إنما كان عليك أنت عدم الوثوق بها، يا أميمتي!... أنت بالتأكيد لا تزالين على جهلٍ بكل شيء عنها، يا روحي... إنها امرأة غبية ومقلقة ومشاكسة؛ وبذلك أودت بحياة زوجها المرحوم، بسرعة! أم تراها أقلقت بالتأكيد راحتك، فأخرجتك عن الصواب والرشد؟! لا، لا بالتأكيد يا أميمتي، لا تُقدِمي على هذا الفعل بالمرّة! إذ ماذا عساي أصير، حينها؟ ما الذي سيفضل بين يدي فعله إذن، إن أنت أقدمت على ذلك؟ لا، يا فارينكا، لا يا روحي، اطردي هذه الفكرة من رأسك. ماذا ينقصك عندنا؟ إن حضورك بيننا يبعث فينا الفرح، وأنت لا تكنّين لنا غير الحبّ؛ لذلك، عيشي هنا براحة وهناء، وطرّزي أو اقرئي إن شئت، وإذا لم تشائي التطريز، فلا تقومي بأي شيء! لا شيء يهمّ من كلّ ذلك، بشرط أن تمكُثي بيننا ومعنا. وإلا، فلتتصوري أنت بنفسك كيف سيؤول حالي من دونك، حينها!... سأوفر لك بعض الكتب، وسأطالب بعد ذلك بيوم، أتوقّف فيه عن العمل، كي نقوم معاً بنزهة أخرى. لذا، لا يتعيّن عليك فقط يا أميمتي، سوى طرد تلك الفكرة عنك، وأن تتعقلي أكثر، وأن تكفّي عن التفكير في مثل تلك السّخافات، التي لا معنى لها! سأزورك، وسيتحقّق ذلك عمّا قريب، إنما اسمحي لي في المقابل، بأن أصارحك دون لفّ ولا دوران، بما يلي: كلامك غير صائب يا دوشتشكا، ليس بكلام صائب بالكل! أنا دون شك غير متعلّم، وأدرك بالذات أني غير متعلّم، وبأن أهلي لم ينفقوا شيئاً ذا بال من أجل تعليمي؛ إنما ليس هذا هو ما أودّ التحدث فيه الآن، أي أن مدار الحديث هنا لا يتعلق بي أنا شخصياً، وإنما أردتُ في

هذا المقام أن أدافع عن راتازاييف، دون عقد النيّة على الإساءة إليك. إنه صديقي، وهذا هو الدّافع الذي يجعلني أنتصب الآن، للدفاع عنه. إنه يكتب بطريقة جميلة جدّاً، جدّاً، جدّاً، وأكرّرها: جدّاً، جدّاً. أنا غير متفق معك، ويستحيل عليّ أن أشاطرك الرّأي. إنّ كتابته تتمتّع بأسلوب مزخرف ومتقطّع وزاخر بالصّور البلاغية؛ وفيها العديد من الأفكار المتنوعة، وهذا رائع جدّاً! لعلّك قرأت ذلك بكيفية محايدة يا فارينكا، أو ربّما كان مزاجك عكراً لمّا قرأته؛ لعلّ فيدورا تسبّبت لك في بعض ما يزعج، أو حدث لكما في لحظة القراءة، شيء كان مزعجاً. لذا، أنا أحثُّك على إعادة قراءة ذلك بنفسية مرتاحة، حين تكونين رائقة المزاج وفرحة، حين تجدين في نفسك استعداداً، وتشعرين براحة البال، أي حين تتلمظين مثلاً مذاق الحلوى في فمك: تلك هي اللحظة التي تلذّ فيها القراءة. أعترف لك (ومَن ذا الذي يستطيع أن يقول العكس، إذن؟!)، بأنّ هناك كُتّاباً يفوقون راتازاييف موهبة وأدباً؛ بل ثمة بالتأكيد كثيرون ممّن هم كذلك، إلّا أنّ تفوّقهم لا يحُوْل دون تفوّق راتازاييف كذلك؛ فإذا كان هؤلاء يجيدون الكتابة، فإنّ راتازاييف يجيدها أيضاً. إنه ليسوّد بعض الأوراق، بين الفينة والأخرى، لأجل متعته الخاصة، وهو صائب في ذلك! أمّا الآن، يا أميمتي، فالوداع! لم يعُد بمقدوري الاستمرار؛ ينبغي عليّ أن أنتهي بسرعة، لأنّ لي ما ينبغي عمله. إنّما وأنا أودّعك، لا ينبغي أن أنسى أنه عليك أن تنتبهي لنفسك، يا أميمتي، ويا صغيرتي الجميلة والسّاحرة؛ هدّئي من روعك، وأريحي نفسك، وليُحطك الربّ برعايته. سأظلّ أنا

صديقك المخلص،

ماكار ديفوشكين.

استدراك: أشكرك على الكتاب، يا عزيزتي الغالية. سأقرأ بوشكين كذلك؛ إني لأعدك بصدق بالمرور عليك، لنخرج سوية في زيارة.

1 يوليو.

عزيزي الغالي ماكار ألكسييفيتش!

لا يا صديقي، أنا لا أستطيع البقاء بينكم. لقد فكّرت في الأمر، فبدا لي أنّ من الخطأ الذي لا يُغتفر، رفض عمل مثل ذاك، له كلّ تلك المنافع المفيدة. هناك، سأضمن على الأقل الحصول على رغيف مأمون؛ وسأبذل قصارى جهدي لأحظى برضى أولياء نعمتي؛ وسأسعى - إنْ لزم الأمر - إلى التعديل حتى من طبعي ومزاجي، كي أتلاءم أكثر مع ما ينتظره هؤلاء منّي. من المحزن والصعب على النّفس حقاً، أن يضطر المرء إلى العيش بين ناس غرباء، وإلى البقاء رهينة فضل الآخرين عليه وإحسانهم إليه، وإلى أن يُكْره نفسه على ما لا تحبّ أو تهواه؛ لكنّ الله سوف يعينني. إذ لا يمكن للمرء أن يمكث كلّ حياته، وهو يستعدي الناس ويعتزلهم، ويعيش في مبعدةٍ عنهم. وقد سبق لي من قبل أن وجدتني أمرّ بهذه الظروف نفسها. إنني ما زلت أذكر اللحظة التي كنت فيها صبيّة صغيرة تعيش في الدّاخلية. كنتُ كلّما زرت البيت يوم الأحد، إلّا وانكببتُ على اللّهو والقفز، ممّا يضطرّ أمّي في بعض الأحيان، إلى زجري قليلاً عن ذلك؛ لكنّ هذا لم يكن يهمّني، وما كنت آبه له، إذ كان قلبي يطفح بالفرح، وروحي تمتلأ بالسكينة والطمأنينة. وحين يحلّ المساء، يستبدّ بي حزن قاتل: فقد كنتُ مضطرة إلى العودة على السّاعة التاسعة إلى الداخلية، حيث يعمّ طقس غريب، وعلاقات

باردة وشديدة القسوة. وفي يوم الاثنين، تكون المربّيات محتدّات المزاج بكيفية كبيرة جدّاً، مما يجعل قلبي ينغلق مثل صدفة! وكنت كلّما شعرتُ بالحاجة إلى البكاء، إلا واختليت بنفسي في ركن منزوٍ، وذرفتُ هناك وأنا وحيدة، العبرات تلو العبرات، التي كنت ألزم نفسي بإخفائها عن الآخرين، الذين كانوا ينعتونني بالكسولة؛ وإن كنت أبكي، فلأنني لم أكن أفعل ذلك أبداً لأنه كان يتعيّن عليّ أن أدرس، وأنا مكرهة، وإنما لأني كنت أشعر وحسب، برغبة في البكاء. فماذا حدث، إذن؟ لقد تعوّدت على الأمر، وحين تركتُ الدّاخلية في ما بعد، كنت أبكي كذلك، وأنا أودّع رفيقاتي. على أية حال، من المسيء لي أن أكون عالة عليكما أنتما الاثنين. إنّ التفكير في هذا الأمر ليسومني العذاب الأليم. وإني لأصدقك القول في هذا، لكوني قد تعوّدت أن أكون معك صريحة. وهل تظنّ أنّي لا ألاحظ أن فيدورا تستيقظ باكراً كل يوم، فتنهمك في الغسل والاشتغال إلى ساعة متأخرة من الليل، مع أنّ عظامها الهرمة في حاجة ماسّة مع ذلك، كي ترتاح؟! وهل تعتقد أني لم ألحظ كذلك، بأنك تدفع بنفسك نحو الكساد من أجلي، وبأنك تضحّي إلى آخر قطعة نقدية صغيرة لفائدتي؟! ثم إنك لا تتوقف عند هذا الحدّ، وإنّما تتجاوزه يا صديقي! لقد كتبتَ تخبرني أنك ستبيع آخر رداء من أرديتك، ولن تتركني أعيش الحاجة والعوز. أنا أصدّق كلامك يا صديقي، وأثق في طيبة قلبك، غير أنك لا تفعل سوى إلقاء الكلام على عواهنه، الآن. لقد حالفك حظّ غير منتظر هذه الأيام، فنِلْتَ مكافأة مالية مقابل ترقيتك في العمل؛ لكن ماذا عمّا بعد؟ أنت نفسك تعلم هذا: أنا مريضة على الدّوام، ولا أستطيع أن أعمل مثلاً، على تحقيق بعض الرّغبات التي حلمتُ بها، ثم ليس لي من

شغل دائم. فماذا يتبقّى لي، إذن؟ لم يعُد يفضل أمامي سوى الانسحاق في وهدة الحزن والضّنى، وأنا أنظر إليكما وقد انهمكتما معاً في العمل. ففي ماذا يمكنني أن أكون ضرورية بالنسبة لكما، ولو ضمن الحدّ الأدنى؟! في ماذا يمكنني أن أكون ضرورية بالنسبة لك، يا صديقي؟! أي جميل صنعتُه، وأصنعه من أجلك؟ أنا متعلّقة بك وحسب من ملء روحي، وأكنّ لك عاطفة قوية وصلبة، وأحبّك من صميم القلب، لكنّي - مهما كان قدري مريراً! - أعرف أن أحبّ، وأستطيع أن أحبّ، ولا شيء أكثر؛ لأنّي لا أقوى على أن أحسن إليك، ولا على ردّ جميلك. لذلك، لا تتمسّك ببقائي بالمرّة، بل فكّر في الأمر جيّداً، وأبلغني رأيك النهائي. وفي انتظار ذلك، أبقى صديقتك الحنون.

ف. د.

1 يوليو.

إنّ هذا والله لجنون، إنّه جنون وضربٌ من الشطط، يا فارينكا! تُرى، أيّ حماقة وشذوذ فكري سيخطران برأسك، لو تركك المرء لنفسك؟! ليس هذا قراراً صائباً! ليس قراراً سديد الصّواب! أرى الآن أنّ جميع ذلك إن هو إلّا ضرب من الجنون والشطط. لكن، ما الذي ينقصك عندنا، يا أميمتي؟ أجيبيني فحسب، عمّا ينقصك عندنا؟! إننا نحبك، ونحبّك، ونحن معاً مسروران وفرحان. فما الذي ينقصك أكثر من هذا؟ طيّب، ماذا ستفعلين لدى الأغراب؟ بالتأكيد، أنت ما زلت لا تعرفين مَن هو الغريب... لا، اسأليني أنا عن ذلك، وسأجيبك عمّن يكون الغريب. أنا أعرف ذلك، يا أميمتي؛ أعرفه حقّ المعرفة؛ وقد قُدّر ذات يوم أن اقتسمت معه،

بعض الخبز. إنه شرير يا فارينكا، شرير، شرير جدّاً، إلى حدّ أن القلب لا يقوى على تحمّل المعاناة التي تتسبّب فيها توبيخاته وعتاباته ونظراته الشزراء المشبعة بالشرّ. أنت عندنا تنعمين بالدفء، وتحظين بالعطف، وتشعرين في دخيلائك أنّك في عشّ أسريّ صغير. وعليه، فإن رحيلك - إن وسعني القول - سيتركنا حيارى وتائهين، وكأننا فقدنا العقل. هيّا، أجيبيني: ماذا سنفعل دونك؟ وما الذي سأفعله إذن، وأنا شيخ مسكين؟ ألسنا في حاجة إليك؟ ألستِ مفيدة لنا؟ إنّ فائدتك والله لعظيمة بالنسبة لي أنا، يا فارينكا. فتأثيرك شديد الإيجاب عليّ... خذي مثلاً، أنا الآن في هذه اللحظة بالذات، أفكّر فيك، فيغمرني الفرح. وفي بعض الأحيان، أكتب لك رسالة، أستعرض فيها مشاعري، فيأتيني منك ردّ مفصّل. (لقد اشتريت لك بعض الملابس، وأوصيت بأن تُصنَع لك قبّعة؛ وكلّما كان لكِ ما ينبغي قضاءه خارج البيت، سأتكلّف بقضائه أنا نفسي...). لا، كيف أمكنك قول إنّك غير مجدية، إذن؟ وماذا عساي أن أفعل أنا، إذا ما بلغت سنّ الشيخوخة؟ في ماذا سأصلح؟ أنت ربّما لم تفكّري في هذا يا فارينكا؛ لذلك، عليك أن تفكّري فيه إذن؛ قولي: ماذا عساه أن يفعل، إذا لم أعد موجودة هنا، بالكلّ؟ لقد تعوّدت عليك، يا عزيزتي. وإذا رحلت، فماذا سينجم عن ذلك؟ ربّما ألقيت بنفسي في نهر النّيف، فينتهي أمري. أجل، قد يحدث حقاً شيء أشبه بذلك، يا فارينكا؛ إذ من دونك، ما الذي سوف يتبقى لي فعله؟ آه، يا دوشيتشكا فارينكا! أنت تريدين بهذا القرار طبعاً، أن تحمِلني عربة نقل الموتى إلى مقبرة فولكوفو كيفما اتّفِق، وألّا يسير وراء جثماني سوى بعض المتسوّلات ذوات الأسمال البالية، وأن يُهال عليّ بعض الرّمل، ثم أترك وحدي هناك، لينصرف

الجميع. وإنّ هذا والله لأمر سيئ يا أميمتي، إنه لأمر سيئ! أؤكد لك أنه حقاً إثم، إثم عظيم!

أعيد لك كتابك يا صديقتي الصغيرة فارينكا، وإذا ما طلبت مني أن أبدي رأيي بصدد هذا المؤلّف، فإني أقول بأنه لم يحدث لي إلى الآن، أن قرأت أحسن منه، ولا أجمل منه في حياتي. وإني لأتساءل يا أميمتي، كيف استطعتُ إلى الآن، أن أبقى - وليصفح عني الربّ! - حماراً جاهلاً. ما الذي فعلته، ومن أي غابة متوحشة خرجت إلى الدنيا؟ لست أدري أي شيء يا أميمتي، لست أدري أي شيء! دعيني أقول لك بصراحة لا مواربة فيها: أنا إنسان غير متعلّم؛ لم أقرأ إلى حدّ الآن إلا الشيء القليل، أو أني لم أقرأ أي شيء على وجه التقريب؛ قرأت **لوح الإنسان**، وهو مؤلف عميق، وقرأت **الفتى الذي يعزف قطعاً مختلفة على الأجراس**، و**طيور الإيبيكوس**؛ هذا كل شيء، وما عدا هذا أنا لم أقرأ أي شيء آخر، بالكل. والآن، ها أنا قد قرأت كتابك: **عامل المحطة**؛ على المرء أن يعترف يا أميمتي، بأنّه قد يحدث له أن يعيش في الحياة، وهو لا يعلم بأن هناك على مقربة منه، كتاباً يتضمّن مجموع تفاصيل حياته، وقد سُلّط عليها الضوء، كتاباً يتضمّن جميع ما لم ينتبه إليه من قبل هو بالذات، أبداً؛ وما أن يشرع في قراءة ذلك الكتاب، حتى يأخذ في تذكّر ذلك الماضي، ويستعيده، ويستوعبه شيئاً فشيئاً. وثمة في النهاية شيء آخر، حبّب لي كتابك: هناك بعض المؤلفات التي عبثاً ما نعكف على قراءتها، وعلى إعادة تلك القراءة، باذلين قصارى الجهد والعناء لاستيعاب ما نقرأه، بينما نحن لا نفهم في النهاية، أي شيء منها. أنا على سبيل المثال بليد بطبعي، ولا أستوعب الأمور إلا بمشقة الأنفس؛ لذلك، لا أستطيع قراءة الكتب الرّصينة؛

لكنّ كتابك أنت، يستطيع مَن هو مثلي أن يقرأه، وقد يتهيأ له بأنه هو بالذات من كتبه؛ وكأنما أمسَكَ الكاتب بمغالق قلبك، وقلبها، وأظهر للناس جانبها الخفي، دون إهمال أية جزئية أو تفصيلة، مهما كانت! وهو يمتاز بالبساطة حقّاً، ولكمْ هو - يا ربّي! - بسيط! فلماذا لن أكتب إذن، على منواله؟! أنا أشعر ببعض المشاعر المماثلة، والشبيهة بشكل كلّي بتلك الموجودة في الكتاب، ولقد عَبَرتُ أنا أيضاً بالوضعيات نفسها التي نجمت عنها تلك المشاعر المشابهة لما في الكتاب، مثل الوضعية التي عاشها سمسون فيرين على سبيل المثال. ولكم هناك من أشباه سمسون فيرين بيننا، ممّن تقطّعتْ قلوبهم مثلما تقطّع قلبه! ولكم كُتِب كل شيء في ذلك الكتاب، بأسلوب وصفي رفيع! كنتُ على مشارف البكاء يا أميمتي، حين قرأت بأنّ ذلك الآثم قد انكبّ على تعاطي الشّرب: لقد صار سكيراً، فأفقده الخمر التحكّم في مداركه وحواسه، ودفع به إلى الإدمان على النّوم طيلة النهار فوق فراء الخروف؛ وكلما استيقظ، عاد إلى تعاطي شراب البَنش الرّخيص، ليغرق وعيه في حالة السّكر، وينكفئ على نفسه في حالة النواح المشبعة بالألم واللّوعة، ثم يجفّف دمع عينيه بأكمام معطفه المتّسخ، حين يتحدّث عن ابنته دونياشكا، الشابة الصغيرة التي ضاعت منه! كلاّ، إنّ ذلك طبيعي! اقرئي ذلك إذن، فهو طبيعي! وهو أمر معاش! أنا نفسي عشت ذلك؛ كل ذلك معاش من حولي أنا؛ خذي مثلاً تيريز. . . لكن، يمكن للمرء دون الذهاب بعيداً جدّاً، أن يعتبر موظفنا المسكين، من فصيلة سمسون فيرين كذلك، مع فارق بسيط هو أنه يسمّى باسم آخر: غورشكوف. إن هذا أمر مشترك، يا أميمتي؛ ومن الممكن أن يحلّ بنا - أنا وأنت - ما حلّ بذلك المسكين. وقد يحلّ بالكونت

الساكن إما في شارع نيفسكي أو على الميناء، ذلك المصير نفسه؛ ما سيختلف هو المظهر فقط، لأنّ لدى هذه الفئة من الناس بالطبع، يكون كل شيء رفيعاً ومن مستوى كبير، إنما سيكون الأمر في العُمق هو هو؛ إذ كلّ شيء من الممكن أن يحدث، وقد يمكن أن أقع أنا كذلك في الوضع نفسه. هذه يا أميمتي هي الحقيقة، ومع ذلك تريدين أن تفارقينا؛ من الممكن يا فارينكا أن أسقط ضحية الشقاء. إنك لتجازفين بجرّ الخسارة عليّ وعلى نفسك، يا عزيزتي الغالية. آه، هلاّ طردت - بربّك - هذه الأفكار المتمرّدة من ذهنك، يا حمامتي الصغيرة، حتى لا تتسبّبي في تكدير صفو أفكاري، من غير طائل؟! لن يكون بمستطاعك أبداً، أيتها الحمامة الصغيرة التي لم تنبت لها الرّيشات بعد، أن تتدبّري أمر معيشتك، ولا الاحتراز من الشرور، ولا الدفاع عن نفسك ضد الأشرار والأرذال، لوحدك! وحتى ننتهي كلية من هذا الموضوع، أدعوك يا فارينكا إلى التعقّل والعودة إلى الرّشد؛ إذ عوض أن تكترثي لمثل هذه النصائح العبثية، التي ما تنفكّ تتردّد على مسمعك، أدعوك إلى إعادة قراءة الكتاب، الذي بعثت به إليّ، قراءة متمعّنة، وهو الأمر الذي سيكون مجدياً لك أكثر.

لقد تحدثت لراتازاييف عن **ناظر المحطة**، فقال لي إنّ ذلك الكتاب من بين الكتب التي صارت بالية، وإنّ دور النشر لم تعُد تنشر الآن سوى تلك الكتب، التي تتضمن وصفاً متنوعاً؛ غير أني لم أفهم بحقّ كلامه جيّداً. إلا أنه أضاف بأن بوشكين يظل شاعراً كبيراً، وبأنه قد رسم في كتاباته لوحة روسيا المقدّسة؛ كما أضاف أشياء عنه. أجل، إن ذلك لكذلك حقاً، يا فارينكا؛ أعيدي قراءة الكتاب بعناية وتركيز إذن، واتّبعي نصائحي، وأدخلي السّعادة - بطاعتك

وإذعانك - على قلب شيخ مسكين، يتوسّل إليك؛ وإذا ما فعلت ذلك، فسيجازيك الربّ نفسه يا عزيزتي الغالية، الجزاء المؤكّد والمضمون.

صديقك المخلص،

ماكار دييفوشكين.

6 يوليو.

السيد ماكار ألكسييفيتش،

جاءتني فيدورا اليوم بخمسة عشر روبلاً من القطع الفضية. ولشدّ ما كانت المسكينة سعيدة، حين أعطيتها ثلاثة روبلات، من ذلك المبلغ! أنا أكتب إليك على عجلة من أمري. في هذه اللحظة، أنا منهمكة في تبطين صدريتك بقماش - وما أجمله من قماش! - تتناثر على خلفيته الصفراء، أزاهير صغيرة. أبعث إليك بكتاب، هو الآخر أضمومة تجمع بين دفتيها بعض القصص القصيرة. قرأت أنا بعضها؛ وإني لأدعوك إلى قراءة تلك التي تحمل عنوان «المعطف». أنت تلحّ عليّ في أن أصاحبك إلى المسرح، لكن ألن يكلّف ذلك مبلغاً باهظاً؟ اللهم إذا اقتنينا تذاكر الفرجة من الشرفة، التي يتفرج من خلالها صفوف الواقفين. أنا لم أتردّد على زيارة المسرح منذ مدّة طويلة، ولم أعد أذكر حقيقة، متى حصل ذلك. لكنني أخشى أن تكلّف هذه المتعة مرّة أخرى، الشيء الكثير. إن فيدورا لا يصدر عنها إلا تحريك الرأس فحسب، بكيفية تنمّ عن عدم الرّضا. تقول إنك تنفق حالياً، أكثر ممّا تكسب؛ ثم إنّ فيدورا ليست وحدها مَن لاحظ ذلك، وإنما أنا نفسي لاحظت ذلك، إذ ما أكثر ما أنفقته من أجلي! كنْ حذراً وحريصاً على نفسك يا صديقي، حتّى لا يتسبّب

لك ذلك في بعض المكروه. كما أطلعتني فيدورا كذلك، على بعض الإشاعات التي تروَّج حولك: يبدو أنك تشاجرت مع ربّة البيت، لأنّك لم تعد تؤدّي ثمن الإيجار؛ ولكم أنا خائفة عليك! هيّا، الوداع. إني على عجلة من أمري. يتعلق الأمر بشغل من شأنه أن يدرّ عليّ شيئاً، يتعين إنجازه: أنا منهمكة في تغيير حاشية إحدى القبعات!

ف. د.

استدراك: ليكن في علمك أني سأضع القبعة الجديدة فوق رأسي، وسأسدل فوق كتفي حطّة سوداء، لو حدث أن ذهبنا إلى المسرح. فهل سكون وضعي بذلك أحسن؟

7 يوليو.

الآنسة فارفارا ألكسييفنا،

. . . أعود إلى ما كنت قد ذكرته لك بالأمس. أجل يا أميمتي، أنا ارتكبتُ كذلك بعض الحماقات في فترات ماضيّ القديم. لقد وقعتُ في حبّ تلك الممثلة الصّغيرة، وكان حبّاً مشبعاً بالجنون، لكن هذا ما كان ليصير شيئاً يذكر، على أية حال؛ والمُضحك في الأمر بشدّة هو أني لم أكن قد رأيتها - إذا جاز لي استعمال هذا التعبير - هو أني لم أذهب إلى المسرح قطّ إلّا مرة واحدة، ومع ذلك وقعتُ في هواها. ففي وقتها، كان يسكن في الشقة المجاورة لشقّتي، أربعة شبان يغلب على طبعهم الحماس والاندفاع. وكنت أنا أتردّد عليهم؛ ودون أن تكون لي رغبة في ذلك، ارتبطتُ بهم، وتوثَّقت بيننا أواصر الصداقة، مع حرص شديد ودائم منّي، على

إقامة الحدود اللائقة بيننا. وكنت حريصاً دائماً - مخافة التفرّد عنهم - على مجاراتهم في الرأي. ولكم كانوا يحدِّثونني كثيراً عن تلك الممثلة! وكانت كلّ الجماعة، التي لم يكن يتوفّر أعضاءها على ما يكفي من المال اللازم، لسدّ الحاجات الضرورية، تذهب إلى المسرح كل مساء من مساءات العرض، وتتفرّج على تلك الممثلة من الشّرفة التي يتفرّج الواقفون عبرها؛ ولكم كانوا يصفقون، ويهتفون باسم تلك الممثلة! كانوا بحقّ مسعورين بشكل إيجابي! وبعد ذلك، لم يكونوا يتركونني أخلد إلى النوم؛ يبيتون الليل في التحدّث عنها، ويدعوها كلّ واحد منهم بليلاه؛ وكانوا أربعتهم مفتونين بها، يخفق قلب كل واحد منهم بالحبّ الجنوني نفسه لها! وهكذا انجررتُ وراءهم من تلقاء ذاتي، وكنت حينها لا أزال في ريعان الشباب. لستُ أدري أنا نفسي، كيف وجدتني معهم في المسرح، وبالضبط في الشرفة التي يتابع الواقفون العرض من خلالها، بالطابق الرابع. لم أكن أرى - بخصوص العرض المقدّم - إلا جزءاً صغيراً من ستارة المسرح؛ بينما أسمع في المقابل كل شيء. كانت الممثلة المذكورة تملك صوتاً جميلاً، عذباً ومنغّماً، يشبه صوت البلبل! وكنّا نحن نصفّق، ونصيح بأعلى صوتنا، فكدنا نتورط بسبب ذلك مع الشرطة، إذ طُرد منّا واحد. وفي لحظة العودة إلى الشقة، سِرتُ كمن يسبح بين الغمام! لم يفضُل في جيبي سوى قطعة فضّية يتيمة من قيمة روبل واحد، ولم يكن بوسعي أن أتقاضى مرتّبي، إلّا بعد مضي عشرة أيام؛ ومع ذلك، احزري ماذا فعلت، يا أميمتي! في صباح اليوم الموالي، وقبل الذهاب إلى العمل، دخلت متجرَ فرنسيٍّ يبيع العطور، واشتريت منه بعض العطر والصابون؛ وبذلك أنفقت كلّ ما أملكه؛ أنا نفسي لم أكن أعرف السبب الذي حدا بي إلى الإقدام

على ذلك، ودفعني إلى اقتناء تلك الأشياء. وفي مساء ذلك اليوم، لم أعد مباشرة إلى البيت، لتناول طعام عشائي فيه، وإنما بقيت أتجول لوقت طويل، أمام نوافذ البيت الذي كانت تقيم فيه تلك الجميلة! كانت تسكن بشارع نيفسكي، بالطابق الراقي من إحدى البنايات. وحين عدت إلى البيت، ارتحتُ بعض الوقت، ثم عدتُ أدراجي إلى شارع نيفسكي، لا ألوي على شيء آخر سوى أن أتجوّل أمام بيتها، مرّة أخرى. وهكذا ظللتُ لستة أسابيع على هذه الحال من التودّد إليها، وكنت في كلّ لحظة من اللحظات التي تمرّ هي فيها، أستأجر عربة من العربات، وأذرع الشارع جيئة وذهاباً أمامها: وبتلك الكيفية، بدّدت كافة ما كنت أملكه، واستدنت. عندها، توقفت عن حبّها: لقد كان ما وصلت إليه حدّاً كافياً! وهكذا، لك أن تتأملي في ما بوسع ممثلة من الدّرجة الصغيرة، أن تفعله برجل يليق بهذا النعت، يا أميمتي! صحيح أنّي كنت حينها شابّاً، شابّاً صغير السنّ!

م. د.

8 يوليو.

عزيزتي الغالية جدّاً الآنسة فارفارا ألكسييفنا،

أبادر بسرعة إلى إرجاعك الكتاب، الذي بعثت به إليّ في السّادس من الشهر الجاري، مثلما أبادر بسرعة كذلك إلى وضعك ضمن السيّاق، الذي يفسّر بوضوح سلوكي الخاص. إنّه من المسيء يا أميمتي، من المسيء جدّاً أن تضعيني في مثل هذا الموضع الحرج، وأن تدفعي بي إلى هذا الموقف المُغالي بالذات. وعليه، اسمحي بأن أقول لك في البداية: إنّ الله عزّ وجل هو الذي يحدّد

أقدار الناس ومصائرهم المختلفة، يا أميمتي. هذا قدره أن يحمل رتبة جنرال، وذاك مكتوب عليه أن يخدم الدولة خدمة وضيعة. تلك هي إرادة الله في خلقه، ومشيئته العليا التي ما علينا نحن بني البشر، سوى الإيمان بها في خضوع وصمت. وقد توزّعت هذه المصائر والأقدار بحسب قدرات كلّ إنسان، ووفقاً لاستعداداته: فهذا مؤهّل لهذه المهمة، وذاك لمهمة أخرى، وهكذا دواليك؛ وإنّ الله بالذات هو الذي حدّد تلك القدرات والاستعدادات لعباده.

أنا على سبيل المثال، أشتغل مستخدماً منذ حوالي ثلاثين سنة خلت، وأقوم بواجباتي بكيفية لا مؤاخذة عليها، وسيرتي حسنة، ولم يحصل أن أُخِذ عليّ قط أي شيء من الأشياء، ولا تسبّبت في فوضى أو قلاقل سياسية. أنا أعتبر نفسي - كمواطن - شخصاً له عيوبه، مثلما له حسناته كذلك. أحظى بتقدير رؤسائي، وصاحب المعالي بالذات راضٍ عني؛ وحتى لو لم تصدر عنه إلى حدّ الآن، أية إشارة تنمّ عن تقديره لشخصي، فأنا أعرف أنه رغم ذلك، راضٍ عني. إنّ خطي واضح وأنيق بشكلٍ كافٍ؛ صحيح أنه ليس بالخطّ الضخم ولا بالدقيق، وإنما يتخلّله بالأحرى طابع ينمّ عن السرعة والعجلة، لكنه مع ذلك خطّ مقنع؛ وليس في مؤسستنا من أحد آخر، عدا إيفان بروكوفييفيتش، يكتب بمثل طريقتي في الكتابة وأحسن! لقد وَخَط الشيب شعر رأسي، من طول ما اشتغلت وكافحت؛ ولا أذكر أني ارتكبت إلى الآن، إثماً عظيماً. بالتأكيد، أنا اقترفتُ بعض الصغائر، إنما مَن ذا الذي ينجو من ارتكابها؟! كلّ الناس خطّاؤون؛ أنت بالذات يا أميمتي خطاءة! لكن، أن أقترف إثماً عظيماً، أن أخرق شريعة من الشرائع، أن أقلق طمأنينة الناس، وأن أزعج السكينة العامة؛ فإنّ هذا ممّا لا يستطيع أيٌّ كان أن يؤاخذني عليه! وبفضل

هذا أوشك على أن يقترح اسمي، لنيل وسام صغير؛ وهذا حسبي!... كل هذا كان عليك أن تعلمي به يا أميمتي، وكان عليه هو أن يعلم به أيضاً! لقد كان عليه، في اللحظة التي نوى فيها رسم صورة شخصية لشخصي، ألّا ينسى شيئاً من ذلك. لا، يا أميمتي، أنا لم أكن أنتظر أي شيء من هذا يصدر عنك، أنت بالذات، يا فارينكا! لم أكن أنتظر على كلّ حال، أن يصدر عنك، أنت بشكل خاص!

وكيف؟! لن يتمكّن المرء أبداً، بعد هذا، من العيش بشكل هادئ في ركنه الرّكين، مهما كان ذلك الرّكن! لم يعُد مسموحاً له بالعيش أبداً، دون أن يعكّر الجار صفو ماء جاره، مثلما يقول المثل؛ ودون أن يؤذي الشخص شخصاً آخر، يخشى تعاليم ربه، ويلتزم حدود نفسه! ثمة دائماً مَن يهتمّ لشأنك، ومَن يحشر أنفه ليعرف ما يضمّه مسكنك، ومن يتجسّس على حياتك الخاصة، ومَن يبحث عن معرفة ما إذا كانت صديرتك على سبيل المثال جميلة أم لا، وهل ترتدي سروالاً مناسباً يليق بك، وهل تتوفر على حذاء طويل، وكيف هي حال نعل الحذاء؛ وما طعامك وشرابك، وما الذي تستنسخ! لكن، أيّ سوء ثمة إذن، يا أميمتي، لو أني مشيتُ على رؤوس أصابعي فوق قارعة الطريق، حيث الأرضية غير مرصوفة، لتجنيب حذائي ما قد يضرّ به؟ ما الحاجة إذن، في أن يكتب المرء عن قريبه، بأنه يعيش أحياناً في الضائقة، ولا يحتسي الشاي؟! وكأنّ الجميع يحتاج بالضرورة، إلى احتساء الشاي! وهل سأندفع أنا باتجاه الناس، لفحص أفواههم، ورصد ما يأكلون؟! ومَن هو ذلك الذي سمحت لنفسي بأنْ أسلك إزاءه هذا السلوك المشين وغير اللائق؟ لا، يا أميمتي! من الإساءة أن نجرح مشاعر

الآخر حين لا يفعل لنا ما يُغضب. خذي مثلاً، يا فارفارا ألكسييفنا، هذا النموذج التمثيلي: بوعي وإخلاص، يقوم المرء بأداء خدمته، ويحظى بتقدير الرؤساء (إذ مهما قالوا عنّا، ولاحظوا، فإنهم ينتهون بالتأكيد إلى تقديرنا!)؛ فإذا بأحدهم يكيل له الهجاء في كتابته، بشكلٍ صريح ومكشوف، دون سبب واضح، ولا عذرٍ مقبول! قد يحدث لي أنا أيضاً، بالتأكيد، أن أصنع لي بعض الثياب الجديدة، وأن أشتري حذاء، وأن أشعر جراء ذلك بالراحة والسعادة والفرح، فلا أنام الليل بفعل تلك الفرحة والسعادة، لأنّ من الممتع والمثير حقاً، أن ينتعل المرء حذاء أنيقاً وجديداً. وهذا بصراحة هو ما شعرتُ به في الحقيقة، لأنَّ من الشيق أن يرى المرء قدميه تنتعلان حذاء أنيقاً ورشيقاً! أجل؛ هذه الملاحظة صحيحة! لكني أندهش مع ذلك، لكون صاحبنا فيدور فيدوروفيتش، قد سمح دون انتباه منه، بصدور هذا الكتاب، لأنه ينال منه هو كذلك. صحيح أنّ هذا الموظف لا يزال شاباً، ويحبّ أن يصيح ويصرخ في بعض الأحيان؛ ولكن، لماذا لا يصرخ، إذن؟ لماذا لا يصيح فينا بصوت صاخب، حين يرى ضرورة لذلك؟ إني لأسلّم بأنه قد يصيح أحياناً، من دون أيّ سبب ظاهر؛ إنما ذلك ضروري ومن حقه أيضاً، إذ عليه أن يُعلِّم الناسَ كيف يتعين عليهم أن يحترموا ضوابط العيش، التي يلزمهم الخضوع لها؛ لأننا نحتاج نحن الآخرين - ولنبُح بهذا الأمر صراحة بيننا، يا فارينكا - إلى أن نتلقى التوبيخ والزجر كثيراً، لكي نعمل. كلّ واحد منّا لا يكترث إلّا إلى أن يحضر إلى مقرّ العمل، أما العمل بالذات فإنه يُترَكُ جانباً. ولكن، بما أنّ هناك درجات متنوعة في السلَّم الإداري البيروقراطي، وبما أنّ كل موظف يطالب بأن يقع عليه التوبيخ بشكل يتطابق مع صفّه ورتبته، فإنه من الطبيعي - تبعاً لذلك

- أن تكون نبرة التوبيخ متنوعة؛ وإنّ ذلك لمِن طبيعة الأمور! وإلى جانب ذلك، ينبغي على كلٍّ منّا يا أميمتي، حتى يستمر العالم، أن يفرض هيبته على مَن هو أقلّ منه رتبة؛ وعلينا جميعاً أن نوبّخ بعضنا بعضاً، من أعلى السلم إلى أسفله، وأن يؤنّب الواحد منّا الآخر بشدّة. دون هذا الاحتراز، لن يستمر العالم في البقاء أبداً؛ ولن يكون هناك أيّ نظام. لذلك، فإني أندهش في الحقيقة، لكون فيدور فيدوروفيتش قد أغلق عينيه عن هذه الإساءة، حين ترك هذا الكتاب الهجائي الجارح يصدر!

وأيّ شيطان وسوس لذلك الكاتب إذن، بأن يكتب مثل تلك الأمور؟! وما جدوى ذلك؟! وهل سيبعث لي قارئ من القرّاء بمعطف جديد، بعد أن يكون قد قرأ ما قرأ في ذلك المحكي؟! هل سيشتري لي ربما، حذاءً جديداً؟! لا، يا فارينكا! إن الناس ستقرأ القصة إلى نهايتها فحسب، وستطلب معرفة المزيد. أحياناً، يختفي المرء عن كافة الأنظار، ويتوارى وكأنه مذنب، ويخشى الظهور في كلّ مكان، لأنه يخاف من القيل والقال، ما دام أنّ الآخرين قد يستفيدون من أدنى فرصة سانحة كي يجعلوا منه موضوعاً لسخريتهم وتندُّرهم، لتصير بذلك حياته الخاصة والعامة معروضة كلها في كتاب؛ وبهذا يصير كلّ شيء عنه مطبوعاً ومقروءاً ومعروضاً للتندّر والسخرية والنقد! وبعد ذلك، لن يجرؤ المرء على الخروج إلى الشارع أبداً، لأنّ صورته المرسومة في الكتاب، شبيهة جداً بشخصه الحقيقي، حتى ليكاد الناس يتعرَّفون عليه من مجرّد مشيته فقط! ولعلّ هذا الأمر كان سيهون، لو أنّ الكاتب خفّف في النهاية، من حدّة تصويره، لو أنه على سبيل المثال، أضاف على الأقل - بعدما ذكر بأنّ صاحبنا المسكين قد تعرَّض لزخات، قصفته على رأسه بقطع

ورقية - بأن الرجل كان شخصاً متخلقاً ومواطناً صالحاً، لا يستحقّ أن يَلقى من زملائه مثل هذه المعاملة، وهو شخص يطيع رؤساءه (إلى الحدّ الذي يمكّنه من أن يُضرب به المثل في الطاعة!)، وأنه لا يتمنى حدوث الشرّ لأيّ أحد، وهو يؤمن بالله، وأن موته (إنْ شاء له الكاتب ذلك، بشكل حتمي!)، قد تسبّب للجميع في أن يشعر بالأسى والحسرة! لكن الكاتب، كان من الأفضل أن يترك صاحبنا المسكين يعيش حياته، وأن يقرّر له مصيراً آخر يستعيد من خلاله معطفه، وأن يجعل فيدور فيدوروفيتش (وأنا أتكلم وكأن الأمر يتعلق بي شخصياً!)، ذلك الجنرال، بعد أن يطَّلع جيداً على أخلاق هذا الموظف، أن يبعث في طلبه للحضور إلى مكتبه، وأن يرقّيه إلى درجة أعلى، وأن يعطيه تعويضات لائقة بمجهوداته؛ وبهذه الكيفية، سيُلاقي الشرّ عقابه، وستجازى الفضيلة أحسن جزاء، ولن يكون على بقية الموظفين الآخرين، زملاء صاحبنا المسكين في العمل، سوى أن يرتدعوا، وأن يكفوا عن غيِّهم. بهذه الخاتمة، كنت أنا مثلاً، سأنهي القصة. وإلّا، أية خصوصية في هذه الحكاية؟ وماذا تستحق؟ إنها لا تروي سوى وقائع مبتذلة، ممّا تعجّ به حياتنا اليومية. فكيف قرّرت بالله عليك يا عزيزتي، أن تبعثي لي بمثل هذا الكتاب؟! إنه يا فارينكا كتاب سيئ الطوية؛ ما يحكيه غير محتمل، لأن من غير الممكن أن يوجد هناك موظف يشبه صاحبنا المسكين. لا، أنا سأشكو ذلك إلى السلطات يا فارينكا، لقد قرَّرت أن أرفع شكوى ضد ذلك.

خادمك المخلص،

ماكار دييفوشكين.

27 يوليو.

السيد ماكار ألكسييفيتش،

كانت الأحداث الأخيرة ورسائلك أيضاً، قد شغلتني وأذهلتني؛ فأنا ما فهمتُ منها شيئاً يُذكر، اللّهم ما حكته لي فيدورا، ففسّر لي كلّ شيء. لماذا أنت إذن محبط هكذا، وقد سمحت لنفسك بالسّقوط في هاوية اليأس دفعة واحدة، يا ماكار ألكسييفيتش؟ إنّ تبريراتك التي تعلّل بها الأمر لم تُقنِعني، بالمطلق. ألستُ إذن محقّة في قبول المنصب المجزي، الذي اقتُرح عليّ؟! زِدْ على ذلك أن مغامرتي الأخيرة تشغل بالي، بكيفية جادّة. أنت تقول بأن عطفك عليّ هو الذي دفع بك إلى إخفاء الحقيقة عني. لقد كنت أرى من قبل، بأنني مَدينةٌ لك بشكلٍ كبير، منذ أن ادّعيت حينها بأنك لا تنفق من أجلي سوى المال، الذي كنت قد ادّخرته، ووضعته جانباً للملمّات والطوارئ. والآن، بعدما علمت بأنك لم تعُد تملك أيّ مال بالكل، وبأنك قد قرّرت - بعد تأثرك لحالتي البئيسة - أن تنفق راتبك الشهري، الذي حصلت عليه مقدّماً، وذهب بك الأمر إلى حدّ بيع ملابسك، خلال الفترة التي استغرقها مرضي - والآن، أجد نفسي بفعل هذا الاكتشاف الذي وقفتُ عليه، في وضعية جدّ مضنية، إلى حدّ أني لم أعُد أعرف كيف أستوعب كلّ هذا، ولا حتى ما ينبغي أن يكون رأيي فيه. آه، يا ماكار ألكسييفيتش! كان عليك، بعدما عبّرت لي عن مشاعر الشفقة والرأفة وحسّ التضامن العائلي، من خلال أعمال الخير الأولى، التي قمت بها في حقّي، أن تتوقف، وألّا تُنفق من مالك بعد ذلك، في الأمور غير المفيدة. لقد خنتَ صداقتنا يا ماكار ألكسييفيتش، لأنك لم تكن صريحاً معي؛ والآن، لمّا استوعبتُ بأنك أنفقت آخر ما تملكه من نقود، في سبيل شراء

بعض أمور الزينة والسّكاكر، ولكي توفِّر لي بعض أجواء النزهة وتذاكر المسرح والكتب؛ فإني الآن أتأسف وأتحسَّر بقوة، على لحظات طيشي التي لا تُغتفر، لأني كنت أقبل منك الهدايا، دون أن أراعي وضعك؛ فإذا بجميع ما كنتَ ترغب في أن تسعدني به، قد انقلب الآن إلى حزن بالنسبة لي، ولم يخلف وراءه سوى حسرات عقيمة. لقد لاحظت في الأيام الأخيرة قلقك؛ وعلى الرغم من أني توقعت أنا نفسي بلهفة، أن يحدث شيء ما، فإني كنت أبعد ما يمكن عن توقُّع ما حدث، الآن. ما هذا؟ كيف أمكن لمعنوياتك أن تنخفض إلى هذا الحدّ، يا ماكار ألكسييفيتش؟! ماذا عسى أن يُقال عنك الآن، وأن يخطر ببال جميع هؤلاء الذين يعرفونك؟ أنت الذي أقدّره، ويقدّره الجميع، لطيبة روحك، وقدرتك على الاحتراز، ولرجاحة عقلك، ها أنتَ الآن ترتمي بين براثن الرذيلة الممقوتة بشكل كلّي، وهي تلك الرذيلة التي لم تكن في ما أعتقد، قد اقتربت منها أبداً، من قبل! يا لهول ما شعرتُ به، حين قصّت عليّ فيدورا بأنّهم عثروا عليك في الشارع، وأنت في حالة سُكر بيّن، وقد رافقتك الشرطة إلى البيت! لقد صُعِقت من أثر الدهشة الشديدة، رغم كوني انتظرتُ أن يحدث شيء ما غير عادي، بالنظر إلى أنك قد اختفيت عن الأنظار منذ أربعة أيام. فهل فكّرت في ما سيقوله رؤساءك يا ماكار ألكييفيتش، حين سيتلقون الخبر الحقيقي، الذي حدا بك إلى التغيّب طيلة تلك المدّة؟ تقول إنّ الجميع يسخر منك، وبأنّ الجميع يعلم بأمر علاقتنا، وبأنّ جيرانك يربطون في إطار مزاحهم، بين اسمك واسمي. لكن، لا تشغل بالك بهذا الأمر يا ماكار ألكسييفيتش، وطمئن نفسك بحقّ السّماء. ثم إني لمُنشغلة البال بحكاية هؤلاء الضباط كذلك، إذ سمعتُ بها بشكل غامض.

لذا، أرجو منك أن تشرح لي ماذا يعني كل ذلك. لقد كتبتَ تقول إنك لم تجرؤ على مصارحتي، وبأنك تخاف من فقدان صداقتي، حين ستعترف بما يعتمل بصدق في دخيلة صدرك؛ وبأنك كنت يائساً ومحبطاً، لا تعرف كيف تقدّم لي يد المساعدة، أثناء فترة مرضي؛ وبأنك بعت كلّ شيء كي تؤمّن لي حاجياتي، وتجنّبني الذهاب إلى المستشفى؛ وبأنك استدنتَ ما أمكن لك أن تستدينه؛ وبأنك تلقى كل يوم مجموعة من المضايقات من طرف ربّة البيت؛ إلّا أنك حين أخفيت عنّي كل هذه المدة، اخترت أسوأ الحلول. والآن، ها أنا أعلم على كلّ، بجميع تلك الأمور. لقد أردت - برقّة ولطف منك - أن تتركني بمنأى عن معرفة الدّواعي، التي تقف وراء وضعك السيئ، فتسبّبت لي في الحزن لمرّتين الآن، بفعل تصرّفك ذاك. لقد أذهلني كل هذا منك، يا ماكار ألكسييفيتش! أواه، يا صديقي! إنّ الشقاء لَمَرَضٌ مُعدٍ! على الأشقياء الفقراء أن يتحاشوا بعضهم البعض، حتى لا يزيدوا من حدّة آلامهم. لقد تسبّبتُ لك في آلام، ما كنت قد شعرت بها من قبل أبداً، خلال مسار وجودك المتواضع والمفعم بالعزلة. وقد عذّبني وقتلني هذا كلّه.

والآن، اكتُب لي بصراحة تامة ما حدث لك، وكيف انتهيت إلى التصرّف بمثل ذلك التصرّف. طمئنّي، إن أمكنكَ ذلك. ليست كبريائي هي التي تطلب منك تلك التوضيحات المفصّلة، ولكن صداقتي وحبّي؛ وهما العاطفتان اللتان لن تزولا أبداً، من دخيلة قلبي. الوداع، الآن. إنني أنتظر ردّك بصبر نافد. لقد أخطأت الظنّ بي، يا ماكار ألكسييفيتش.

المخلصة والمُحبّة،

فارفارا دوبروسيلوفا.

28 يوليو.

عزيزتي التي لا تقدّر بثمن فارفارا ألكسييفنا،

بما أن كلّ شيء قد انتهى الآن، وبما أنّ الأمور قد بدأت تعود شيئاً فشيئاً إلى مجراها الطبيعي، فإنّي أستسمحك في قول ما يلي، يا أميمتي: إنك تشغلين بالك بما سيُقال عنّي، وهو الأمر الذي أسارع بالردّ عليه قائلاً بأن سمعتي، يا فارفارا ألكسييفنا، هي أعزّ ما يمكن لي امتلاكه. وهذا هو ما يدفعني إلى أن أضيف، وأنا أخبرك بكافة أنواع الشقاء والفوضى التي عانيتُ منها، بأنّ ما من أحدٍ من رؤسائي في العمل قد علم بالأمر، أو أنه سيعلم شيئاً من ذلك أبداً، إذ سيستمرون في تقديرهم جميعاً لشخصي، كما اعتادوا على فعل ذلك في الماضي. أنا لا أخشى سوى من مسألة واحدة: القيل والقال. في المنزل، ربّة البيت هي وحدها مَن كان يصرخ في وجهي، لكني أدّيتُ لها الآن - بفضل روبلاتك العشرة - قسطاً من الدين الذي كان بذمتي، ممّا جعلها تكتفي بمجرد الدّمدمة التي تنمّ عن التذمّر لا أكثر.

أمّا بالنسبة إلى الآخرين، فإنهم لا يقولون أي شيء؛ كلّ ما ينبغي فقط، هو اجتناب الاقتراض منهم، وبذلك لن يحشروا أنوفهم تقريباً، في ما يخصّني. ودَعيني أقول في ختام تفسيري هذا، بأنّي أعدّ تقديرك لشخصي يا أميمتي، فوق كل اعتبار، وأن ذلك هو سلواني وعزائي الآن، في خضم هذه الفوضى العارمة التي ألمّت بي عرضاً. إنّ الصدمة والاضطراب الأولين قد مرّا بحمد الله وعافيته، ويبدو من خلال الطريقة التي بلغك بها أمري الطارئ، أنّك لا تعدّينني صديقاً خؤوناً وأنانياً، لأني كنت قد احتفظتُ بكِ بالقرب منّي فخدعتك، لأني لا أملك القوة اللازمة للانفصال عنك، ولأني

أحببتكِ وكأنك ملاكي الصغير. لقد استأنفت الآن عملي بهمّة وحماس، وعدت إلى ممارسة واجبي بوعي تام. إنّ إيفيستافي إيفانوفيتش لم يتفوّه البارحة بأية كلمة، حين مررتُ بجانبه، لكن ديوني وحالة ملابسي الرّثة تعذبني، يا أميمتي؛ غير أني أعود لأقول لك مرة أخرى، بأن هذا لا شيء، كما أني أتوسّل إليك أيضاً بألّا تيأسي بشأن هذه المسألة، يا أميمتي. لقد بعثتِ لي بنصف روبل يا فارينكا، وهذا أدمى قلبي. انظري كيف غدوت الآن، وإلى أين صارت الأمور! بمعنى أني لستُ أنا - الأبله والعجوز! - الذي يساعد ملاكه الصغير، وإنما أنتِ أيتها اليتيمة الصغيرة، مَن يساعدني! لقد أحسنت فيدورا صنعاً، بحصولها على المال. أنا لا أستطيع إلى غاية الآن، الحصول على أي شيء كان، يا أميمتي؛ ولن أبخل عليك متى ما توفرت لي فرصة ذلك. إلا أن القيل والقال والشائعات المُغرضة تعذبني كثيراً. الوداع، يا ملاكي الصغير. أقبّل يديك، وألتمس منك الاعتناء بنفسك، إلى أن تتعافَيّ كلية. لن أدخل في الكثير من التفاصيل، لأنّ ما تبقى لي من الوقت، لا يسمح لي سوى بالذهاب إلى المكتب: إنني أريد بحماسة وانضباط مفرطين، أن أصحّح كافة الأخطاء التي وقعتُ فيها، بإهمالي لواجبات العمل؛ لذا، سأرجئ إلى غاية المساء، سرد تفاصيل الوقائع التي ارتبطت بمغامرتي مع الضباط.

صديقك الذي يكنّ لك أصدق المشاعر:

ماكار ديفوشكين.

28 يوليو.

أميمتي فارينكا،

آه، يا فارينكا، آه! الخطأ هذه المرّة صادر عنك، والذنب سيبقى جاثماً على ضميرك. لقد خلقت برسالتك اضطراباً أربَكَ جميع أفكاري، وحيّرني بكيفية شاملة، فلم أدرك إلّا هذه اللحظة، بعدما غصتُ على مهَل أعماق قلبي، بأني على حقّ، على حقّ تام.

أنا لا أتحدث عمّا بدر منّي من فجور (أفّ من ذلك، يا أميمتي، أفّ منه!)، وإنما أنا أتحدث عن حبي لك، الذي لم يكن مخالفاً للصواب، بالمرة. أنت لا تعلمين بشيء يا أميمتي، إلا أنك لو علمت وحسب، من أي مصدر ينبع كل ذلك، ولماذا ينبغي عليّ أن أحبّك، لما تحدّثت إليّ بتلك الكيفية، التي تحدثت إلي بها. كلّ ما ذكرته، وجميع الحجج التي استعملتها، ليست سوى شكلية وحسب؛ لأني متأكد من أنك في العمق، لا تؤمنين بذلك أبداً.

أنا نفسي يا أميمتي، لا أتذكّر جيّداً جميع ما وقع بيني وبين هؤلاء الضباط. ينبغي أن أشير يا ملاكي الصغير، بأني كنت قبل هذه الحادثة التي جمعتني بهؤلاء، في حالة هياج رهيب. تصوّري أني كنت منذ شهر عن تلك الحادثة، مشدوداً فقط إلى مجرد خيطٍ واهٍ، إن صحّ هذا التعبير. كانت حالتي فظيعة، وظللتُ أخفيها عنك، وأمسح أثرها كذلك في البيت، لكن ربّة البيت كانت تصيح في وجهي باستمرار، بكيفية مرعبة؛ غير أنّ ذلك وحده ما كان ليؤثّر عليّ أبداً. إذ في ماذا سيهمّني لو أنّ امرأة بلهاء صرخت في وجهي؟! لكن ما حصل هو بمثابة فضيحة. إذ إنها قامت، بعدما علمت بعلاقتنا - ولا أحد يعلم سوى الله وحده، كيف استطاعت أن تحيط بذلك كله! - بفضحي داخل البيت كله، إلى أن بقيتُ لحظة سماعي

لذلك منها، ذاهلاً ومندهشاً، لا أستطيع القيام بأيّ شيء آخر، ما عدا سدّ أذنيّ. إلا أنّ الآخرين لم يسدّوا آذانهم، وإنما العكس هو الذي حصل منهم: فتحوها على سعتها. وما زلت إلى الآن، يا أميمتي، لا أعرف أين ينبغي عليّ أن أخفي وجهي، من شدّة الخجل. . .

هكذا إذن، يا ملاكي الصغير، دفعتني كافّة تلك المصائب المختلفة، في المحصِّلة النهائية، إلى أقصى حدّ ممكن من الاحتداد. فجأة، تناهت إلى علمي - عن طريق فيدورا - أمور غريبة: فقد بلغني أنّ مطارداً وقحاً قد جاء إلى غرفتكما، وتفوّه بعبارات نابية في حقك. ما من شكّ أنّ هذا الرجل قد أهانك إهانة بالغة؛ إذ ذلك هو ما تصورته أنا بنفسي يا أميمتي، لأني شعرت في قرارة نفسي، أنا بالذات، بالإهانة. حينها، فقدتُ السيطرة والتحكّم في نفسي يا ملاكي الصغير، فصرتُ مثل ريشة في مهبّ ريح عاتية. لقد خرجت بسرعة من البيت يا صديقتي، وأنا في ذروة الغضب الشديد، متجهاً صوب ذلك المطارد المدفوع بالرغبة في الإغواء. لم أكُن حتى على معرفة بما أنوي القيام به: ذلك لأني لا أطيق أن تلحقك الإهانة من أيٍّ كان، يا ملاكي! ولكم كان الأمر محزناً! ولشدّ ما كان المطر وقتها يهطل، وكانت الرطوبة البليلة شديدة، ممّا جعلني أشعر في قرارة نفسي بحزن رهيب!. . . فكّرت في العودة إلى البيت. . . وفي تلك الأثناء، وقعتُ على الأرض، يا أميمتي. بعدها، التقيت بإيميليان - إيميليان إيليتش - وهو واحد من المستخدمين في إدارتنا، أو أنه بالأحرى كان مستخدماً سابقاً معنا، غير أنه لم يعُد كذلك، لأنه طُرد من الخدمة. أنا لا أعلم حتى ما الذي صار يعمله الآن، ويبدو أنه يعيش عيشة شقية. وهكذا، ذهبنا

سوية، أنا وهو. بعدها. . . لكن، في ماذا سينفعك قول هذا، يا فارينكا؟ أية متعة يمكن لك أن تجديها، وأنت تقرئين عن مآسي صديقك، وتتابعين ألوان حظّه العاثر، وأصناف الغوايات التي مرّ بها، وعانى منها؟ في مساء اليوم الموالي، اندفعتُ قاصداً ذلك الضابط، بعدما حرّضني على ذلك إيميليان. حصلتُ على عنوانه من دفورنيك، بعد أن التمسته منه. ولا بد من أن أقول لك يا فارينكا، في معرض هذا السياق، بأني كنتُ أراقب ذلك الشاب لفترة طويلة؛ كنت أراقبه حتى حينما كان يسكن في بيتنا، قبل هذا التاريخ. وإني لأرى الآن، بأني تصرّفت تصرّفاً لا يليق، لأني لم أكُن في حالتي الطبيعية، لمّا زرته. لم أعُد حقاً يا فارينكا، أذكر أي شيء على الإطلاق، وكلّ ما أذكره وحسب، هو أن عدداً كبيراً من الضباط قد استقبلني في بيته، أو ربّما أن عيني خدعتني، فرأيتُ الشخص الواحد مضاعفاً؛ على كلّ حال، الله أعلم. كما أنني لم أعُد أذكر كذلك، ما قلته وقتها، كلّ ما أذكره فحسب، هو أني هذرت كثيراً، وأنا مستثار في شرفي. عندها، طردني هؤلاء من البيت، ودحرجوني حتى آخر درجة من درجات السلم؛ بمعنى أني طُردت بكيفية شديدة القسوة، لأنهم دحرجوني إلى أسفل السلم. وإنك لتعلمين الكيفية التي عدتُ بها إلى البيت، يا فارينكا؛ لذلك، حسبي هذا. وإذن، كأن شيئاً لم يقع. لعلّ الأمر كذلك يا فارينكا؛ فما رأيك؟ إنَّ ما أعلمه علم اليقين هو أن هياسينتيه أوزيبوفيتش قد خدش كرامة بيير بيتروفيتش عندنا، في السنة الفارطة؛ إلّا أنه مارس ذلك بشكلٍ خفيّ، مارسه بطريقة سريّة. دعاه إلى الدخول إلى حجرة البوّاب - وقد رأيت كلّ شيء من خصاص الباب - وهناك تصرّف معه، مثلما ينبغي؛ لكنه فعل ذلك بكيفية نبيلة، لأنّ ما من أحد شهد الحادثة

عَداي، وأنا لستِ شيئاً يُحتسَب؛ بمعنى أني لم أقصُص ذلك على أي أحد. وبعد تلك الحادثة، لم يتغيّر أي شيء، في علاقة بيتروفيتش بهياسينتيه. إنّ بيير بيتروفيتش هو لعلمك، إنسان شديد الاعتداد بكبريائه، لذا لم يروِ هذا لأيّ أحد، مثلما لم يغيّر من طبيعة علاقته مع هياسينتيه، إذ لا يزالان إلى الآن يتبادلان التحية، وهما يتصافحان. أنا لا أعترض على أيّ شيء يا فارينكا، ولا أسمح لنفسي بمناقشتك؛ أنا ساقط بشكلٍ كلي، والأنكى هو أني فقدتُ الاحترام لنفسي؛ إلّا أن هذا بالتأكيد ما كُتِب عليّ؛ لقد كان ذلك بحقّ، هو مصيري الذي تقرّر من قبل، وما من أحد يمكنه الهروب من مصيره، وإنك لتعلمين هذا حق العلم.

هذا هو التقرير المفصّل لما جرى لي من معاناة ومصائب، يا فارينكا. أنا مُتعَبٌ بعض الشيء، يا أميمتي، وقد فقدتُ حيويتي وحماستي. لذلك، أؤكد لك، وأنا أشعر حيالك بالتمسّك الكبير، عن حبّي وتقديري، وأبقى يا آنسة فارفارا ألكسييفنا، خادمك المطيع للغاية.

ماكار دييفوشكين.

29 يوليو.

السيد ماكار ألكسييفيتش،

قرأت رسالتيك، فتحسّرت كثيراً! اصغِ إلى ما سأقوله لك، يا صديقي: إما أنك أخفيت عليّ شيئاً ما، فلَم تكتب سوى جزء يتيم من مشاغلك وحسب، وإما... الحق أنّ رسالتيك يا ماكار ألكسييفيتش، لا تزالان تشهدان على وجود نوع من الارتباك... زُرْني، بحق السماء... زرني اليوم؛ اسمع، تعال لتناول العشاء

عندي، من دون أي تكلّف. إنني لست أدري حتى كيف تعيش هناك، ولا كيف تفاهمت مع ربّة البيت. أنت لم تقل لي أي شيء بخصوص هذا الأمر، ويبدو أنك تتعمّد السكوت عن هذه المسألة. إذن، الوداع يا صديقي، ولا تخلف ميعادنا هذا المساء؛ ومن الأحسن أن تأتي لزيارتي وتناول العشاء معنا، نحن الاثنتين، كل يوم. إنّ فيدورا لتُجيد الطبخ كثيراً. الوداع.

المخلصة

فارفارا دوبروسيلوفا.

1 أغسطس.

أميمتي، فارفارا ألكسييفنا،

إنّك يا أميمتي لمرتاحة جداً، فليهبك الله فرصة ردّ الإحسان بالإحسان، لتردّي جميلي. أنا واثق من هذا يا فارينكا، واثق من طيبة قلبك الملائكي الصغير، إنما هذا ليس بمثابة توبيخ موجَّه لك، لا تعاتبيني فحسب بعد هذا، مثلما فعلت في المرات السابقة، حين لُمْتِنِي قائلة بأني صرت مبذراً مِتلافاً، في أواخر أيامي. فقد بدر مني ذلك الخطأ، فما العمل؟ إذا شئت أن تري بشكل كلّي في هذا خطيئة، فليكن لك ما تشائين: إنما يشقّ عليّ يا صديقتي الصغيرة، أن أسمع منك هذا. لا تغضبي مما قلته لك يا أميمتي، فإن لي قلباً عليلاً بشكلٍ كامل. إن الفقراء لَأصحاب نزوات، وقد أرادت الطبيعة أن يكونوا كذلك. لقد انتبهت من قبل إلى هذا، وأدركته. إن الفقير لَمُرتابٌ وَظَنُون، بل إنّ له طريقة خاصة في تأمُّل العالم من حوله، إنه يلاحظ من خلال مؤقِ العين كلّ عابر، ويلقي على جميع ما يحيط به نظرة قلقة، ويصيخ السَّمع لكلّ كلمة، معتقداً أنّ الناس

تتحدث عنه دائماً، وتنتقد مظهره الخارجي الوضيع. ويعلم الكلّ يا فارينكا، بأنّ الإنسان الفقير أقبح من خرقة بالية، وأنه لا يمكن أن يتمتع بأيّ اعتبار، مهما كُتِب عنه ما كتب! أجل، مهما كتب هؤلاء الثرثارون المتحذلقون، فإنّ وضعية الفقير لن تتغير. ولماذا ستبقى إذن، تلك الوضعية على ما هي عليه؟ لأنه يتعين على كلّ ما لذلك الإنسان الفقير - بحسب هؤلاء الكتاب الثرثارين - أن يوضع مكشوفاً لضوء النهار؛ لأنه من المحظور عليه أن يحظى بحياة خاصة، وأن يتمتع بكرامته الشخصية. خذي مثلاً ما قاله إيميليان يومها. فقد صرّح لي بأن اكتتاباً أقيم لفائدته، من طرف جهةٍ ما، أعلنت بأنّ من حقّ كلّ متبرّع في الاكتتاب، أن يقوم بنوع من التفتيش الرسمي، يكون صاحبنا المكتتب له موضوعاً له، مقابل كلّ قطعة نقديّة يحصل عليها من ذلك المتبرّع. لقد ظنّ النّاس أنّهم تبرّعوا له مجاناً ببعض القطع النقديّة الصغيرة، في حين أنّ الأمر ليس كذلك بالمرّة: فهم اشتروا بذلك المال حقّ الفرجة على ذلك الإنسان الفقير. إنّ أعمال البرّ والإحسان صارت تتمّ في أيامنا هذه يا أميمتي، بطريقة عجيبة وغريبة... وربّما كانت تتمّ دائماً، على هذا النحو. فمَن يدري؟ إمّا أنّ النّاس لا تعرف كيف تتصرّف في فعل الخير، أو أنها حاذقة في فعل ذلك بكيفية كبيرة؛ ولا شيء غير تينك الأمرين. ربّما أنت لا تعرفين هذا؛ لذا، حان الوقت إذن، لتعرفي ذلك! إنّ جهل الفقراء كبير حيال أمور أخرى، إلّا أن معرفتهم بهذا الأمر وافية! وقد تسألينني: كيف يحظى الإنسان الفقير بمعرفة كل هذا؟ لماذا يمتلك كلّ هذه الإحاطة الوافية بالأمر؟ لماذا؟ والجواب: لأنّ له تجربة وخبرة! لأنه يعرف بخاصة، أنه حينما يدخل إلى مطعم ما مثلاً، فثمة من يردّد في قرارة نفسه، وهو يجلس

بالقرب منه: «ترى، ماذا سيتناول هذا المستخدم المُعدَم، اليوم؟ أنا سأطلب طبق لحم مقلي، بينما سيتناول هو ربّما، حساء الحنطة السوداء من غير زبد». إنّما، بالله عليك، في ماذا يعنيه أن أتناول حساء الحنطة السوداء، الذي لا زَبَد فيه؟ ثمة بشر يا فارينكا، ثمة نوع من البشر الذي لا يهتم سوى بمثل هذه الأمور. ويذهب الأمر بهؤلاء الكَتَبة الوقحين إلى حشر أنوفهم في ما تفعله أنت، إلى حدّ أنهم يذهبون في وقاحتهم إلى درجة الرغبة في معرفة ما إذا كنتَ تضع قدمك كاملة على أديم الأرض، أم أنك لا تمشي سوى على رؤوس الأصابع؛ إنهم ليسيرون وراء ذلك المستخدم المسكين، ليعرفوا ما إذا كان يشتغل في هذه الإدارة أم تلك، ويمشون خلف ذلك المستشار الرّسمي، ليعرفوا إذا ما كانت جزمتا حذائه نخرتين من الأسفل، تجعل أصابع قدميه مكشوفة للعيان، وما إذا كان يرتدي لباساً مثقوباً من جهة المرفقين؛ ثم يكتبون ذلك كله في أوراقهم، وينشرون تفاهتهم... إنّما بالله عليك: في ماذا ستنفع ملابسي إنْ كانت مثقوبة من جهة المرفقين، أم لم تكن؟ أجل، يشعر الإنسان الفقير - إن سمحت لي يا فارينكا، بهذه المقارنة الفظّة - إزاء ذلك، بمشاعر الخفر والحشمة نفسها التي تحسِّين بها أنت مثلاً، باعتبارك بتولاً. إنك لا ترغبين ولا شك، في التعرّي - وأستسمحك بصدد هذه العبارة الفظّة - أمام جميع النّاس؛ كذلك لا يحبّ الإنسان الفقير أن يحشر أحد ما أنفه في وجاره، ويفحص الكيفية التي يعيش بها: هكذا. فلم أتعرض أنا للإهانة يا فارينكا، من طرف أعدائي الذين نالوا من كرامة رجل شريف، ومن كبريائه؟

اليوم، كنت أبدو وأنا في المكتب، بمظهر دبّ تعرّى من فروته، أو عصفور تجرّد من ريشاته، حتى إني - لو رأيتني على تلك الحال -

لشعرتُ بالخجل من نفسي. لقد كنت مضطرباً، يا فارينكا! أجل، إنّ المرء ليشعر بالتضايق طبعاً، حين يخرج مرفقاه من كمي القميص الذي يرتديه، وحين تتأرجح أزرار ردائه، لمّا يرتخي الخيط الذي يشدّها؛ وقد كان وضعي كذلك! إنّ المرء لَيَخْجَل، بالرغم عنه. عجباً!... لقد أخذ ستيبان كارلوفيتش بالذات في التحدّث إليّ عن بعض الأعمال اليوم؛ أخذ يتحدث ويتحدث، ثم أضاف بعدها، وكأنما فعل ذلك بالصدفة: «إيه، يا أنت، يا ماكار ألكسييفيتش!...»، ولم يكمل فكرته، لكنني فهمتُ كلّ شيء، فاصطبغ وجهي بحمرة الخجل، إلى حدّ أن الجزء الأصلع من رأسي قد احمرّ هو الآخر أيضاً. ذلك في العمق لا شيء، غير أنه على كلّ حال أمر مثير للقلق. إنّ تعجّبه بتلك الصيغة لَيُوحي بأفكار خطيرة. أتراهم علموا عنّي في الشغل، شيئاً ما؟ ليحفظني الله! ترى، كيف سيتمكّنون من الإحاطة بمعلومات عنّي؟ أقرّ بأنّ لي شكوكاً. ثمة شخص ما أشكّ فيه كثيراً. إنّ هؤلاء الأرذال لقادرون على القيام بكل شيء! إنهم ليخذلونك! إنهم ليفضحون حياتك الخاصة كلها، بأقلّ من قرش واحد! ما من شيء يحظى عندهم بالتقديس!

أنا أعرف الآن، مَن لعب هذا المقلب الذي وقعتُ فيه: إنه فعلٌ من أفعال راتازاييف. إنه على معرفة بمَن يشتغل في دائرتنا، ولا شك أنه حكى له الحكاية كاملة، وهو يتحدث إليه، مضيفاً إليها بعض التفاصيل التي اختلقها اختلاقاً؛ أو أنّه ربّما تحدّث في دائرته عنّي، فأخذَت الحكاية تنتشر شيئاً فشيئاً في دائرتنا. ففي بيتنا، يعلم الكلّ بكلّ شيء على الوجه الأكمل، وهم يشيرون نحو نافذتك بأصابعهم؛ وحتى لو لم أراهم، فإنني أعرف أنهم يشيرون نحوها. فقد ذهبتُ بالأمس إليك، لتناول وجبة العشاء معك، فهبّت الرؤوس جميعها

تنظر من خلال النافذة. «إنه اقتران الشيطان بطفلة بريئة»، قالت ربّة البيت معلّقة، ثم استأنفت تقول كلاماً لا يليق في حقّك. إلا أن كلّ هذا لا يساوي أي شيء، إذا ما قورن بمشروع راتازاييف الدنيء: فهو يريد أن يحشرنا، أنا وأنت، في كتابته الأدبية، وأن يهجونا هجاء مقذِعاً؛ فقد صرّح بذلك هو نفسه، وردّدها على مسمعي عدد لا يُستهان به من مستخدمي دائرتنا، ممّن يعدّون من الزمرة الطيّبة. لم أستطع حتى التفكير في شيء من الأشياء بذهنٍ صافٍ ورائق، يا أميمتي، ولا أعرف ماذا عليّ أن أفعل. ليس ثمة ما يُخفى، فقد أثرنا حفيظة الربّ، يا ملاكي الصغير! أكنت تودّين أن تبعثي لي بكتاب أتسلّى بقراءته، يا أميمتي؟ ألا سحقاً لذلك الكتاب! ثم ما هو الكتاب؟ إنه حكاية لمن أعياه النوم! إنّ روايةً ما هي نوع من العبث المكتوب لهدف عبثي، من أجل تزجية الوقت في نشاط خامل: ثقي بي يا أميمتي، ثقي بتجربتي الطويلة. في اجتماعاتهم، تسمعينهم يقصفون أذنيك بالحديث عن أحد الكتاب الذي يُدعى شكسبير: «إن ثمة في الأدب كاتباً واحداً هو شكسبير...»، يقولون. وإذن، فشكسبير أيضاً هو ضربٌ من العبث، كلّ هذا ليس سوى عبث، كل هذا لم يُنشأ إلا للسخرية من الناس، والضحك عليهم!

المخلص

ماكار دييفوشكين.

2 أغسطس.

السيد ماكار ألكسييفيتش،

لا تشغل بالكَ بأيّ شيء، فإنّ كافة الأمور، سيتمّ تدبّرها بعون الله وفضله. لقد وجدت فيدورا شغلاً كثيراً لها ولي كذلك، وقد

انخرطنا سوية في العمل بهمّة ونشاط. ولعلنا سنعالج بذلك كافة الأمور، التي تحتاج إلى معالجة. إنها تعتقد بأنه ليس غريباً على أنّا فيدوروفنا أن تكون وراء كافة هذه المتاعب الأخيرة التي عانيت منها؛ غير أنّ ذلك لم يعُد الآن يعنيني. أنا أشعر اليوم بانشراح وسرور أكبر من المعتاد. لقد عقدتُ العزم على اقتراض بعض المال؛ ألا فليحفظك الله! ستشعر بالمأزق، حين يتعيّن عليك سداد ذلك الدّين. الأحرى أن تكثِّف من اقترابك منّا، وأن تزورنا بوتيرة دائمة، وألّا تشغل بالك بربّة البيت. أما بشأن أعدائك الآخرين، هؤلاء الأشخاص سيئي النية والقصد حيالك، فأنا متأكّدة من أنك إنما تتسبّب لنفسك في متاعب لا أساس لها من الصحة، يا ماكار ألكسييفيتش! انتبه إلى هذا، يا صديقي؛ فقد قلت لك في المرة الأخيرة بأن أسلوبك في الكتابة ينمّ عن اضطراب شديد. هيّا، الوداع، وإلى اللقاء. أنا أنتظر زيارتك بشكل كبير.

المخلصة

ف. د.

3 أغسطس.

ملاكي الصغير، فارفارا ألكسييفنا!

أسارع إلى إحاطتك علماً، يا فرحة حياتي، بأني أتمثَّل في الأفق بعض الآمال، لكن اسمحي لي بالقول، رغم أنك نصحتني بعدم الاقتراض، بأنه من المستحيل عليّ يا ملاكي، أن أستغني عن ذلك، إذ أحوالي سيئة، وأخشى أن تسوء أحوالك أنت كذلك، على حين غرة! فأنت لست قوية، ولذلك أؤكد لك بأن الاقتراض أمر ضروري للغاية. بعد هذا أتابع إذن، الآن.

سأحيطك علماً يا فارفارا ألكسييفنا، بأني أجلس بجوار إيميليان إيفانوفيتش، في المكتب. إنه ليس إيميليان الذي تعرفين. إنّ الشخص الذي أتحدث عنه مثلي، مستشار رسمي، وربّما نحن نمثل معاً - أنا وهو - أقدم المستخدمين في دائرتنا بشكل عام. إنه إنسان طيّب، لا يكترث للآخرين؛ صموتٌ شيئاً ما، ويبدو بمظهر دبّ حقيقيّ. إلا أنّه في المقابل، مستخدم يعرف طبيعة المسؤولية الملقاة عليه، ويمتلك خطّاً إنجليزياً صرفاً، ولا يكتب - إنْ توخينا الحقيقة - بكيفية أدنى منّي. إنه باختصار إنسانٌ جدير بالاحترام! لم يسبق لي أن ارتبطتُ معه بعلاقة حميمة، وإنما كان كلّ منّا يردّد عبارة «صباح الخير»، و«الوداع»، حسب الأصول. وقد يحدث لي في بعض الأحيان، حين أكون في حاجة إلى موسى لأبري بها ريشتي، أن أوجّه إليه الكلام قائلاً: «أعِرْني موساك، يا إيميليان إيفانوفيتش»؛ إنّ ما كان متداولاً بيننا بالاختصار المفيد، لا يدخل سوى ضمن المواضعات المرتبطة بالحياة العملية المشتركة. فإذا به يبادرني اليوم، قائلاً: «لماذا صار بالك شديد الانشغال، يا ماكار ألكسييفيتش؟». ولأنني رأيتُ بأن هذا الإنسان لا يريد لي سوى الخير، فإني سرعان ما كاشفته قائلاً: «السبب في كلّ هذا يا إيميليان، هو كيت كات... إلخ». بالطبع، أنا لم أقل له كل شيء، معاذ الله أن أفعل، ولن أقوى أبداً على فعل ذلك، بالكل! كشفتُ له فقط، بعبارة ذات طبيعة عامة، بأني أجتاز ضائقة مالية حرجة، وأني... إلخ. فأضاف هو للتو: «إنما عليك يا صاحبي أن تقترض»؛ ثم أردف قائلاً، بعد ذلك: «بإمكانك مثلاً، أن تتوجّه إلى بيير بيتروفيتش، فهو يقرض دائنيه بفائدة؛ أنا نفسي اقترضتُ منه بعض المال. إنّ الشروط التي يشترطها مقبولة. فهو لا يطالب بفائدة

مرتفعة». بعد هذه الكلمات، قفز قلبي يا فارينكا. ردَّدت في قرارة نفسي: «لعلّ الله يلهم بيير بيتروفيتش الصواب، فيوافق على منحي قرضاً». وقد قرَّرت من قبل أن أتصرّف في تلك النقود، بكيفية خاصّة: سأسدّد ما بذمّتي لربّة البيت، وسأمدّك ببعض ما يعينك، وسأُجري بعض التحسينات على هندامي، لأنّ من العار عليّ الاستمرار في ارتداء مثل هذه الأردية التي تلتصق اليوم بجلدي. كنت وأنا أجلس في مقعدي بالمكتب، أتحرّق شوقاً إلى اللحظة التي أخرج فيها، وكأني كنت أجلس فوق مسامير حادّة؛ ناهيك عن هؤلاء السّاخرين - سامحهم الله! - الذين كانوا يضحكون مني، بمناسبة أو بأخرى. أضيفي إلى ذلك، أن صاحب المعالي ما انفك يمرّ من أمام مكاتبنا، بين الحين والآخر؛ فماذا كان سيحدث لي، لو أنه مرّ - لا قدّر الله - من أمام مكتبي، وألقى نظرة على هيئتي، وانتبه إلى أني أبدو بكيفية غير لائقة؟! إن الأمر المهم بالنسبة إلى صاحب المعالي، هو النظافة وحسن الهندام. هو ربّما لن ينبس بشيء، إلا أنني كنت سأموت من فرط الخجل. هذا هو ما قد يقع! لذلك، استجمعتُ قوتي كاملة، وكبتُّ خجلي، ثم توجّهت صوب بيير بيتروفيتش. كنت مفعماً بالأمل، وكان الانتظار يتسبب لي في الآن ذاته، في آلام نفسية ممضَّة. ورغم ذلك، انتهت الأمور بشكل غير سار، يا فارينكا! كان الرجل مشغولاً بالحديث مع فيدوزييه إيفانوفيتش. اقتربت منه، وأنا أجانبه، ثم شَدَدْته من كمّه، وأنا أقول: «بيير بيتروفيتش، إيه، بيير بيتروفيتش!». التفتَ إليّ، فقلت له إني في أمسّ الحاجة إلى المال، وأريد منك ثلاثين روبلاً. . . إلخ. لم يفهم أي شيء في البداية، لكني بعدما شرحتُ له كل شيء، أخذ يضحك، غير أنه لم ينبس بأية كلمة. كررتُ على مسمعه حاجتي إلى

مساعدته، فابتدرني حينها بالسؤال: «ألديك ما تضعه رهناً؟!». بعد ذلك، انكبّ على ما كان منشغلاً به، وأخذ يكتب، دون أن يرفع عينيه نحوي، بالكل. «لا، يا بيير بيتروفيتش»، أجبته، وأنا مضطرب. «ليس لديّ ما أضعه رهناً، لكن ما أن أتوصّل بالرّاتب الشهري، حتى أسدِّد لك ما عليّ. يمكنك الاعتماد عليّ، في هذا الأمر. سأجعل تسديد ما عليّ، من أوجب الواجبات المستعجلة، التي ينبغي الإسراع في إنجازها». وفي تلك الأثناء، ناداه أحدهم، فبقيت في انتظار عودته. وما أن عاد، حتى أخذ يبري ريشته، وبدا غير مكترث لأمري. استأنفت التودّد إليه، قائلاً: «ألا يمكنك يا بيير بيتروفيتش أن تقرضني بعض المال؟». بقي صامتاً، وقد تظاهر بعدم الاستماع. لم أقرِّر بعد الانصراف، عائداً إلى مكتبي. قلت في نفسي بأنه يتعين عليّ أن أحاول معه محاولة أخيرة، فجررته من كمّ سترته. لم يفتح شفتيه بأيّ شيء، وإنما ظلّ يبري ريشته، ثم انهمك في الكتابة. بعدها، انصرفتُ. من الممكن أن يكون هؤلاء يا أميمتي، أناساً محترمين، لكنهم مع ذلك متكبّرون بكيفية صارخة! لذلك، ما الذي يمكننا أن نفعله بهم، يا فارينكا؟! هذا هو ما أردتُ أن أصل إليه، وأنا أكتب إليك كل هذا. لقد أخذ إيميليان إيفانوفيتش يضحك هو الآخر، غير أنه خفَّف عني ببعض الكلمات المفعمة بالصدق والحرارة. إن إيميليان إيفانوفيتش رجل شهم. لقد وعدني يا فارينكا، بأن يبعثني إلى شخص آخر يسكن في شارع فيبورغ، وهو شخص يقرض الناس أيضاً ببعض الفوائد؛ إنه موظف من الدرجة الرابعة عشرة. قال لي إيميليان إنّ هذا الرجل سيقرضني، لا محالة. غداً سأذهب إليه؛ أليس كذلك، يا ملاكي الصغير؟! ما الذي ترينه بهذا الخصوص؟ إنّ المرء لَيَعيش مأساة حقيقية، حين لا يستطيع

توفير بعض المال لنفسه! إنّ صاحبة البيت على وشك أن تطردني؛ كما أنها ترفض بالإضافة إلى ذلك، رفضاً باتاً، أن تقدّم لي طعام العشاء. ثم إنّ حذائي يا أميمتي، لَفي حالة رديئة جداً، أضيفي إلى هذا ردائي الذي من غير أزرار، إلى جانب حاجتي الماسة إلى الكثير من الأشياء الأخرى، التي لا أملكها! تصوري يا فارينكا، ما الذي قد يحدث، لو أنّ أحد رؤسائي لاحظ رثاثة هندامي وضعف نظافتي؟! حينها، ستنجم عن ذلك مصيبة ما، مصيبة حقيقية!

ماكار دييفوشكين.

4 أغسطس.

عزيزي ماكار ألكسييفيتش،

أناشدك الله بأن تقترض بعض المال، يا ماكار ألكسييفيتش، في أقرب فرصة ممكنة، وأن تعتني بنفسك وهندامك. أمّا أنا، فلن ألتمس منك أن تمدّني بأية مساعدة، وسط كافة هذه الملمّات التي تعاني منها الآن؛ إنما لو أنك عرفت فقط، وضعيتي! يصعب علينا بشكلٍ مطلق البقاء في السكن الحالي. لقد وقعت لي بعض الوقائع الرهيبة، التي ما زلت بفعلها أعاني إلى الآن، من حالة اضطراب نفسي حادة! تصوّر يا صديقي أن رجلاً مسناً، أشبه ما يكون بعجوز طاعن في السن، توشحه بعض الأوسمة، تجرأ على زيارتنا صباح هذا اليوم. شعرت عند رؤيته بدهشة كبيرة، لأني لم أكن أعرف ماذا يريد. كانت فيدورا خارجة لقضاء بعض الحاجيات، ومكثتُ أنا في الغرفة. بعد أن سألني عن الكيفية التي أعيش بها، وما أفعله لكسب قوت يومي، قال مضيفاً دون أن ينتظر مني جوابا، بأنه عمّ ذلك الضابط؛ وبأنه خاصم ابن أخيه لسوء تصرّفه، ولأنه حطّ من قيمتنا،

وأساء إلى سمعتنا في البيت كله. وقد نعت ابن أخيه بالصبي الطائش والعابث، وقال إنه مستعد ليجعلني تحت كفالته ووصايته. وطلب مني ألّا أبالي بما يقوله هؤلاء الشباب. وأضاف بأنه سيهتم لحالي، وكأنه هو والدي، وبأنه سيعطف عليّ، ويشعر نحوي بمشاعر أبوية؛ وبأنه مستعدّ في كل الأحوال، لمساعدتي على مواجهة جميع الأمور. احمرّت وجنتي من فرط الخجل، فلم أدرِ ما الذي عليَّ أن أتصوّره في ذهني، بعد كلّ ما سمعت، غير أنني بادرتُ مسرعة إلى شكره. أمسكَ بيدي على الرغم مني، وربّت على خدي، وقال إني جميلة جداً، وبأن نقرة وجنتي تعجبه كثيراً (الله وحده أعلم بما قاله بعدها!). وفي الأخير، أراد أن يقبّلني، وهو يقول بأنه صار منذ وقت شيخاً هرماً (ولكم كان شديد الدمامة!). حينها، دخلت فيدورا. أربَكَ دخولها الزائر قليلاً، لكنه استأنف فيما بعد الكلام، وأضاف بأنه يشعر إزائي بالتقدير، لِما أتصفُ به من بساطة واستقامة في السلوك، وأنه لا يرغب في أن أتحاشاه بالمرة. بعد ذلك، انزوى جانباً بفيدورا، وأراد - تحت ذريعة غريبة - أن يعطيها بعض المال. بالطبع، لم تقبل منه فيدورا ذلك. وفي الأخير، رأى أنّ من واجبه الانصراف، فاغتنم الفرصة ليجدِّد التأكيد على كلامه السابق، مضيفاً أنه سيأتي لرؤيتي مرة أخرى، وسيجيئني بقرطين (بدا عليه الكثير من الاضطراب، هو بالذات). واقترح عليَّ أن أغيّر سكني، متحدثاً عن شقة جميلة كان قد رآها، مضيفاً أنها لن تكلّف كثيراً. ثم قال بعد ذلك، إنه أحبّني كثيراً لأني فتاة عفيفة وشريفة وعاقلة، ونصحني بتجنّب الشباب الفاسد. وفي الأخير قال إنه على معرفة بأنّا فيدوروفنا، وبأنها كلّفته بأن يقول لنا أنها ستزورني هي بالذات. حينها، فهمتُ كل شيء. لم أكن أعرف ما الذي حدث بداخلي.

كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي، التي أجد فيها نفسي ضمن وضعية مماثلة. لم أستطع ضبط نفسي، فانهلتُ عليه بالعتاب المهين والمذلّ. ثم انضمَّت فيدورا إليّ، وكادت تقذف به خارج الغرفة. خلصنا معاً أنا وهي، إلى أنّ كل هذا من تدبير أنّا فيدوروفنا؛ إذ مَن أحاطه علماً بحالنا إذن، إنْ لم تكن هي؟ لذا، ألتجئ اليوم إليك، ملتمسة مساعدتك يا ماكار ألكسييفيتش. أناشدك الله ألّا تتركني أتخبّط في مثل هذا الوضع! أقرضني بعض المال. ابحث عن بعض المال بأي طريقة كانت رجاء، فإننا لا نستطيع الآن الانتقال من هذا السكن دونه؛ كما يستحيل علينا أن نبقى هنا لوقت طويل؛ وذلك هو رأي فيدورا نفسها. نحن بحاجة على الأقل، إلى خمسة وعشرين روبلاً. سوف أعيد لك هذا المبلغ، لأني سأكسبه بجهدي وعملي. وإذا طلب منك المقرض ردّ المال بفائدة كبرى، فلا تبالي بذلك، لأنّ المهم هو أن تقبل بجميع الشروط المقترحة، للحصول على المال. سأسدِّد لك كل شيء بالتمام؛ إنما أناشدك الله الآن، ألّا تتركني بلا نجدة. يعزّ عليّ كثيراً أن أضيف متاعبي إلى متاعبك الكثيرة؛ لكن ليس لي من أملٍ آخر غيرك! الآن، أستودعك الله يا ماكار ألكسييفيتش، آملة أن تفكّر في وضعي، مع دعائي بأن يكلِّل الله خطواتك بالنجاح والتوفيق!

ف. د.

4 أغسطس.

عزيزتي فارفارا ألكسييفنا!

كلّ تلك المصائب غير المتوقَّعة تخلخلني، أنا أيضاً! كل تلك الآلام الرهيبة تحطّم قلبي، أنا كذلك! إنّك لست وحدك يا ملاكي

الصغير، من يريد هؤلاء المتطفلون والشيوخ غريبو الأطوار والكثر، أن يزجّوا به في مدرج الآلام والأحزان، وإنّما يرغب هؤلاء الطفيليون أيضاً، في الدّفع بي أنا كذلك إلى الخسارة والفَقْد والهلاك. وإنهم سينجحون حقاً في الدفع بي إلى الهلاك المبين؛ أقسم لك أنهم سيؤدون بي إلى الهلاك المبين! فأنا الآن مثلاً، عوض أن أندفع إلى مساعدتك، أحتضر جزءاً فجزءاً! وإذا لم أصل إلى مساعدتك، فإنّ ذلك سيكون بالتأكيد هو موتي، يا فارينكا؛ أجل، سيكون ذلك هو موتي، وإني لأقرّ بهذا على نحوٍ مؤكّد. فإن أنا ساعدتك، ابتعدت أنت حينها عنّي، ابتعد العصفور الصغير حينها عن العش، الذي يهدِّده اليوم، أي ذلك الحيوان الذي يترصّد فريسته عن سَبْق الإصرار. هذا هو ما يؤجِّج عذابي بقوة، يا أميمتي. ألا كم أنت قاسية كذلك، يا فارينكا! ترى، كيف صرتِ هكذا؟ تتعرضين للعذاب والإساءة والمهانة، وتكابدين كل ذلك يا عصفورتي الصغيرة، وفوق هذا تلومين نفسك على الآلام التي تتوهمين أنك تسبِّبينها لي. تعدينني بتسديد ما سيترتَّب عليك اتجاهي من ديون، وهو ما يعني أنك ستجازفين بحياتك في العمل المضني، أنت العليلة دوماً، حتى تجعليني أتمكّن من تسديد أقساط الدين، في المواعيد المضبوطة. لكن، فكِّري قليلاً يا فارينكا، في هذا الذي تقولينه! لماذا عليك إذن تعاطي الخياطة، لماذا إذن عليك أن تعملي، وأن ترهقي نفسك بالمشاغل والمشاكل، وأن تهدّي صحّتك، وتسببي لعينيك الجميلتين بالإرهاق؟ آه، يا فارينكا، يا فارينكا! أنا مثلما ترَيْن، لا أصلح لأي شيء؛ والمصيبة هي أن أدرك أنا بالذات، بأني لا أصلح لأيّ شيء! إنما سوف أحاول أن أكون مفيداً في شيء ما. سأتغلب على كل شيء، وسأحصل أنا نفسي على عمل إضافي خارج أوقات عملي

الرسمي، وسأضع ريشتي رهن أهل الأدب لاستنساخ أوراقهم. سأذهب للبحث عنهم، سأذهب بنفسي لأطلب منهم شغلاً، لأنهم يبحثون يا أميمتي عن ناسخين جيّدين؛ أنا على علم بأنهم يبحثون عن هؤلاء. لكن، لن أسمح لنفسي بمجرد التألم لحالك، وأنت تقتلين نفسك، دون فعل أي شيء لفائدتك. لن أتركك تنفذين ذلك المشروع المميت للغاية، الذي قررتِ الدخول فيه. كوني واثقة من أنني سأقترض مالاً، يا ملاكي الصغير. سأموت إن لم أقترض. لقد كتبت تقولين لي في نوع من التحضيض: لا تخش من تسديد الدين بفائدة كبرى. أنا لن أخشى شيئاً، يا أميمتي؛ لن أخشى شيئاً. لقد عقدت العزم يا أميمتي، على اقتراض أربعين روبلاً ورقياً. أليس هذا كثيراً، يا فارينكا؟ ماذا ترين؟ هل يمكن لأحدهم أن يقرضني أربعين روبلاً، دون ضمانة أرهنها؟ أقصد: أتعتقدين بأني قادر على الإيحاء بالثقة اللازمة للدائن، من خلال النظرة الأولى، فيطمئن إلى أنني سأوفي بدينه؟ هل من الممكن أن يحكم الدائن لفائدتي، منذ الوهلة الأولى وحسب، فيقرضني ذلك المبلغ، بالاعتماد على مظهري الخارجي فقط؟ تذكّري تفاصيل وجهي وهيئتي، يا ملاكي الصغير، وردّي علي: هل أملك وجهاً من شأنه أن يوحي للمرابين، بالطمأنينة والأمان؟ ما رأيك في هذه المسألة؟ لعلمك: هؤلاء عادة ما تصيبهم الرهبة، وتنتابهم خشية مرضية. نعم: خشية مرضية! ستصيبين من مبلغ أربعين روبلاً، خمسة وعشرين يا فارينكا؛ وسأعطي أنا روبلين نقديين لربّة البيت، وسأنفق البقية في ما يتصل بشراء بعض الحاجيات الخاصة بشخصي. قد يكون من اللائق مثلما ترين، أن أعطي لربّة البيت مبلغاً أكبر من ذلك، بل سيكون ذلك بالأحرى، أمراً ضرورياً؛ لكن، تصوّري وضعي وحالي يا أميمتي، ثم ضعي في حسبانك جميع ما

أحتاج إليه، وسترين حينها أنه من المستحيل عليّ بشكلٍ مطلق، أن أعطي ربّة البيت أكثر من ذلك. وعليه، ليس ثمة ما ستناقشين فيه بشأن هذه المسألة، بل ليس عليك حتى التفكير في ذلك. سأنفق روبلاً فضياً في شراء حذاء؛ ولستُ أعرف حتى ما إذا كان سيتعيّن عليّ أن أذهب غداً، بحذائي القديم إلى المكتب، أو لا. كما يلزمني كذلك، شراء ربطة عنق جديدة، لأنّ هذه التي أستعملها بدأت حوافها في التصلب حول عنقي، منذ ما يقرب من عام إلى الآن. إلا أني لن أهتم لشراء ثوب جديد، بما أنك قد وعدتني بأن تفصّلي على مقاسي، ثوب وزرتك القديمة، وبأن لا تجعلي لي منه فقط ربطة عنق، وإنما صداراً. وهكذا، ستكون مسألة الحذاء وربطة العنق قد سويت. والآن، ثمة مسألة أخرى يا صديقتي الصغيرة، هي مسألة الأزرار! لا شك أنك ستوافقين على أني لا أستطيع يا صديقتي اللطيفة والصغيرة، أن أستغني عن الأزرار؛ كما أن جنبات كسوتي الرسمية قد تمزّقت من عدة جوانب! إني لأرتعد من الخوف، كلما فكرت في أنّ معاليه قد يلاحظ مثل هذه الفوضى، ويعلق قائلاً: . . . إنما ما جدوى ما سيقوله؟! لن أصغي حتى لكلامه، يا أميمتي، لأني حينها سأموت، سأموت على الفور في مكاني، سأموت من شدّة الخجل، الذي سيستبدّ بي على الفور. إن فكرة كونه فقط، سيعاتبني على هندامي، من شأنها أن تميتني! أواه، يا أميمتي! حينما ألبي حاجتي من كل تلك الضروريات الملحّة والعاجلة، سيتبقى في ذمتي ثلاثة روبلات، هي ما سأنفق في أمر الطعام وشراء نصف رطل من التبغ كذلك، لأنني لا أستطيع أن أستغني عن التبغ يا ملاكي الصغير، وها قد مضى عليّ اليوم، تسعة أيام لم أدخن فيها ولو مقدار غليون واحد. من الممكن جداً أن أقتني هذه الأشياء، دون أن أخبرك

بذلك، إلّا أنّ الإحساس بعدم المكاشفة سيخلق عندي بعض المتاعب النفسية؛ فحين أتصوّر أنك تعيشين هناك أفظع أشكال الحرمان، يا صديقتي سيئة الحظ، بينما أنا هنا أستمتع بتدخين التبغ دون أن أكاشفكَ بذلك، أشعر بالآلام النفسية الممضَّة؛ لذلك، أبادِر إلى إبلاغك بما قرّت عليه نيتي الآن، من عزم على شراء التبغ، كي أوفر على نفسي كافة أشكال التبكيت وتأنيب الضمير. أعترف لك دون لفّ ولا دوران، يا فارينكا، بأنّ وضعيتي الآن صعبة وقاسية إلى أقصى حدّ، بمعنى أنّ ما أعيشه اليوم من أزمات ومِحَن، لم يسبق لي من قبل أبداً، أن عشتُ مثله. إن ربّة البيت تزدريني، وما من أحد يحترمني، وفقري مدقع جدّاً، بالإضافة إلى سلسلة من الديون التي تراكمت عليّ. ففي العمل، حيث ظلّ يحتقرني زملائي، ويضايقونني، صار وضعي أسوأ عمّا كان عليه بكثير! إنني أخفي وضعيتي عن الجميع بكيفية مُحكَمة جداً، وأختفي عن الأنظار بالدخول إلى المكتب بشكلٍ سرّي، وبكيفية تتجنب الجميع. ولا أكاد أتجرأ بالبوح بما بلغته حالتي لأيٍّ كان، غيرك أنت وحسب... وإذا ما رفض صاحبنا أن يقرضني؟... إنما، لا، يا فارينكا. الأجدر بي ألّا أفكر بمثل هذه الطريقة، حتى لا أتسبب لنفسي بفعل ذلك، في الأسى والحزن المسبَقَيْن. إنّ ما أكتبه لك، كتبته بتدبيرٍ وتقدير مسبقين، حتى لا تسقطي أنتِ نفسك، فريسة مثل هذه الأفكار، وحتى تتجنبي الوساوس وسوء الظن. آه، يا ربي! ماذا ستصبحين حينها؟ صحيح أنك في هذه الحالة لن تغيري السكن، وسأبقى أنا جارك؛ لكن، لا. لن أبقى كذلك، لأنني لن آتي إلى هنا، وإنما سأذهب إلى أي مكان أستطيع الذهاب إليه، لأختبئ فيه؛ سأختفي. كان عليّ أن أحلق لحيتي، عوض تدبيج رسالة طويلة جداً مثل هذه

إليك. فحين يكون المرء حليق اللحية، يشعر بأنه على ما يرام بشكل أكبر؛ ثم إنّ من المستحسن دائماً، أن يعتني المرء بمظهره الخارجي. إذن، فليُعِني الله، وليوفِّق مسعاي إلى النجاح! سأصلي لله صلاة الاستخارة، ثم أتوكّل عليه!

م. دييفوشكين.

5 أغسطس.

عزيزي الغالي جدّاً، ماكار ألكسييفيتش!

لو أنك على الأقل، لم تيأس! يكفي أن الأمر فيه من الحزن ما يكفي. أبعث إليك بثلاثين كوبيكاً فضيّة؛ وذلك هو كل ما وَسِعَني أن أبعث به إليك. اشترِ بها ما أنتَ بحاجة ماسة إليه، ما يسدّ رمقك بكيفية من الكيفيات؛ فنحن بالذات لم يتبقَّ لنا تقريباً أي شيء، ولستُ أدري ما الذي سنفعله غداً. إن الأمر لَمُحزِن، يا ماكار ألكسييفيتش! فلا تَزِدْ من عذاب نفسك؛ فقد حاولت ولم تفلح. فما العمل، إذن؟ تقول فيدورا إنّ الأمر لم يصبح بعد كارثة، وأننا نستطيع البقاء هنا مؤقتاً، وبأننا حتى إنْ انتقلنا من هذا المحل، فلن نفلح البتة في محوِ أثرنا؛ إذ يستطيع هؤلاء - إنْ هم أرادوا - أن يعثروا علينا، ولَسَوف يعرفون جيّداً كيف وأين سيجدوننا، في أيّ محلّ استقررنا فيه. أجل، ذلك صحيح، إلّا أني مع ذلك لم أعُد أجد في نفسي، أية جاذبية تجرّني نحو هذه الشقة، للبقاء هنا. ولو لم يكن الأمر شديد الحزن، لكتبتُ لك شيئاً ما.

يا لغرابة طبعك، يا ماكار ألكسييفيتش! أنت تأخذ الأمور مأخذاً مسرفاً في الحزن؛ كما أنك ستبقى أيضاً، إنساناً شديد الحزن على الدوام. إنني أقرأ بتركيز شديد كافة رسائلك، فأجد أنك تعذِّب

نفسك من أجلي؛ وأرى في كل واحدة من تلك الرسائل، بأنك تهتم لأجلي بدرجة لا تهتم فيها أنت بالذات لنفسك. لن تكون هناك من دون شك، سوى طريقة واحدة ليقول الناس بأنّ لك قلباً طيباً؛ لكني أنا سأقول بأنك تفرط يا صاحبي، في طيبة القلب تلك. أنا أنصحك يا ماكار ألكسييفيتش، نصيحة الصديقة لصديقها. كما أني ممتنة لك كثيراً، لجميع ما قمتَ به من أجلي؛ وإني لأحسّ جيداً بكلّ ما أقوله؛ فاحكُم هكذا بنفسك، على صدق أحاسيسي ومشاعري، إذ ما زلت أرى إلى الآن، بعد كافة الأحزان والمآسي، التي تسببتُ لك فيها بشكل غير إرادي، بأنك لا تحيا إلا بحياتي: بأفراحي وأحزاني، يا سلوة قلبي! إنّ العناية الشديدة بالآخر، وتجشُّم مثل هذه المتاعب التي هي بعيدة عن الذات، لَيُعَدّ بحق وحقيقة ذريعة، ليجعل المرء نفسه شقياً وتعيساً للغاية. فحين جئت عندي اليوم، بعد عودتك من المكتب، فزعتُ لرؤيتك. كنت شاحب الوجه بدرجة كبيرة، وفي غاية التروّع واليأس والإحباط! كان وجهك بلا معالم معروفة - وكل هذا لأنك خشيتَ من أن تحكي لي حكاية فشلك؛ لأنك خفتَ من أن تتسبّب لي في عذاب وإرهاق نفسيين؛ لكنك لمّا رأيت بأن ملامح وجهي تنمّ بالأحرى عن الفرح، استعدتَ هدوءك كله، يا ماكار ألكسييفيتش! لا تتأسف، ولا تيأس، وإنما كن عاقلاً، فإني أرجوك وأتوسل إليك. هيّا، سترى بأنّ كل شيء سيسير على ما يرام، وبأن الأمور ستدبّر بكيفية حسنة لصالحنا؛ لكن وجودك سيصبح، في حالة ما إذا ظلّت حياتك دوماً مجرد مسار أليم ومفعم بأحزان الآخرين، مجرد ثقل ثقيل، ستظل تئنّ تحت وطأته. الوداع، الوداع، يا صديقي؛ وأرجوك ألّا تشغل بالك كثيراً من أجلي!

ف. د.

5 أغسطس.

عزيزتي الغالية فارينكا!

طيب يا ملاكي الصغير، هذا أفضل! أنت ترين بأنّ الأمر لم يصبح بعد إلى الآن كارثة، حتى إنْ لم أجد مَن يقرضني. الأمر إذن أفضل كما هو؛ وأنا بذلك هادئ، أنا سعيد لما يتّصل بنا، بل مبتهج حتى لكونك لم تفارقيني، أنا هذا الكائن الهرم، ولكونك ستبقين كذلك في الشقّة القريبة. وإذا كان من الضروري أن أبوح لكِ بكل شيء، فاسمحي لي بالقول بأن قلبي قد غمرته الفرحة، حين لاحظت أنك تتحدثين عني بكيفية جيدة في رسالتك القصيرة، وبأنك أنصفت عواطفي إنصافاً تاماً. أنا لا أقول هذا الآن بدافع الزهوّ والافتخار، وإنما لأني متيقّن من مقدار الحب، الذي تكنينه لشخصي، حين ينشغل بالك بتلك الكيفية، عن حالة قلبي. هذا أفضل؛ فلِمَ الحديث الآن عن قلبي؟ لنترك القلب جانباً، إذن. غير أنك تأمرينني يا أميمتي، باجتناب الوجل والتهرُّب من المواجهة. أجل يا ملاكي الصغير، أنا أردّد في قرارة نفسي كذلك، بأنّ على المرء ألّا يكون وجلاً ومتهرباً من المواجهة؛ لكن، احكُمي في هذه الحالة أنت بنفسك، يا أميمتي، وأجيبيني: ماذا سأنتعل غداً، وقت الذهاب إلى العمل؟ هذا هو الواقع المرّ يا أميمتي؛ وإن بإمكان فكرة مثل هذه، أن تدمر الإنسان بكيفية شاملة؛ خاصة أنني لا أتعذب من أجلي أنا وحسب، يا عزيزتي، لأن الأمر عندي - شخصياً - سيان؛ إذ حينما تستدعني الضرورة كي أخرج دون معطف، ولا حتى دون جزمة، في عزّ الصقيع المجمّد، فإني سأخرج، وسأتحمّل كل هذا تحملاً كبيراً، ولن أكترث للأمر، ما دمت إنساناً عادياً ومن مستوى عادي؛ لكن، ما الذي سيقوله

الناس؟ أعدائي، وكافة أولئك القوّالين ذوي الألسنة الطويلة، ماذا سيقولون حين يرونني دون معطف، في الشارع؟ نحن لا نرتدي المعاطف لأنفسنا، ولا ننتعل الجزمات لذواتنا وحسب، وإنما من أجل الناس! وما دمت محشوراً ضمن هذه الزمرة يا ملاكي الصغير، يا أميمتي، فإنّ حاجتي إلى المعطف والجزمة، هي لغاية صون الشرف، والحفاظ على السمعة؛ ما دام أن حذاء منخوراً ومثقوباً ومعطفاً مهلهلاً وعتيقاً، هو الكساد المشترك لهذا الطرف وذاك أيضاً! صدّقي كلامي هذا، يا أميمتي، فهو خلاصة تجربتي الطويلة في الحياة؛ فأنا شيخٌ هرم، خبر الناس والعالم. لذلك، عليك أن تصدقيني أنا، عوض تصديق هؤلاء الأرذال القذرين.

لكني إلى حدّ الآن، لم أحكِ لك بالتفصيل اللازم يا أميمتي، الاكتشاف الذي اكتشفته اليوم. لقد كابدتُ خلال صبيحة واحدة - من المعاناة المعنوية - مقدار ما يكابده الآخرون، على امتداد سنة كاملة. فها كيف حدثت الأشياء: انطلقت في بداية الأمر باكراً، كي أكون متأكداً من وجود صاحبنا في البيت، ولكي أصل إلى المكتب بعد ذلك أيضاً، في الوقت المناسب. كانت السماء تمطر بكيفية كثيفة، وكان الجو اليوم فظيعاً للغاية! تدثرت بمعطفي الذي أسميه «عرسوبي» الصغير، ومضيت أسعى في الطريق، دون أن أتوقف عن ترديد هذا الدعاء في دخيلة نفسي: «ربّاه، اغفر لي ذنوبي، واستجب لدعواتي!». وحين مضيتُ من أمام الكنيسة، رسمتُ علامة الصليب، وفكرتُ ومشاعر الندم تملأ كياني كله، بأن من غير اللائق أن يدخل المرء في عملية مقايضة مع الربّ. مضيت منكفئاً على نفسي، غير راغب في النظر إلى أي شيء، بل حتى الطريق الذي كنت أمشي عليه، لم أكن أنتبه إليه. كانت الشوارع مقفرة، والمارة القلائل الذين

التقيت بهم، كانوا منشغلين جميعاً بهمومهم، مكترثين فقط لما خرجوا من أجله من شؤون؛ وما كان ذلك بالأمر المدهش أبداً، إذ مَن ذا الذي سيخرج في نزهة، في مثل تلك الساعة المبكرة من الصباح، وخاصة في مثل ذلك الجو؟! تقاطعت مع فريق من العمال، وكانت ملابس أفراده شديدة القذارة. وحين تقاطعت مع هؤلاء الأفظاظ الغلاظ، دفعوني بقوة! شعرت جراء ذلك بالإهانة، فتملَّكني الانزعاج، ثم سيطر عليَّ ذلك الإحساس بالكراهية لكلّ شيء، حتى إني لم أعُد بعد ذلك أبداً، أرغب في التفكير في مسألة المال. وليحصُل ما ينبغي أن يحصل! وحين اقتربتُ من جسر «الانبعاث»، فلتت إحدى نعليْ حذائي، حتى إني لم أعُد أعرف أنا نفسي، بماذا كنت أدوس الأرض، وأنا أمشي. وفي خضم هذه الوقائع، التقيتُ فجأة بأحد الكَتَبَة الذين يعملون في الإدارة معي، وهو المدعو إرمولاييف. توقف، واستقام في وقفته مثل جندي يجثم ساكناً بلا حركة أمام رئيسه، وظلّ يتتبعني بعينيه، كمن يرجو أن ينال من الغير بقشيشاً. «حقاً، هذا هو الوقت المناسب لمطالبتي بذلك، يا صاح!»، قلت في نفسي. كنت متعباً للغاية، فتوقفت للحظة عن المشي، ولما استرحتُ قليلاً، استأنفتُ السير. كنت ألتفت عنوة من حولي، باحثاً عمّا من شأنه أن يشدّ انتباهي؛ لقد كنتُ في حاجة إلى شيء أستأنس به، إلى شيء يرفع معنوياتي قليلاً؛ لكنني لم أقوَ على تثبيت فكري على شيء يُذكر، والأدهى أني اتسختُ اتساخاً شديداً بالوحل، إلى أن خجلتُ من نفسي أنا بالذات. وفي النهاية، أبصرتُ من بعيد، بيتاً مصنوعاً من الخشب صُبِغَ بالأصفر، له نافذة صغيرة تشبه مطلاً، يقع بين طابقين. «هذا هو البيت، إذن. لا يمكنه أن يكون إلّا بيت ماركوف تحديداً، كما وصفه لي إيميليان»، قلت في

نفسي. (وماركوف هذا يا أميمتي، هو اسم المُرابي الذي يقرض الناس بالفائدة).

لم أتحكّم في زمام أمري، فاندفعتُ رغماً عني نحو رجل شرطة، كان مرابضاً هناك لأسأله، رغم أني لم أكن أشكّ في الأمر، ولو بمقدار ضئيل جداً. «لمن هذا البيت، يا سيدي؟»، سألت. «إنه بيت ماركوف»، دمدم الشرطي بين أسنانه بطريقة فيها غلظة، وكأنه كان غاضباً مني؛ وكان رجلاً فظاً. يا لفظاظة جميع رجال الشرطة! ثم في ماذا سينفعني بعد كلّ هذا، أن يكون هؤلاء كذلك؟! إنما كان هذا انطباعاً غير جميل، خلَّفه في نفسي ذلك الرجل؛ أي باختصار: تفصيلة من بين التفاصيل التي من شأنها أن تُضاف إلى أخريات؛ ليستنتج المرء من كل ذلك شيئاً يطابق وضعه! وكنت بقدرِ ما أقترب من البيت، بقدرِ ما أشعر بالتضايق تتصاعد حدّته في دخيلتي. «لا، رددتُ في قرارة نفسي. لن يقرضك أي شيء، لن يقرضك بالمرة! أنت كائن نكرة بالنسبة إليه، وقضيتك صعبة ومعقدة، ومظهرك لا يوحي بالثقة... هيّا، من غير يأس، أردفت قائلاً في نفسي... وليقرِّر الربّ ما يشاء... فأنا لا أرغب على الأقل، في تفويت الفرصة على نفسي للندم في ما بعد... ثم إني لن أتعرض للافتراس من أيٍّ كان!». وعلى إثر ذلك، فتحتُ الباب بكيفية هادئة، لكن مصيبة أخرى واجهتني في الحين: أخذَ كلب بشع وأخرق في النباح عليّ، متسبباً بذلك في لغط وضوضاء كبيرين! إنّ مثل هذه المصائب يا أميمتي، هذه الوقائع الصغيرة والبسيطة، هي ما يُثير حفيظة المرء دائماً، ويتسبب في خجله، وهي التي تساهم في إبعاد كلّ تصميم وعزم عنه، ممّا يكون قد تسلَّح به من قبل. دخلتُ البيت وأنا أقرب إلى الموت مني إلى الحياة، لتفاجئني مرة أخرى مفاجأة جديدة غير

سارّة: لم أكُن قد لاحظتُ وأنا وسط الظلام: ما كان يجثم أمامي فوق العتبة؛ لذلك، ما أنْ تقدّمت خطوة واحدة إلى الأمام، حتى تعثرت بامرأة كانت منهمكة في إفراغ حمولة سطل حليب في إبريق، فانهرق الحليب كله فوق الأرض. أخذَت المرأة الخرقاء تصرخ، وتقول: «إلى أين تتجه أيها الشحاذ؟ وماذا تبغي؟». ثم أخذَتْ تنوح عمّا حدث. ألاحظ في معرض هذا السياق يا أميمتي، بأنّ الشيء ذاته يحدث لي دائماً، في كلّ مرة أوجَد فيها ضمن الحيثيات والظروف ذاتها؛ ينبغي أن أؤمن بأنّ ذلك هو قدري؛ إني لأتسبَّب بشكلٍ دائم ومتكرِّر في بعض المصائب!

على إثر تلك الضجة، أطلَّت عجوز شمطاء فنلندية. وعلى الفور، سألتها: «هل ماركوف يُقيم، هنا؟». «لا»، أجابت في البدء، ثم أردفَت قائلة بعد أن دقّقت نظراتها في: «ماذا تريد منه؟». أفهَمتها أني جئتُ لغرضٍ خاص. نادَت العجوز على ابنتها، فجاءت الفتاة وهي حافية القدمين. «اذهبي ونادي على أبيك، فهو في الطابق العلوي عند المستأجرين... تفضَّل بالدخول». دخلت إلى غرفة لا يميزها أي شيء، علقت على جدرانها بعض اللوحات، التي كانت عبارة عن صور شخصية لبعض الجنرالات. ثمة ديوان للجلوس، ومائدة مستديرة، وأصيص خزامى وبلسمينات. تساءلت: أليس جديراً بي أن أنصرف بسرعة، قبل أن أضع نفسي في مأزق صعب وحرج؟ أجل، أؤكد لك يا أميمتي، أنني كنت أرغب كثيراً في الهروب! «الأحرى أن أعود إلى هنا في الغد»، قلت في نفسي. «سيكون الجو أفضل ممّا هو عليه اليوم. سأبتعد إلى أن تهدأ الزوبعة المهيمنة على الأجواء... ثم إني قد هرقت الحليب على الأرضية قبل قليل، وهؤلاء الجنرالات المعلقة صورهم الشخصية على

الجدران، متجهّمون وعابسون!!». وما أن اتجهت صوب الباب بغية الفرار، حتى ظهر ماركوف، وكان مثلما تخيلته تماماً: أشيَب شعر الرأس، له عينان صغيرتان تنمّان عن الدهاء، ويرتدي لباساً داخلياً متسخاً، شدّ من جهة الوسط بحبل. استعلم عن سبب زيارتي، فتلجلج فمي وأنا أشرح له، أني من جهة إيميليان إيفانوفيتش، وبحاجة إلى أربعين روبلاً... ثم توقفت عن الاسترسال في الكلام، لأني رأيتُ في عينيه، بأنّ قضيتي خاسرة. «لا، أجاب. ليس عندي مال. ولكن، هل لديك ما تضعه رهناً؟». شرحت لماركوف بأني لا أملك ما أرهنه، ولكني من جهة إيميليان إيفانوفيتش، وهذا يعرفني جيداً. لقد قلت له باختصار، كلّ ما ينبغي أن يُقال. «لا، ردّ هو بعدما استمع إليّ حتى النهاية. وما دخل إيميليان إيفانوفيتش في الموضوع؟ ثم إنني لا أملك مالاً». «طيب، قلت في نفسي. الأمر مثلما قدرت. هو دائماً مثلما أقدّر. لقد شككتُ في نجاح هذا المسعى... لقد استشعرت هذا الفشل». لكم وددتُ حقاً يا فارينكا، لو انشقَّت الأرض تحت قدمي حينها، لأختفي عن نظرات ذلك الرجل. لقد كنت متجمّداً من شدة البرد، وكانت رجلاي فاترتين، وأشعر بتنمّل على مستوى عمودي الفقري. نظرتُ صوب ماركوف، وكان هو نفسه ينظر إليّ بعينيه الثاقبتين، وبدا كمَن يأمرني قائلاً: «انصرف إذن، يا صاح. ليس هنا أي شيء يخصّك». أدركتُ مغزى تلك النظرات، التي ما كنت لأتردّد في الانصراف بعدها، لو أني كنت في ظروف أخرى. «ما الداعي الذي جعلك تحتاج إلى المال؟»، (هذا ما سألني عنه، يا أميمتي!). فتحتُ شفتي، حتى لا أبقى دون كلام، غير أنه رفض الاستماع لحكايتي. قال مقاطعاً: «لا، ليس معي مال. لو كان معي شيء، لأقرضتك منه بكل سرور».

ألححتُ عليه بقوة: «سيدي، أنا لا أطالبك بمبلغ كبير. سأسدِّد لك عن طريق دفعات، بل سأسعى إلى ردّ الدين حتى قبل انتهاء الأجل المحدَّد. ألزِمْني بأي فائدة تشاء، لكن ثِقْ بأنني سأسدِّد لك الدين كله». كنت في تلك الأثناء، أفكر فيك يا أميمتي. كنت أستحضر في ذهني كافة المآسي التي تمرِّين فيها، وجميع الحاجيات التي تحتاجينها، وأفكر في نصف الروبل الذي بعثت به إلي، كذلك. «ما جدوى الفائدة؟! قال ماركوف. انتبه: سأقرضك إذا جئتني بما يرهن! ثم إني على كلّ حال، لا أملك مالاً. أقسم لك بحق السماء! وإلا لكنت قد أقرضتك بكل فرح». لقد تجرأ هذا اللص على أن يجعل رب السماء أيضاً، شاهداً عليه!

بعد ذلك، لم أتذكَّر حتى الكيفية، التي خرجتُ بها من هناك يا عزيزتي، ولا كيف وصلت إلى جسر الانبعاث. لم أصل إلى المكتب، بعدما أنهكني التعب الفظيع، وجمّدني البرد الشديد، إلا على الساعة العاشرة. وبما أني كنت ملطخاً بالوحل، فقد شئت أن أزيل بعضه عني، غير أن سنيغيريف البواب لم يسمح لي بذلك، إذ قال لي: «لا يمكنك القيام بذلك، يا سيدي. ستفسد الفرشاة التي هي في ملك الحكومة». ها كيف صاروا يعاملونني اليوم، يا أميمتي، أي إني صرت في نظر هؤلاء لا أساوي سوى أقل من ممسحة أقدام، يستعملها الكلّ لمسح حذائه. هل تدرين ما الذي يخنقني حدّ الموت، يا فارينكا؟ إنه ليس المال، وإنما جميع هذه المتاعب الحياتية، التي تصادفني، وجميع الهمسات التي تُقال عني، وجميع تلك الغمزات الساخرة التي تتخذني موضوعاً لها، وجميع تلك الكلمات اللاذعة التي أقذف بها من وراء ظهري. إنّ صاحب المعالي يستطيع بالصدفة، أن يلاحظ الشكل الذي صرت أبدو عليه.

إيه، يا أميمتي! إن أيامي الجميلة صارت جزءاً من الماضي. لقد أعدتُ اليوم، قراءة كافة رسائلك، فشعرت بأنها حزينة، يا أميمتي! الوداع، يا عزيزتي. وليحفظك الربّ!

م. ديفوشكين.

استدراك: أردت أن أتبنّى النبرة التراجيكوميدية يا فارينكا، كي أقصّ عليك مصيبتي، غير أني لم أوفَّق بالطبع، في أسلوب المزحة. كنت أريد مجاراتك. سآتي لزيارتك بالبيت، يا أميمتي، ولن أخالف وعدي. سآتي لزيارتك غداً.

11 أغسطس.

العزيزة فارينكا ألكسييفنا! صديقتي الصغيرة!

ضعت يا أميمتي العزيزة! ضعنا معاً، نحن الاثنين. ضعنا إلى الأبد. ضاعت سمعتي وكرامتي وكل شيء عندي! ضعت أنا، وكذلك أنت يا أميمتي، وضِعْنا معاً بشكل نهائي! وأنا المسؤول. أنا الذي قادك إلى الضياع! إنهم يضطهدونني يا أميمتي. إنهم يحتقرونني، ويهزؤون مني، وتقذفني ربّة البيت بِوابلٍ من السّباب الحقيقي. ولكَمْ صرخت في وجهي، وسبّتني اليوم! إنها تعاملني - من غير أن تشعر بالحرج - وكأني شيء وضيع وحقير. في اللقاء المسائي الذي يعقده راتازاييف في شقته، قرأ أحدهم بصوت عالٍ، مسودة إحدى الرسائل التي كنت قد كتبتُ إليك، فسقطت من جيبي، بالصدفة. لشدّ ما سخروا من أمري، وضحكوا ملأ أشداقهم، يا أميمتي! لقد جعلني هؤلاء الخونة، موضوع هزئهم ومزاحهم، وضحكوا حدّ التشنج! وذهبتُ إليهم، وأقنعتُ راتازاييف بأنّ ما

حدث في حضرته هو غدرٌ وخيانة، واتهمته بأنه خائن! ردّ علي قائلاً بأني أنا الخائن، لأني منشغل عنهم بمجموعة من الفتوحات والغزوات، التي لم أخبرهم عنها. «أنت تتخفّى عنا، قال لي. أنت إذن هو لوفيلاس!». وصار الجميع ينادينى الآن بلوفيلاس، حتى إن اسمي القديم قد تُنُوْسِيَ بشكل كلي! هل سمعت يا ملاكي الصغير بهذا؟ هل سمعت به؟ إنهم الآن على علم بكل شيء، إنهم مطَّلعون على كل شيء، ويعرفونك يا عزيزتي، ولا يجهلون أي شيء عنك، على الإطلاق! إن فيلدوني بالذات يشاركهم الضحك. تصوري، فيلدوني الخادم! اليوم، أمرته بأن يأتيني بشيء من عند بائع اللحم المبخّر، فرفض الذهاب، واكتفى بالإجابة بأنه مشغول. حينها قلت له: «عندما أكلفك بأمر ما، فعليك قضاءه». أجابني: «لا، ليس ذلك من واجبي. أنت لا تدفع لربّة البيت ما عليك، ومن ثمة لا أوامر لك عليّ». جعلتني وقاحة هذا المزارع السيئ التربية مهتاجاً، فوصفتُه بالغباء على الفور، فردّ علي إثر ذلك قائلاً: «إذا كنتُ أنا غبياً، فأنت كذلك غبي!». ولأني ظننتُ أنه لم يكن يستطيع أن يردّ عليّ بهذه الطريقة، إلّا حين يكون سكران، فقد قلت له بعد ذلك: «أنت من دون شكّ سكران، أيها المزارع السّافل!». حينها، قال: «وهل أنت من أدى ربما، ثمن الشراب؟ أتملك بعض ما تؤدي به ثمن السكر؟ أنت تستجدي الصدقة من إحدى النساء وحسب، وتلتمس منها بعض الكويبكات... وتدّعي رغم هذا، بأنك من النبلاء!». تأملي في ما وصَلَتْ إليه الأمور، يا أميمتي! كلّ هذا، ويحسب المرء أنه يعيش، يا فارينكا! إني أشبه ما أكون بمنبوذ تَحامَتْه كلّ العشيرة. إنّ وضعي لأفظع بكثير من وضع الغريب المتشرِّد، الذي لا يملك جواز السفر. إنها لمآسي رهيبة. لقد

ضعت، ضعت بشكلٍ حقيقي! ضعت مرة واحدة وإلى الأبد، من غير رجعة!

م. د.

13 أغسطس.

عزيزي الغالي جداً ماكار ألكسييفيتش!

ها إن المآسي المتوالية ما تنفك تصيبنا بشكل رهيب، حتى إني لم أعُد أعرف ما الذي عليَّ أن أفعله أنا بالذات! تُرى، ما الذي ستصيره الآن، بعد كلّ هذا؟ ما من أمل البتة، في أن تعتمد عليّ، لأني لن أفيدك في أيّ شيء بعد الآن، إذ أصبتُ باحتراق في يدي اليمنى، بسبب المكواة التي تركتها تسقط فوقها، من غير وعي؛ فبتُّ أعاني جراء ذلك، من احتراق وكدمة في الآن نفسه. لذلك، صار من المستحيل عليَّ أن أشتغل بشكلٍ كليّ، كما أن فيدورا قد مرضت هي الأخرى، ولزمت الفراش منذ أول أمس. إني أعيش حالة قلق قاتلة. أبعث إليك بثلاثين كوبيكاً فضية، هي كلّ ما فضُل لدينا تقريباً؛ ويعلم الله مقدار ما أتمنى مساعدتك لمواجهة المصائب التي تلمّ بك حالياً. إني أكاد أبكي، من فرط حزني وكمدي! الوداع، يا صديقي! وقبل أن أنهي هذه الرسالة، أؤكد لك بأنّ زيارتك لنا اليوم، إذا عزمتَ القيام بها، ستكون لي أكبر سلوان وعزاء، في هذه اللحظة العصيبة.

ف. د.

14 أغسطس.

ماكار ألكسييفيتش! ماذا بك؟ أنت بالتأكيد، لا تخشى الله! لقد أوشكت يقيناً، أن تجنّنني. ألا تخجل؟ أنت تضيّع نفسك. فهلّا

فكرت على الأقل، في سمعتك؟ أنت رجل شريف ونبيل وأنوف. فهل فكَّرت في ما سيحدث لك، حين يعلم الجميع بطبيعة الحياة التي صرتَ تحياها اليوم؟ حينها، ستموت من فرط الخجل! ألا تشفق على نفسك، التي هرم عودها، واشتعل شعر رأسها شيباً؟! لقد قالت فيدورا بأنها لن تساعدك أبداً، من الآن فصاعداً، وأقول أنا أيضاً إني لن أمدّك من جهتي، بالمال. انظُر إلى هذا الوضع الوضيع الذي جررتني إليه، يا ماكار ألكسييفيتش! أنت تعتقد من غير شك، أنّ سلوكك المشين لا يؤثر عليّ بأيّ شيء، أبداً. إنما ثِقْ بأنك ما زلت لا تدري أبداً، مقدار ما أعانيه من جراء وضعك المتردّي! أنا لم أعُد أجرؤ حتى على نزول سلالم البيت! الجميع ينظر إليّ، وينعتني بأصبعه، ويقول أشياء غريبة جداً عني! أجل، يُشاع صراحة بأني على علاقة مع سكّير! ألا ما أقسى ما يشيعه الناس عني! حين يعيدونك إلى البيت، وأنت على تلك الدرجة من السكر، ينعتك جميع مَن بالبيت بازدراء واحتقار، ويقول: «ها هو ذلك المستخدم، قد جيء به!». وأشعر أنا بدرجة قصوى وغير محتملة، بتلك الإهانة التي تصلك من هؤلاء. أقسم لك بأغلظ أيماني بأنني سأنتقل من هذا المحل. سأقيم في أيِ مكان، مثل أي خادمة تُعنى بغسل الملابس؛ إنما المهم ألّا أمكث في هذه الشقة. كنت ألتمس منك زيارتي، فلم تأتِ. أهكذا يتركك دمعي والتماسي لزيارتك غير مبالٍ، يا ماكار ألكسييفيتش؟! ومن أية جهة حصلت على المال؟ إني لألتمس منك بحقّ الخالق الفالق، أن تأخذ احتياطك لنفسك! أنت تخسر، وتخسر نشوة القلب! ويا له من عار، فوق كل ذلك، ويا لها من فضيحة! بالأمس، حين عدت، ذهبت ربّة البيت في تعاملها المخزي معك، إلى حدّ أنها رفضت فتح الباب في وجهك، فقضيت الليلة - وأنا

على علم تام بذلك - في البهو! آه، لو أنك عرفت مقدار المعاناة، التي قاسيتها، وأنا أسمع بهذا الخبر! بالله عليك، زُرْنا، وستشعر معنا بالسعادة: سنقرأ بعض الكتب معاً، وسنتحدث عن الماضي، وستحكي لنا فيدورا عن أسفار حجّها. بالله عليك يا صديقي، لا تتسبّب في ضياعك وضياعي، وارأف بي، فأنا لا أحيا إلّا من أجلك، ولم أشأ المكث هنا إلّا من أجلك. فإذا بكلّ هذا الضياع والخسران، اللذين بلغتهما! كُنْ إنساناً عفيف النفس، صامداً على الشدائد والمحن، وتذكّر أنّ الفقر ليس رذيلة. ثم، لماذا اليأس والقنوط؟ كل هذا لن يدوم سوى للحظات محدودة، لينقضي بعد ذلك! كل شيء سيُحلّ بعون الله وقوته، ولا يُتطَلّب منك الآن سوى الصمود. أبعث إليك رفقته بعشرين كوبيكاً. أنفقْها في شراء بعض التبغ، أو في أيّ شيء تريده. إنما لا ينبغي عليك - بحق السماء - أن تنفقها في ما يسيء إليك وإليّ. زرنا رجاء. عليك أن تزورنا. ما من شك أنّ الخجل قد ينتابك، مثلما انتابك من قبل، لكن اصمد في وجه هذا الشعور، لأنه زائف وسلبي. ما يتعيَّن عليك فقط، هو أن تأتي لزيارتنا، وتعلن بذلك توبتك الصادقة. ضَعْ أملك في الربّ، فإنه سوف يسوّي كل شيء على الوجه الأفضل.

ف. د.

19 أغسطس.

عزيزتي فارينكا ألكسييفنا، أميمتي!

أنا كلي خجل يا يمامتي الصغيرة، كلّي خجل يا فارفارا ألكسييفنا. ثم ماذا إذن في هذا الأمر، يا أميمتي؟ ولم لا يفرّج المرء عن نفسه قليلاً؟ حينها، لا أكاد حتى أفكّر في نعلي أبداً، لأنّ النعل

لا تعني لحظتها، أي شيء. سيبقى دائماً مجرد نعل بسيط وتافه وقذر. وحتى الجزمة نفسها، لن تعني لي حينها، أي شيء! لقد كان فلاسفة الإغريق يستغنون عنها. فلماذا نُوْلي نحن كبير الاهتمام والعناية لشيء لا يستحق منّا ذلك؟! وعليه، ستجرح كرامتي، ولماذا قد أتعرَّض للاحتقار؟ آه! لَكَم آلمني ما كتبتيه، يا أميمتي إنما أبلغي فيدورا بأنها لا تعدّ عندي، سوى مجرد امرأة مزعجة ومضطربة ووقحة، وهي بالإضافة إلى هذا وذاك، امرأة غبية وبليدة بكيفية تفوق كل وصف! أما عن شعري الأشيب، فقد أخطأت التقدير يا عزيزتي، لأني وعكس ما تتصورين، أبعد ما أكون عن الشيخوخة والهرم. إيميليان يبعث إليك بتحياته. كتبت تقولين لي إنك تأسّفت لحالي، وبكيت؛ وها أنا أبادر بالكتابة إليك قائلاً، إني تأسّفت وبكيت أنا كذلك. أتمنى لك في النهاية، كمال الصحة ودوام الهناء. أما بالنسبة إلى حالي، فأنا مع ذلك بخير وسعيد أيضاً، يا ملاكي الصغير، صديقك المخلص.

ماكار دييفوشكين.

21 أغسطس.

الآنسة والصديقة العزيزة فارفارا ألكسييفنا!

أشعر بأني مذنب. أشعر بأني غاليتُ حِيالك، في ارتكاب الأخطاء. أجل، ليس من الأجدى في نظري، أن أشعر بكلّ هذا يا أميمتي، مهما يكن قولك فيه. قبل الوقوع في الذنب، كنت أشعر بما أشرتُ إليه، لكني أذعنتُ لليأس فخسرت، رغم معرفتي بأني لا أتصرَّف بغير الإساءة والذنب. أميمتي! أنا لست شريراً ولا طاغية؛ وحتى يتفتَّت قلبك الصغير، ينبغي أن يكون مُفَتِّت ذلك القلب نمراً

متعطشاً لولغ الدماء، لا أقل ولا أكثر. والحال، أنّ لي أنا قلبَ شاة، وطبعي مثلما تعلمين ليس هو طبع كائن دموي. وعليه، أنا لست مذنباً بسبب أخطائي، أبداً. أنا إذن، لست مذنباً. إن المذنب مسألة شديدة الإبهام، وحكاية في غاية من التعقيد والغموض، يا أميمتي! بعثتِ لي بثلاثين كوبيكاً فضياً، وبعدها بأيام معدودة بعثتِ لي بقطعتين نقديتين من فئة عشرين كوبيكاً؛ فانتابني الألم، وأنا أمعن النظر في تلك النقود، التي أتتني منك، أنت الفتاة اليتيمة. وفوق هذا وذاك، كتبتِ تحرِّضينني على إنفاق تلك النقود في شراء التبغ، بينما يدك أنتِ قد احترقت، وما من شك في أنّ الجوع سيحلّ بك عمّا قريب! حينها، تساءلت في قرارة نفسي: ترى، كيف ينبغي لي التصرف إذن، في مثل هذه الحالة؟ هل أسلبك - أنت اليتيمة - مالك، الذي تحتاجين إليه، من غير تبكيت للضمير، وكأنما أنا نشال حقيقي؟! عندئذٍ، خارت عزيمتي، وفقدت الشجاعة، يا أميمتي؛ بمعنى أني شعرتُ بكيفية لا إرادية في البداية، بأني كائن تافهٌ وحقير، لا قيمة له أكبر ممّا لنَعْل حذائه من قيمة. واعتبرت بأنّ من غير اللائق إذن، منح ذاتي أية أهمية مهما كانت، بل اقتنعت بأني على العكس من ذلك، أدنى من أيٍّ كان، وأني مجرد شيء مُخجِلٍ ووقحٍ وسفيه وغير جدير - إلى حدّ ما - بالوجود. ومنذ اللحظة التي فقدت فيها التقدير لنفسي، وما عدتُ فيها أرى لنفسي أية ميزة تميِّزها، ولا أية فضيلة تذكر؛ استسلمتُ للسقوط، وكانت الهاوية أمراً حتمياً، لا مفرّ منه! إنها مشيئة القدر، ولا بدّ لي في ذلك! وفي تلك الأثناء، حدثت مصادفة عجيبة: كانت الطبيعة كئيبة، والجو بارداً، والسماء ممطرة. وتصادف أنْ وجدتُ إيميليان في طريقي. كان قد رهن كلّ ممتلكاته يا فارينكا، فلم يكُن حين التقيتُ به، قد

ذاق الطعام لمدة يومين كاملين، لأن كل حاجاته كانت موضوعة رهينة لدى المرابين؛ فكان أحوَج ما يكون إلى شيء يرهنه من جديد، لأنّ ما من أحد سيقرضه من غير رهن. لذلك، وجدتني أذعن بدافع الشفقة الإنسانية، أكثر ممّا أذعنت بدافع شخصي صرف. وبهذه الكيفية، حصل لي ما حصل من ضلال، يا أميمتي! ولَكَم بكينا أنا وهو! تحدثنا عنك. إنه إنسان طيب للغاية وممتاز وذو مشاعر مرهفة جداً. أنا نفسي يا أميمتي، أشعر بذلك؛ ولأني بالضبط أشعر به بكيفية جيدة، فإن تلك الأمور ما تفتأ أن تقع لي دائماً. أنا أدرك مقدار ما أدين به إليك، يا عزيزتي! لقد تعلمت بتعرّفي عليك، بأن أعرف نفسي جيداً، فأخذت بذلك في التعلّق الشديد بك. قبل التعرف عليك، كنت مجرد كائن وحيد يا ملاكي الصغير، يعيش عزلته بشكل وحيد، وكأنه في سبات أبدي. كنت حقاً لا أعيش بالمرة. كان أعدائي يزعمون بأنّ مظهري الخارجي غير لائق، فظلوا يهينونني، إلى أن انتهيت أنا نفسي إلى ازدراء ذاتي. كانوا يدّعون بأني غبي، فخلصت إلى تصديق ذلك. لكن، ما أن ظهرت أنتِ في حياتي، حتى غمرت هذه الحياة القاتمة بضوء وهّاج. لقد أضيء قلبي وروحي معاً، وعثرَت نفسي في الأخير على طمأنينتها الداخلية، فصرتُ أدرك بأني لستُ أقلّ من الآخرين قدراً، وبأني إذا ما كنت لا أتوفر على شيء من شأنه أن يميزني، وإذا ما كان يعوز شخصي البريقُ واللمعان والفتنة السّاحرة، فإنني أبقى مع ذلك إنساناً له قلب وفكر! ولأني أشعر في قرارة نفسي الآن، بأني مضطهد، وبأنّ مصيري يُذيقني الإهانة تلوَ الأخرى، فقد توقفت عن الاعتقاد في كرامتيَ الخاصة، فضعُفَت بذلك معنوياتي الخاصة، إثر ما لقيته من الآخرين. والآن، وبعدما أدركتُ كل شيء يا أميمتي،

فإني أتضرّع إليك بدمعي المنسكب على خدّي، ألّا تعودي إلى مساءلتي بشأن هذا الموضوع أبداً، لأنّ قلبي قد تمزّق، وأشعر إزاء كلّ ذلك بمعاناة مريرة.

أؤكّد لك على احترامي يا أميمتي، وعلى أن أبقى صديقك الوفي.

ماكار دييفوشكين.

3 سبتمبر.

لقد تركتُ رسالتي الأخيرة من غير نهاية، لأنّه قد شقّ عليّ حينها أن أستمرّ في الكتابة، يا ماكار ألكسييفيتش! تمرّ بي أحياناً بعض اللحظات، التي أشعر خلالها بالرّاحة، وأنا وحيدة ومستسلمة على مهل للحزن، ومذعنة من غير شريك للكمد. وقد أخذت هذه اللحظات تتكرّر عندي بوتيرة عالية، هذه الأيام. ثمة شيء ما في ذكرياتي غير قابل للتفسير بالنسبة لي، شيء ما يمتصّني بكيفية شديدة، حتى إني لأبقى لساعات طويلة غير مبالية بما يحيط بي، وغافلة عن كل الأمور التي تؤثّث حاضري. وليس هناك في حياتي الرّاهنة، من انطباع - سواء أكان جميلاً أو قاسياً أو مؤلماً - مما يمكّنني من العثور فيه من جديد، على ذلك الانطباع الذي يشبه ما مرّ بي في الماضي، خاصة في مرحلة الطفولة: طفولتي السعيدة! إلا أنّ مثل هذه اللحظات، عادة ما تترك لديّ إحساساً بالضيق النفسي.

أشعر بالوهن، لأنّ أحلام يقظتي تُضعفني، فتسوء صحّتي فضلاً عن ذلك، أكثر فأكثر.

لكن جوّ هذا الصباح الرّطب والمضيء والسّاطع، الذي قلّما يكون كذلك في فصل الخريف، قد بثّ في نفسي الحياة، فاستقبلتُ

بذلك نهار اليوم، وأنا في غاية من الفرح والسرور. ها هو ذا الخريف قد حلّ علينا منذ وقت، إذن! لكم أحببتُ هذا الفصل، حين عشتُ في الريف! وحتى لو أنني كنت حينها صغيرة، فقد كنت أشعر مع ذلك بالكثير من الأمور. في فصل الخريف، أحببتُ الأماسي أكثر من الأصباح؛ وما زلتُ أذكر تلك البحيرة، التي كانت موجودة هناك عند سفح الجبل، على مبعدة خطوات عن بيتنا. لقد كانت تلك البحيرة، التي يُهيأ لي أني ما زلت أراها إلى اليوم، متَّسعة الجوانب إلى أبعد حدّ، وفي غاية الهدوء. وكانت تبدو بصفاء ونقاء بلوريين. وإذا كان المساء هادئاً، فإنّ الهدوء يلفّها، فلا يُسمَع للأشجار المحيطة بها أيّ حفيف؛ وتبقى صفحة الماء جامدة لا تتحرك بالمرّة، حتى ليُخيّل لمن يراها، أنها مرآة صقيلة! ويا لتلك الرطوبة التي كانت تعمّ ذلك المكان! ويا للبرودة التي كانت تشمله! تسقط حبّات الندى فوق العشب، فتبدأ النيران ساعتئذٍ في الاشتعال، لتظهر ألسنتها الملتهبة في بعض الأكواخ المنتشرة هنا وهناك، على ضفاف البحيرة؛ وترى قطعان الماشية تعود إلى حظائرها صامتة ومستكينة، أثناء رحلة الأوبة. وكنت أنا أنسلّ من البيت دون أي ضجيج، لأذهب إلى بحيرتي، كي أمنح لنفسي فرصة الانغماس الشامل في طقس تأمُّل البحيرة. كانت تلك النيران التي يضرمها بعض الصيادين في أحزمة الأشواك، فينعكس ضوءها بعيداً على صفحة الماء الصقيلة، أول ما يلفت نظري. وبعد ذلك، ينجذب انتباهي نحو قبّة السماء، التي تنتشر بين جنباتها، بفعل الجوّ المشبع بالبرودة، زرقة قاتمة تتخلّلها بعض الهدب الحمراء الوهّاجة، التي يأخذ بريقها في الذبول شيئاً فشيئاً؛ ثم يطلع القمر. وكلّما مرّ عصفور في البعيد، محرّكاً جناحيه بشدّة، بسبب الخوف الذي قد ينتابه جرّاء تخلُّفه عن

السّرب، وكلّما تحرّك عود من أعواد القصب، بفعل نسمة هواء تهبّ بشكل مفاجئ، أو اضطربت سمكة ما وسط مياه البحيرة؛ إلّا وتكون خفقة الأجنحة، أو حفيف الأوراق، أو تموّج الماء بسبب حركة الزعانف، مسموعة بصفاء باهر في تلك الأثناء. وفوق البحيرة التي تلوّنها زرقة مكلّلة بالسواد، يتشكّل بخار أبيض وخفيف وشفاف. ثم إذا بالأفق البعيد يتلوّن بالسواد، فيبدو للناظر المتأمّل أنّ كل شيء هناك قد غرق في سحابة قاتمة، بينما صارت الأشياء هنا بالجوار، تبدو للعَيان بجلاء ورونق مذهِلَيْن، سواء القارب أو الشطّ أو الجزر الصغيرة أو ذلك البرميل المهجور، الذي تنوسي بالقرب من الضفّة، فأخذ يتهادى فوق صفحة الماء؛ مثلما اتّضح منظر ذلك الغصن الصغير المقطوع من شجرة السّيتسُس، بأوراقه الصفراء الذابلة، وهو يحتكّ بالقصب؛ ومنظر ذلك النورس المتخلّف عن السّرب، وقد هجم على الماء البارد أولاً، قبل أن يتّجه، بعدما ارتفع بعد ذلك، نحو تلك السحابة القاتمة التي تلفّ الأفق، كي يختفي بين جنباتها. لم أكُن أتعب من المشاهدة ولا الإصغاء، أبداً. ولكَم كنت أشعر بأني سعيدة إلى أقصى حدّ! ولم أكن وقتها سوى طفلة، بل صبية وحسب! . . .

كنت أحبّ فصل الخريف كثيراً.

كنت أحبّ الخريف، ذلك الفصل الذي تكون فيه سنابل القمح قد خضعت لعمليات التجميع والادِّخار مع نهاية الصيف، وكافة عمليات الحصاد والدّرس قد انتهت، وحلّ أوان السّهر في الأكواخ، حيث الجميع ينتظر قدوم الشتاء. حينها، يصطبغ كل شيء بلون شديد العتمة؛ السُّحب الداكنة تغلّف السماء، والأوراق الذابلة تتكدّس فوق بعضها البعض، مُشكّلة بذلك ممرّات مفروشة كالبُسط،

على جنبات الغابة التي تصير جرداء وعارية؛ هذه الغابة التي تكتسي في المساء غلالة لون أزرق مجلّل بالسواد، حين يلفّها في المساء على الخصوص، ذلك الضباب الرّطب الذي تبدو من خلاله الأشجار، وكأنها كائنات عملاقة، أو أشبه بأشباح مخيفة. وفي بعض الأحيان، كنت من غير أن أشعر، أترك الآخرين يتقدّمونني أثناء النزهة ببضع خطوات، وحين أدرك أني تخلّفت عنهم، وأن لا أحد بجانبي، أغذّ الخطو للالتحاق بالجماعة، وقد انتابني شعور كبير بالتضايق والانزعاج. وكانت تسري بين جنباتي رعشة شبيهة بارتعاشة الأوراق، حين تحرّكها الرياح بين الأغصان، فأتساءل: «ماذا لو ترصّدني كائن رهيب هنا، وكَمَنَ لي بين تجاويف شجرة من الأشجار؟!». فتهبّ الريح أثناء ذلك الوقت على الغابة، فتملأ جنباتها بالجئير والشكوى، لتجرّد الأغصان الذابلة من حفنة الأوراق، وتذروها بعيداً ضمن دوامة هوجاء. بعد ذلك، يمرّ سرب من الطيور المهاجرة، وقد احتلّ أرجاء السماء بالطول والعرض، حتى لتتغطى السماء على امتدادها كلّه بسواد مفاجئ؛ فينثر من فوق عليائه، صياحاً متوحشاً وحادّاً على أرجاء الغابة. ينتابني الخوف، فيخيّل لي حينها، أني أسمع صوت أحدهم يقول لي هامساً: «اركضي، اركضي أيتها الصغيرة، ولا تتأخري، فإن أموراً رهيبة ستحدث هنا عمّا قريب... اركضي، اركضي أيتها الصغيرة!». حينها، يستبدّ بي الهلع، فأطلق رجليّ للرّيح من غير أيّ توقف، لأصل إلى البيت وأنا ألهث.

كان الجوّ في بيتنا صاخباً ومرحاً؛ كلّ واحد من الأطفال ينهمك في إنجاز المهمة المنُوْطة به: إما تقشير الجلبان، أو الخشخاش. وفي موقد النار، تكون الأعواد التي لا تزال رطبة، تطقّ

وهي مشتعلة. وكانت الوالدة تنظر إلى كلّ ما ننجزه من أعمال، ونحن نمرح ونصخب، نظرة فيها تقدير مشبَعٌ بالجذل. بينما خادمتنا القديمة أوليانا، تكون إمّا تتحدث عن الزمن الغابر، أو تحكي لنا بعض الحكايات المخيفة، التي تتحدث عن السّاحرات والأشباح. وكنّا نحن الأخريات، الطفلات الصغيرات، نتقارب بعضنا من بعض، وتلتحم أجسامنا، إلّا أن أجسامنا لم تكن تفارق شفاهنا أبداً. وبينما كنّا منهمكين ذات ليلة في ذلك، إذا بصمت مباغت يخيّم علينا. . . هس! ما هذا؟! لكأنها طرقة على الباب! لم يكن ذلك أيّ شيء ممّا ظننّاه. ما أحدث تلك الضجّة هو دولاب مغزل العجوز فلوروفنا. ولكم ضحكنا تلك الليلة! إلّا أنّ الخوف قد منعنا بعدئذٍ في الليل، من الخلود للنوم. لقد رأينا في النوم كوابيس مرعبة. وكنت أصحو من النوم أحياناً، ولا أجرؤ على الحركة، فأمكث في فراشي وأنا أرتعد من شدّة الخوف، إلى أن ينبلج أول أضواء النهار. وفي الصباح، كنت أستيقظ وأنا ندية وبليلة مثل زهرة. أنظر من خلال النافذة، فأرى الأرض مجلَّلة بالصقيع. ومن الأغصان العارية، كانت تتدلى قطرات الندى المتجمّدة في الخريف. وعلى البحيرة كانت طبقة رقيقة من الصقيع التي تشبه الورق الصقيل، تغطّي صفحة الماء، التي يرتفع منها ضباب أبيض؛ في حين أنّ الطيور تُصدر زقزقات شجية جذلى. الشمس تلمع، وأشعتها المضيئة تمتدّ باتجاه طبقة الجليد الدقيقة، لتكسرها. الجوّ صافٍ ونشوان ندي! في الموقد نار جديدة تلتهب، فنجلس أمام الساموفار جميعنا؛ بينما كلبنا أسود الفراء بولكان، الذي بات كلّ الليل يرتجف من البرد، ينظر إلينا من خلال النافذة، محرّكاً ذيله. ومن أمامنا، ونحن ننظر إلى النافذة، يمرّ قرب سياج بيتنا أحد المزارعين الموجيك،

وقد ركب صهوة جواد مطهّم، ذاهباً في اتجاه الغابة، ليتزوّد ببعض الحطب. تعمّ الطمأنينة والفرح الجميع. الناس قد جَنَتْ الكثير من القمح؛ والشمس ذهّبت الرحى الكبير الذي تغطيه سيقان الزرع الدارس، إنه مشهد يبهج الروح! والجميع هادئ، والجميع مسرور. الموسم بالنسبة إلى الكل كان جيّداً. الجميع يعرف أنه سيجد خلال فصل الشتاء ما يسدّ به جوعه. المزارع واثق من أن زوجته وأبناءه لن يشعروا بالجوع؛ كما أن الفتيات كذلك لن يتوقفن خلال الأمسيات الشتوية الباردة، عن الغناء والرّقص. مثلما أنّ الكل سيصلي للربّ أيضاً، في خشوع وضراعة، أثناء يوم القدّاس الأسبوعي!... آه، لَكَم كانت طفولتي سعيدة ورائعة!...

هكذا بكيتُ مثل صبيّة صغيرة، بعدما عادت بي جميع تلك الذكريات إلى الوراء. لقد استعدتُ بحيوية كبرى جميع الأمور القديمة، فتجلّى لي الماضي كله مشعاً بشكل وهّاج، في حين بدا لي الحاضر المحيط بي، مضطرباً وقاتماً للغاية! تُرى، كيف ستؤول نهاية كل هذا؟ كيف سينتهي كل هذا؟ إنّ لديّ - لعلمك فقط! - ما يشبه القناعة، بأنني سوف أموت يقيناً، خلال هذا الخريف. أنا مريضة، ومريضة جداً. غالباً ما يساورني الاعتقاد بأني سأموت، إلا أني لا أريد أن أموت بهذه الطريقة، ولا أريد أن أدفن هنا. ربما سيكون عليّ أن ألزم الفراش لفترة أخرى، مثلما فعلت خلال فصل الربيع المنصرم؛ ما زلت أشعر بأنّ المرض الذي أصبتُ به وقتئذٍ، يلازم دواخلي الآن. فأنا أشعر مثلاً، خلال هذه اللحظة التي أكتب إليك فيها، بآلام مبرّحة. إنّ فيدورا خرجت اليوم، لقضاء بعض الأمور التي ستتطلبُ منها غيبة نهار كامل، بينما أنا أجلس وحيدة في الشقّة. والحال أني صرتُ منذ وقت غير يسير، أشعر بالخوف من

جراء بقائي وحيدة؛ إذ أحسّ وكأن شخصاً آخر يمكث معي بالغرفة، وكأنه يتحدث إليّ. يحدث لي ذلك على الخصوص، حينما أغرق في أحلام اليقظة، لأصحو بغتة على خلفية ذلك الشعور، وأنا فزعة. لهذه الغاية، كتبت لك اليوم هذه الرسالة الطويلة؛ لأني حينما أتعاطى الكتابة، أشعر بأني أتحرّر من ذلك الإحساس الرهيب. الوداع. أنا لا أستطيع الاستمرار في الكتابة أبداً، لأن الوقت والورق يعوزانني أيضاً. لم يتبقَّ لي سوى روبل فضّي واحد، من مجمل المبلغ الذي حصلت عليه ببيع الفساتين والقبّعة التي صنعتها. لقد أحسنت صنعاً، بدفعك لربّة البيت روبلين فضّيين؛ فهي بهذا ستتركك وشأنك لبعض الوقت.

حاول أن تصلح قليلاً من شأن هندامك، الذي يبدو بمنظر غير لائق. الوداع. لم أعد أستطيع المواصلة. لست أعرف لماذا صرتُ أشعر بالوهن الشديد. أقلّ جهد يضنيني، وينهكني. ترى، كيف سأقوى على العمل، إن جاءني شغل؟ إن هذا والله، هو ما يقتلني.

ف. د.

5 سبتمبر.

يمامتي العزيزة فارينكا!

عانيت اليوم من هجمة العديد من الأحاسيس المتضاربة. أولاً، ظللتُ طيلة النهار أشعر بألم في الرأس، يا ملاكي الطيب. وحتى أخفِّف عني قليلاً، ذهبتُ للتنزّه على شاطئ لافونتاكا. كانت الأمسية شديدة الظلمة والرطوبة. هبط الليل منذ الساعة الخامسة، مثلما هي الحال مع هذا الفصل دائماً. لم تكن السماء تمطر، لكن الأجواء كان يغلّفها ضباب نديّ، يشبه بلله بللَ المطر. كانت السُّحب تشكل

لطخات كبيرة وعريضة تمتد على عرض السماء، وكان الكثير من الناس يتحركون على شاطئ القناة. لكن جميع هؤلاء كانوا - وكأنَّ الأمر بينهم فيه تواطؤ! - متجهّمي الوجوه ومقطبين، يُغرقون النّاظر إليهم في بحر من الكآبة والأحزان؛ منهم بعض الموجيك السّكارى، وبعض النسوة الثرثارات ذوات الأنف الأفطس والرأس الحاسر والجزمات الطويلة، ومنهم كذلك بعض العمال، والحوذيين، والمستخدمين الذين لهم أشغال هناك، وبعض الأطفال، وصانع مفاتيح متعلم ذو جسم نحيل ووجه مسوّد، يرتدي لباساً مخطوطاً، وفي يده قفل؛ وهناك أيضاً على مبعدة هؤلاء، جندي متقاعد يبدو على هيئة عملاق، يتحيّن فرصة مرور أحد التجّار، ليبيعه موسى أو خاتماً صغيراً من البرونز. ذلك كان هو الجمهور الذي صادفته في طريقي. ففي ساعة مثل تلك التي كنت أتجوّل فيها، لم يكن من الممكن بالطبع، أن يكون هناك أي جمهور آخر غير ذلك. ثم إن الفونتانكا لم تكن على كلّ حال، إلّا قناة لعبور المراكب. وَلَكَمْ كانت الفوضى تعمّها! كانت المراكب عديدة جدّاً، إلى حدّ أنّ المرء لا يفهم كيف يكون بمقدور مركب منها، أن يجد له متسعاً كافياً، لكي يعبر من بين المراكب. وعلى الجسور، وقفت بعض الفلاحات اللواتي يبعن الخبز المتبّل، والتفّاح المتعفن. كانت تلك النسوة قذرات ومبتلات الثياب. لَكَمْ هو مزعج أكثر، التجول على امتداد لافونتاكا! فثمة الغرانيت المبتل تحت الأقدام، وعلى الجوانب بيوت شديدة السواد بفعل الدّخان، ولا يمتد أمام المرء ولا من فوقه، سوى الضباب كذلك! لكم كان هذا المساء شديد العتمة والتجهّم والكآبة!

حين انعطفت في اتجاه شارع غورهوفايا، كان الليل قد شرع يهبط على حين غرّة فوق الأرجاء، فشرع الناس يشعلون فوانيس

الغاز. لم أكُن قد زرتُ شارع غورهوفايا، منذ وقت لا يُستهان به، إذ لم تكن الفرصة قد أتيحت لي قبل هذا اليوم، كي أزوره. إنه شارع صاخب! ثمة دكاكين جميلة، وحوانيت من الطّراز الرّفيع؛ وهناك كميات وافرة من السلع الثمينة المعروضة خلف الزجاج، من قبيل الأجواخ النفيسة، والأثواب الغالية، والزهور، وكافة أنواع القبعات المزيّنة بالشرائط. قد يظنّ البعض بأنّ جميع تلك الأشياء لا يتمّ عرضها فقط، إلّا من قبيل التباهي والزينة؛ لكن، لا: هناك بالفعل مَن يشتري كلّ ذلك، ويقدّمه على سبيل الهدايا لزوجته مثلاً. إنه حقاً شارع باذخ الترف! ثمة الكثير من الخبازين الألمان الذين يشغلون بعض المحلات في شارع غورهوفايا؛ ولا شك أنهم بهذا، أناس ينعمون بثروة هائلة. وما أكثر العربات التي تمرّ من هناك، في كل لحظة وحين! ترى، كيف تستطيع أرضية الشارع أن تتحمّل كل ذلك؟! عربات فاخرة بزجاج صقيل يشبه المرايا، ومقاعد داخلية مكسوة بالقطيفة والحرير، يقودها حوذيون يظهرون بمظهر أرستقراطي، وقد تمنطقوا بالسيوف، ووضعوا على أكتافهم شارات تلمع. كنت أتعمّد إلقاء نظرة على جميع العربات التي تمرّ من هناك، ودائماً ما كنت أرى بداخلها نساء رفيعات المقام، أغلب الظنّ أنهنّ أميرات وكونتيسات. لا شك أنهنّ كنّ ذاهبات جميعهن في تلك الساعة تحديداً، إلى حفلات البال الراقص، أو إلى بعض السّهرات. قد تكون رؤية إحدى الأميرات مباشرة، أو إحدى نساء المجتمع الرّاقي على العموم، مدعاة للفضول والغرابة؛ إذ لم يسبق لي من قبل أبداً، أن رأيت من كثب، واحدة من هذه الفئة الراقية، اللهم أن يحصل لي ذلك من بعيد، كما هو الحال في مثل هذه اللحظة، التي رأيت فيها بعض تلك النساء، من خلف زجاج عرباتهن. حينها،

فكّرت فيك. فعلتُ ذلك بالكثير من الحزن والشجن! لماذا أنت يا فارينكا، شديدة الحزن؟ لماذا، يا ملاكي الصغير؟ ثم هل أنتِ أبخس قدراً من كافة هؤلاء النساء؟ أنت طيبة وجميلة ومتعلّمة، فلماذا يعاكسك الحظ إذن، فيخصِّص لك مثل هذا المصير؟ كيف يلاقي الإنسان الطيّب والكريم والخدوم الشّقاء، بينما يكون حظّ إنسان آخر غيره، السّعادة التي تأتيه فاتحة ذراعيها نحوه؟ أعرف، أنا أعرف يا أميمتي، بأنّ من السيئ أن يفكّر المرء بمثل هذا التفكير، وبأن تفكيراً بمثل هذا القبيل هو بمثابة مروق وكفر؛ لكن، لماذا - صراحة - ينعم أحدنا بالسّعادة، منذ اللحظة الأولى التي يخرج فيها إلى الوجود، بينما يشقى الآخر في الحياة، ويقاسي جميع أنواع الفاقة والعوز والحاجة، منذ لحظة ولادته؟! من الممكن أحياناً أن يجد الطفل اليتيم الأبله نفسه محظوظاً، ضمن قسمة القضاء والقدر. من الممكن لسلطان القضاء أن يقول له، وقد حكم لصالحه من حيث لا يحتسب: «أنت، أيها الطّفل اليتيم الأبله، اغرف - رغم بلادتك وبلاهتك ويُتمك! - من خيرات جدّك، بكلتا يديك... وانعمْ بالأكل والشّرب... وامرح، ما شاء لك أن تمرح... أما أنت، يا مَن ليس يتيماً ولا أبله، فابقَ بجوعك وعطشك وحزنك، فإنّ ذلك يا صاحبي هو نصيبك من هذه الدّنيا!...». أعرف أن التفكير على غرار هذه الكيفية، هو من قبيل الإثم العظيم، لكننا لا نعدم، سواء شئنا أم أبينا، أن نسقط في مطبّ الآثام. أنت كذلك، يا ملاكي الصغير، كان عليك أن تكوني ضمن إحدى العربات الفاخرة. لسنا نحن - أراذل الناس - مَن كان عليه أن يلتمس منك التفاتة أو نظرة عطف خاصة، وإنما الأعيان والجنرالات. وعوض أن تتدثري بفستان عتيق، صُنِعَ من القماش الخشن، كان حريّاً بك أن تلبسي

الحرير والذهب. وما كان عليك أن تكوني نحيلة الجسم وشاحبة الوجه، مثلما هو حالك اليوم، وإنما نضرة ومتورّدة الخدّين وممتلئة القوام، وشبيهة بدمية شهية مصنوعة من الحلوى. حينها، سأكون أنا مسروراً لذلك فقط، حين أحظى برؤيتك من خلف زجاج العربة الشفاف والوضّاح؛ سأكون حينها مسروراً لرؤية ظلّك فقط، ولتصوّرك تنعمين بالرضا والسرور، وأنت هناك، يا عصفورتي الصغيرة. أجل، لذلك وحده سأكون أنا مسروراً كذلك. بينما الحال، الآن! وكأنه لم يكُن كافياً لك أن تنالي ما نلته من الشقاء والتعاسة، لما فعله بك هؤلاء الأشرار، الذين تسبّبوا لك في الضّياع، كي يأتي حقير آخر، وسافل غاية السفالة، ليهينك ويشتمك، لأنه يرتدي ثوباً أنيقاً وحسب، ويصوّب نحوك - ويا لها من وقاحة! - نظراته، من خلال نظارات ذات إطار مذهّب، معتبراً أن كل شيء - وهو على تلك الحال من الأبهة والأناقة - مسموح له، وأنك مضطرة إلى الاستماع لكلامه غير اللائق! لكن، لماذا كل هذا؟! لأنك يتيمة، ولأنك بلا سند يحميك، ولأنك بلا صديق قوي يستطيع أن يكون لك عوناً. ومَن يكون ذلك الرجل، وأولئك الناس الذين يستمتعون بشتم طفلة يتيمة، والحطّ من كرامتها؟ إن هؤلاء لكائنات فاسدة، وليسوا ببشر. إنهم مجرد كائنات فاسدة، كائنات متظاهرة بالوجود، بينما هم في الواقع غير موجودين، هذا هو رأيي الخاص، بشأن هؤلاء! ثم إنّ عازف الأرغن مثلاً، الذي كان يعزف اليوم في شارع غورهوفايا، هو بحسب وجهة نظري يا عزيزتي، إنسان يستحقّ من التقدير والاحترام، أكثر مما يستحقه هؤلاء. إنه يسير طيلة النهار، ويتعب التعب الكبير، وينتظر - كي يستمر في الوجود - قرشاً شقياً، يأتيه من أحدٍ ما، غير أنه مع ذلك سيد نفسه،

ويحصل على رزقه من عرق جبينه. إنه لا يريد أن يستجدي، وإنما يُجهِد نفسه لإمتاع الناس، وكأنما هو آلة مبرمجة. قال لي: «إنني مثلما ترى، أعمل جهد الإمكان، كي أحصل على بعض ما يرضي».
هو في الحقيقة متسوّل، إنه في النهاية مجرد متسوّل، لكنه متسوّل كريم النفس؛ إذ رغم التعب والتجمّد من البرد، فإنه ظل يعمل بآلته، لأنّ مَن كان مثله لا يمكن إلا أن يعتبر ما يقوم به عملاً. وإن ثمة للكثير من الناس الشرفاء، يا أميمتي، ممّن يتفانى في عمله، رغم أنه لا يتقاضى سوى النزر القليل، غير أنه مرتاح لذلك الوضع، لأنه غير مدين لأحد بأيّ شيء، ولا يستجدي لقمة الخبز من أيّ أحد. أنا نفسي أعيش الوضع نفسه الذي يعيشه عازف الأرغن تماماً؛ بمعنى أني رغم كوني لا أشبهه بشكلٍ تام أبداً، إلا أني بمعنى من المعاني، ومن وجهة النظر التي ترتبط بعفّة النّفس، أشبهه تماماً، لأني أشتغل مثله بتفانٍ، وأقوم بما في وسعي من أجل إتقان عملي. صحيح أن هذا ليس بالشيء الكثير، لكن ليس بمقدور أيّ كان أن يطلب مني القيام بالمستحيل.

إذا كنت قد حدثتك عن ذلك الموسيقي المتجوّل يا أميمتي، فلأني شعرت اليوم بثقل الفقر المضاعف لمرتين اثنتين. كنت قد توقفت أمام عازف الأرغن، وقد انتابتني بعض الأفكار التي توخيت التخفيف من حدّتها على نفسي، بتوقفي أمامه. وكان هناك بالقرب منّي، بعض الحوذيين وفتاة شابة وطفلة في غاية القذارة. كان عازف الأرغن قد وقف أمام نوافذ أحد البيوت. لاحظتُ من بين الحضور فتى، يتراوح عمرِه ما بين عشر سنوات تقريباً؛ وكان سيبدو جميل المحيا، لولا ذلك التعبير المُشْبَع بالمعاناة والمرض، الذي كان قد اصطبغ به وجهه؛ ولم يكن يرتدي سوى قميص رديء وبعض

الأسمال، تعذَّر عليّ أن أميّز طبيعتها، وأعتقد أنه كان حافي القدمين. ظلَّ يصغي إلى الموسيقى بفم فاغر، وقد أخذته جمالية الألحان، مثل جميع الفتيان الذين هم في مثل سنّه. وبينما كان ينظر صوب الدّمى الخشبية التي كان يحرّكها العازف الألماني، الذي كانت ذراعاه وقدماه هو بالذات قد تجمّدتا من شدّة البرد؛ كان ذلك الفتى يرتعش، راجفاً من شدة البرد، ويعضّ على طرف كمّه بأسنانه. ولفتت نظري ورقة صغيرة، كان يمسك بها بين يده. في تلك اللحظة، مرّ أحدهم فقذف صوب عازف الأرغن بقطعة نقدية صغيرة، سقطت مباشرة في الصندوق الذي توضع فيه الآلة الموسيقية، حيث رسمت بشكل واضح للعيان، صورة فرنسي يراقص بعض النساء. وعلى وقع الرنين الذي أحدثته القطعة النقدية الصغيرة، وهي تسقط في الصندوق، انتابت الفتى رعشة مباغتة، فصار ينظر بخجل من حوله، وظنّ أنني من دون شك هو الذي ألقى بتلك القطعة. هرع نحوي، ومدّ إليّ الورقة التي كان يمسك بها في يده، وهو يرتجف. فتحت الورقة المطوية، وقرأت الالتماس المعهود في مثل هذه الحالة: «أصحاب القلوب الرحيمة! أنا أمّ على فراش الموت، بثلاثة أطفال جوعى. ساعدوهم، يساعدكم الربّ. فإن فعلتم، لن أنسى لكم أنا أبداً، هذا الصنيع الجليل في دار البقاء والخلود، لأنكم لم تنسوا فلذات كبدي، في هذه الدار الفانية!». وماذا تريدينني أن أجد إذن، إن لم أجد غير هذا؟ الأمر واضح، ويتكرر كل يوم. إنما ماذا أستطيع أن أفعل من أجل هؤلاء؟ باختصار، أنا لم أعطِ للفتى أي شيء. ومع ذلك، لشدّ ما أثار شفقتي! لم يكن لفتى صغير مثله، ازرقَّ من أثر البرد، ويتضور من شدة الجوع، أن يكذب! أنا متأكّد من أنه لم يكن يكذب: فقد كنت

أعرف. إنما ثمة أشياء في هذا الأمر، جعلتني أثور من فورة الغضب: لماذا تبعث تلك الأمهات السيئات، دون أدنى اهتمام بصحة أبنائهن، بهؤلاء الأخيرين نصف العراة والحفاة، ليطلبوا الصدقات على قارعة الطريق، في مثل هذا الجو القاسي؟! ربما كانت أم ذلك الفتى امرأة غبية وعديمة المروءة. وربما كانت كذلك إنسانة مريضة حقيقة، وليس هناك من يهتمّ لحالها ووضعها، لكن كان يتعيّن عليها أن تلتمس العون ممّن هو أحق بمساعدتها. أو لعلها كانت ببساطة مجرد امرأة نصّابة، بعثت بابنها عنوة، كي تخدع الناس، وهو مريض وجائع ومنهكُ القوى، مجازِفَةً بصحة ابنها. ثم أيّ تربية يتلقاها ذلك الفتى المسكين، الذي فُرضت عليه حرفة الاستجداء، في مثل ذلك السنّ؟ إنه لا يتعلّم سوى أن يبغض الناس ويحقد عليهم؛ يسير بين هؤلاء، ويهرول أحياناً خلفهم، وهو يستجديهم. لكن الناس لا وقت لهم، يمضون إلى حال سبيلهم، ولا يتوقفون. قلوبهم من حجر، وكلامهم قاسٍ وجارح. «امض، أيها الولد القذر، إلى حال سبيلك! ألا تريد أن تنصرف أيها الفتى الوسخ؟!». هذا هو ما يسمعه من الجميع، فيتألم قلبه، وتمتلئ نفسه بالكراهية والحقد، ويكون بذلك قد تعرّض للبرد دون جدوى، فيرتعش جسمه مثل عصفور صغير سقط من العش. يداه وقدماه تتجمّد، وأنفاسه تتقطّع. وما هي إلّا لحظات، حتى يأخذ في السّعال، ليدنو من النهاية التي يتسبّب له فيها المرض الشبيه بحيوان من فصيلة تلك الزواحف القذرة، الذي يتجه صوب صدره، ليستقرّ هناك: لقد صار الموت يدرك منذ وقت، أيّ ركن عفن يختبئ فيه ذلك المسكين، من غير دواء ولا مساعدة! كذلك هي كلّ حياة ذلك المسكين! آه، يا فارينكا! لكم يشقّ على قلب المرء سماع مثل هذه

العبارة: «صدقة، لوجه الله!»، فيمضي في طريقه، دون أن يعطي للسائل المحروم أي شيء، أو يقول له فقط: «ليرزقك الله من فضله وإحسانه!». إن عبارة الاستجداء، من قبيل: «صدقة، لوجه الله!»، لم تعُد تُجدي أيّ شيء. (ثمة أنواع متنوعة من عبارات الاستجداء، يا أميمتي!). بعضها يُنطَق بنغمة استعطاف بطيئة ومُشبعة بنبر متقن ومحفوظ، ناجم عن طول عادة الاستجداء لدى صاحبها؛ وفي هذه الحالة، لا يشقّ على المرء كثيراً أن يرى الناس لا تعطي الصدقات، لصاحب هذه الطريقة الخاصة في الاستجداء: إذ يتردّد في مقرور النفس بأنّ هذا الأخير متسوّل محترف، علَّمته التجربة الطويلة أن يصمُد أكثر، في وجه جميع أشكال الرفض وعدم الاستجابة، التي يمكن له أن يتلقاها من الناس، لكن هذا النداء المستجدي، يمكنه أن يلفظ في بعض الأحيان، بنبرة لم تتعوّد عليها الأذن، نبرة خشنة وفظّة ومرعبة. واليوم، على سبيل المثال، حين أخذتُ الورقة من ذلك الطفل، توجّه إليّ أحدهم بالقول، وكان يسند ظهره إلى حائط، ولا يسأل الجميع الصدقات: «أعطني قرشاً أيها النبيل، لوجه الله!»، وكان صوته خشناً جداً، ومتقطّعاً للغاية، حتى إني ارتعشت، وشعرتُ بنوع من الخوف، لكنني لم أعطه ولا قرشاً واحداً، لأني كنتُ مُعدَماً. ثم هناك الأغنياء كذلك، الذين لا يحبّون أن يشتكي الفقراء أمامهم حظّهم العاثر، بصوتٍ مرتفع. «إنهم كائنات مزعجة وملحاحة، تأتيك في الوقت غير المناسب!»، يقولون. أجل، إن الفقر يأتي دائماً في الوقت غير المناسب: ألا يمنع أنين الجوعى استلذاذ الكائنات الشبعى بالنوم الجميل؟!

وحتى أصارحك يا عزيزتي، دعيني أقول بأني ما أخذتُ في كتابة كلّ هذا، إلّا لأخفّف عن نفسي أولاً، ولأقدّم لك عيّنة من

الأسلوب الذي صرت أكتب به، ثانياً. ذلك أنك ستلاحظين دون شك، يا أميمتي، بأنّ أسلوبي أخذ في التحسّن، منذ فترة. لقد تعلَّمت كيف ينبغي لي أن أتفاعل بالكتابة. لكني أشعر الآن، بنوع من الحزن يستبدّ بي، إلى أن صرت أتعاطف من أعماق روحي وأفكاري الخاصة؛ على الرغم من أني أدرك مسبقاً أنا نفسي، بأنّ ذلك التعاطف لن يعينني في شيء، ومع ذلك فإني لا أهتمّ للأمر، لأن ذلك عندي، بمثابة شكلٍ من أشكال تحقيق الإنصاف الدائم، الذي أحتاج إليه. أنا في الحقيقة، غالباً ما أبخس من قدر نفسي يا عزيزتي، دون أيّ سبب معلوم، وأقدّر قيمتها بأقلّ من قرش واحد، وأدنى كثيراً من أية حثالة ممكنة. وإذا جاز لي أن أعبّر عن ذلك بطريقة تعتمد على المقارنة، أقول بأن هذا راجع ربما، لكوني أعاني أنا بالذات من كوني كائن بائس ومحبَطٌ وخجول، مثل ذلك الطفل الذي التمس مني الصدقة. وأريد في هذا السياق، أن أعمَد الآن، إن شئت يا أميمتي، إلى التعبير بكيفية بلاغية وأليغورية (رمزية)؛ لذلك، أدعوك إلى الإصغاء لي، إذن: يحدث لي في الصباح يا عزيزتي، حين أذهب إلى العمل، أن أتعاطى للتأمل في المدينة لحظة استيقاظها، حين تنهض من سباتها، وتنتشر بين سمائها أدخنة المعامل، وتصدر عن كائناتها الضجة والصخب؛ حينها، أشعر وأنا منشدّ إلى لوحة تتماثل أمام ناظري، وكأني أتلقى ضربة خفيفة على أرنبة أنفي الفضولي، الذي يتطلع إلى معرفة ما ليس من شأنه. وعلى إثر ذلك، أندفع بخطى حثيثة إلى مواصلة السير، في إذعان وخضوع، وأنا أكثر هدوءاً من ذلك الجدول المائي، الذي يشقّ طريقه في صمت، وأكثر انحداراً من ذلك العشب، الذي ينبت في المنحدرات. لكن، فكّري الآن ما يحدث وراء حيطان البيوت

الكبيرة المطلية بالسواد بفعل كثرة الأدخنة؛ وحاولي التعمّق في ذلك، واحكمي حينها بنفسك، كي تريْ إن كنتُ على حقّ بشأن تبخيس نفسي إلى أبعد حدّ، وفي انغماسي المطلق ضمن أتون اليأس والإحباط المعيبيْن. تذكّري جيّداً يا فارينكا، بأني أحدّثك بطريقة أليغورية، وبأنه لا ينبغي لك أن تأخذي كلامي مأخذاً حرفياً. لنرى الآن، إذن، ما قد يوجد داخل تلك البيوت المتعاظمة. هناك، في ركن من الأركان المشبعة بالدّخان والرطوبة والعتمة، وفي ما يمكن أن نسميه مسكناً، حيث لا أحد آخر غير ذلك الفقير والمعوز وحسب، يمكنه أن يسمّي ذلك الجحر مسكناً! استيقظ عامل من العمال في الصباح، وقد اتفق أن بات ليلته كاملة يحلم بزوج أحذية طويلة، ألحق بجلد أحدهما شجّة، عن طريق الاستهتار وعدم الانتباه، وهو منهمك في عمله عليه؛ وكأن ما من حماقة غير هذه، كان بإمكانها تحديداً، أن تتسلل في النوم إلى ذهن هذا العامل، لتتراءى له على شكل حلم! صحيح أن صاحبنا ليس سوى صانع، وبالضبط إسكافياً من صنّاع الأحذية الطويلة؛ لذلك، من المبرّر ألّا يفكّر دائماً، كل مَن هو في مثل وضعه، إلا في مثل ذلك الموضوع، الذي هو شغله اليومي. فللرجل أطفال يصيحون جوعاً من غير انقطاع، وله زوجة جائعة هي الأخرى. وليس صنّاع الأحذية وحسب، يا عزيزتي، من يستيقظ على هذا النحو من الفزع والانقباض الروحي. وقد لا يكون ذلك شيئاً يُذكر، وقد لا يستحق مني أية إشارة، لو لم يحلم أحد الأثرياء هناك يا أميمتي، في البيت نفسه، وفي الطابق الواقع بالضبط إما فوق ذلك المسكن أو تحته، وبشقّة مطليّة بلون ذهبي برّاق، بالحلم الدائر نفسه حول الأحذية الطويلة أيضاً، في الليلة ذاتها التي حلم فيها صاحبنا بالحذاء

الطويل. وأنا هنا لا أقول إنّ الرجلين رأيا في الحلم الحذاء نفسه. إنّ ما رآه ذلك الثري هو ضربٌ آخر من تشكيلة الأحذية الطويلة الأنيقة. ومع ذلك، فإنّ القاسم المشترك بين حلم الرجلين هو الحذاء؛ وهذا بالضبط يا أميمتي، هو المعنى الذي أومئ إليه بشكل أليغوري رمزي: إذ نحن جميعاً صانعو أحذية، بطريقة من الطرق. إلّا أن هذا قد لا يكون في ذاته، شيئاً ذا بال؛ لأنّ الأمر المؤلم هو أن لا أحد ثمة، بالقرب من ذلك الثري، ليهمس في أذنه قائلاً: «كُفّ عن الاسترسال في الحلم بمثل هذه الأمور إذن، وتوقّف عن التفكير في نفسك فقط، والعيش لوحدك، وحسب! إنك لستَ صانع أحذية، وأطفالك بخير، وزوجتك لا تشكو من الجوع. انظُر من حولك، ألا ترى ما هو أنبل من مجرد أحذيتك؟!». هذا ما حاولتُ التعبير عنه بطريقة أليغورية، يا فارينكا. ولعلّ هذه لم تكن في هذه اللحظة، سوى مجرد فكرة مفرطة في الجرأة، يا عزيزتي؛ إلا أنها فكرة ما تلبث أن تسيطر عليّ من حين إلى آخر، وتستبدّ بتفكيري بين الفينة والفينة؛ ومن ثمة، فهي تتدفّق خارجة من بين حنايا نفسي، وقد لبست دون أية إرادة مني، لبوس كلمات متّقدة وعنيفة. وعليه، ما كان ليحصل لي أن أبخّس من قيمة نفسي، وأقدّرها بمقدار قرش واحد، ولا كان عليَّ أن أخجل من ذاتي إلى أبعد حدّ. وحتى أضع نهاية لهذا الهذيان المسهب، دعيني أسألك يا أميمتي: أتعتقدين ربما أني أفتري على الناس، من باب الوشاية، وأني لا أكتب ما كتبه إلّا تحت تأثير الوسواس القهري، أو أني نسخت ذلك نسخاً من كتاب؟ لا، يا أميمتي، تفطّني معي، وتُوبي إلى رشدك! الأمر ليس كذلك: أنا أستفظع الافتراء، ولست مريضاً بالوسواس القهري، ولم أسرق من أيّ كتاب شيئاً يذكر؛ هذه هي الحقيقة!

عدتُ إلى البيت حزين القلب بشكلٍ كبير، جلستُ إلى مائدتي، وأخذتُ في تسخين إبريق الشاي، وقد تهيّأت لشرب قدحين أو ثلاثة، حين لفتَ نظري دخول غورشكوف عليّ الغرفة فجأة، وهو ذلك الشخص المسكين الذي يسكن معنا. لقد سبق لي في الصباح، أن لاحظتُ أنه يحوم حول سكان البيت، ويرغب في الاقتراب منّي. ولسوف أطلعك في هذا السياق يا أميمتي، على حالته التي هي أفقر من حالتي. ولربّما كانت أفظع بكثير! إذ تصوّري أن لديه امرأة وأطفالاً! بمعنى أني لو كنتُ مكانه، لما عرفتُ ما الذي عليّ أن أفعله!.. دخل عليّ غورشكوف إذن، حيّاني، فانسكَبَت من بين جفنيه دمعة، كدأبه دوماً. أبداً حِيالي احترامه، وهو يدخل عليّ ببطء وهدوء، غير أنه لم ينبس بأدنى كلمة. قدّمت له كرسياً كان بحق مفككاً، لأنّ ما من كرسي آخر كان في حوزتي. بعد ذلك، دعوته إلى شرب الشاي. حاول أن يجاملني، لكنه قَبِلَ شرب كأس. كان يريد شرب كأسه من غير سكَّر، فضغطت عليه بأن يضيف إليه بعض السكر. وبعد المجاملة المتمنّعة، انتهى إلى وضع أصغر قطعة في كأسه، وهو يطمئنني بأنّ الشاي عذب المذاق، بشكل كبير جداً. آهٍ للفقر الذي يحكم على النّاس بالنزول إلى الدّرَك الأسفل من المذلّة والخضوع! سألت غورشكوف قائلاً: «ماذا وراءك إذن، يا باتوشكا؟». أجابني قائلاً: «أرفق بحالي يا وليّ نعمتي، وكُن في عوني، يا سيد ماكار ألكسييفيتش. أعِنْ أسرة يطحنها البؤس والشقاء. إنّ زوجتي وأبنائي لا يجدون ما يأكلونه، وهذا أمر فظيع جدّاً بالنسبة إلى أب، تقع عليه مسؤولية إعانة أسرته!». أردتُ أن أتكلَّم، فقاطعني مضيفاً: «أنا هنا أخاف من الجميع، يا ماكار ألكسييفيتش. ليس معنى هذا أني أخاف حقيقة، وإنما أنا مثلما تعلم، لستُ على سجيتي

وطبعي، وأشعر دائماً بالحرج، لأنّ الجميع متكبّر ومتعجرف. أنا لا أريد أن أشعرك كذلك بالإزعاج، يا وليّ نعمتي. أعرف أنك تعرّضت لمجموعة من المضايقات والمشاكل أيضاً، وأعرف كذلك بأنه ليس بمقدورك أن تعطيني شيئاً كثيراً، إنما أرجوك أن تقرضني القليل ممّا تستطيعه. لقد سمحتُ لنفسي بالتوجّه إليك، لأني على علم بطيبة قلبك، كما أني أعلم بأنك قد جرّبت أنت كذلك، ما معنى أن يكون المرء في الحاجة والعوز، وبأنك لا تزال إلى الآن، تعاني من آثار ومخلفات المحنة التي لاقيتها، وأن قلبك لَقادرٌ - تبعاً لهذا - على الشعور بالرأفة والرحمة والشفقة، إزاء من يمرّ مثلك بالمحنة والشقاء نفسهما. أرجو أن تصفح عن جرأتي هذه، وتسامحني على هذه الخطوة العديمة الأدب، يا سيد ماكار ألكسييفيتش». أجبته بأني كنت سأسرّ كثيراً لإمكانية مساعدة وتقديم الدّعم المفترض تقديمه، لمن هو في مثل تلك الظروف العصيبة، لكنني لا أملك أيّ شيء يذكر، لا أملك على الإطلاق أي شيء. ثم استأنف قائلاً: «أنا لا أطلب منك الشيء الكثير، يا سيد ماكار ألكسييفيتش، لكن لعلمك (ثمّ احمرّ وجهه بشكل كامل)، زوجتي وأبنائي يموتون من شدّة الجوع. لو قرضتني بعض القروش، وحسب!». انقبض صدري لكلامه انقباضاً رهيباً. «ها هو ذا أحد هؤلاء الذين يعيشون كذلك، في وضع أشدّ ضيقاً وبؤساً ممّا أعيش فيه أنا!»، قلت في نفسي. لكن ما بقي لي من المال غير عشرين كوبيكاً، حدّدت من قبل طبيعة الاستعمال التي سأنفق فيه ذلك المبلغ؛ إذ كنت قد عزمت على استعماله غداً، في شراء بعض الحاجيات الأشد إلحاحاً. «لا، يا عزيزي. أنا لا أستطيع مساعدتك»، قلت له، ثم أوضحت سبب ذلك. «السيد ماكار ألكسييفيتش، قال غورشكوف في إلحاح. أعطني القليل ممّا تراه،

ولو عشرة كوبيكات». على إثر ذلك، لم يتبقَّ لديّ ما أفعله، سوى أني أخذت العشرين كوبيكاً التي كانت موضوعة في الدرج، وأعطيتها له كاملة، يا أميمتي. إن هذا لفعلٌ من أفعال الخير! ثم انخرطت في الحديث معه، مبادراً إياه بهذا السؤال: «لكن، قل لي من فضلك، كيف يُعقل أن تعيش يا أخي إذن، مثل هذه الضائقة الشديدة، ومع ذلك تستأجر غرفة بخمسة روبلات؟!». أوضح لي أنه كان يكتري تلك الغرفة منذ ستة أشهر خَلَت، وأنه دفع مقدّم ثلاثة أشهر من الكراء كاملة، لكن بعض الظروف الطارئة ألمّت به، فأفضت بالمسكين إلى الدّرك الأقصى من البؤس. كان يأمل في أن تنتهي مأساته في تلك الفترة، لكنها تعقدت. لقد رُفِعَت عليه قضية غير لائقة بالكل. تصوري يا فارينكا، أنه مطلوب من طرف العدالة! لقد صار طرفاً في قضية من القضايا، إلى جانب تاجر سرق حقوق الدولة، ضمن إحدى المؤسسات التجارية. تمّ اكتشاف أعمال الغش، فصدر قرار المتابعة القضائية ضد التاجر، الذي اتّهم بالنّصب والاحتيال، فورّط معه غورشكوف الذي كان هو الآخر، على علاقة بالموضوع. إلّا أن صاحبنا هذا لم يتّهم في الحقيقة، سوى بالإهمال والتقصير في مهمته. كان خطأه الوحيد أنه لم يكن حريصاً كلّ الحرص على مصلحة خزينة الدّولة. لقد طالت القضية لسنوات، ولا تزال عدّة متابعات ترفع دائماً ضد غورشكوف. «أنا بريء، قال لي. بريء تماماً من الأعمال المشينة، التي نسبت إليّ. أنا لم أقترف جناية الغش، ولا جناية النّصب والاحتيال». لقد أساءت هذه القضية بعض الشيء، لسمعة الرجل. فقد فصل عن المصلحة التي كان يعمل فيها، ولم يعُد في مستطاعه، رغم أنّ ما من أحد أثبت عليه حالة التورّط الجنائي، استعادة مبلغ مهم من المال، يدين به التاجر له، لأنّ العدالة تعترض

عليه، ما دام هو لم يبرر وضعيته أمام القضاء، بكيفية تامة. أنا أعتبر أن ما قاله حقيقة، لكن المحكمة لا تصدق أقواله. إنّ القضية لتبدو في غاية من الصعوبة والتعقيد، حتى إنّ المرء لا يمكنه، لو انتظر مائة عام كاملة، أن يحلّ ألغازها بشكل تام، إذ ما أن يتمّ فكّ بعض ما استغلق منها، حتى يقوم التاجر بخلط كافة الخيوط من جديد. أنا مهتم لحال غورشكوف بصدق، يا عزيزتي. أشفق لحاله، وأعطف عليه. لقد وجد نفسه من غير وظيفة، وطال وضعه الملتبس، دون أن ترغب فيه أية جهة من الجهات التي يتقدّم لها، أضيفي إلى ذلك أن مدّخراته قد تبخرت، ونفدت جميع وسائله، وخارت قواه. ومع ذلك، يتعين عليه أن يعيش. وما زاد من تعقيد الأمور أكثر، هو أن طفلاً قد ولد له، وهو ما يعني زيادة صوائر جديدة. إنّ صحة زوجته واهنة، كما أنه يعاني هو نفسه من الضعف والوهن، منذ مدة طويلة: إنه بكلمة واحدة، إنسان يقاسي، يقاسي الكثير. ومع ذلك، فإنه ينتظر اليوم القريب الذي يرى فيه قضيته، وقد تمّ الفصل فيها لصالحه. يقول: «لا يمكن للمرء اليوم، أن يشك في أن ذلك الموعد قريب جدّاً». إنني أرثي لحاله، أرثي لحاله بشدّة، يا أميمتي! لقد تعاملتُ معه باحترام. إنه إنسان مذعور وفزع، جعله الشقاء يرزح تحت الخوف، ويسعى بحثاً عن الحماية! تلطّفتُ معه في الكلام، وأَوْلَيْت له الاهتمام. لقد حان الآن أوان الوداع، يا أميمتي! اعتنِ بنفسك جيّداً، وليكن السيد المسيح في عونك! عزيزتي، حينما أذكرك، تصير ذكراك عندي عقاراً، أذهنه فوق روحي المريضة، لأشفى. أنا أقاسي من أجلك، إلا أن هذه المعاناة سهلة التحمُّل عندي.

صديقك الحقيقي،

ماكار ديفوشكين.

9 سبتمبر.

أميمتي، فارفارا ألكسييفنا!

أكتب إليك، وأنا في حالة عصبيّة عصيّة على التحكّم. لقد روّعتني حادثة رهيبة بشكلٍ كبير. في رأسي دوار شديد، وأشعر وكأنّ كل شيء من حولي يدور. آه! يا عزيزتي. كم هو رهيب ما سأحكيه لك، الآن! لم أكن أشعر حتى بذلك. بلى، أعتقد أني حدستُ به؛ وكنت أستشعره؛ وقد همس لي صوت سرّي بكل ذلك، وهو ينبئني به من قبل! ثم إني رأيت مؤخراً في النوم، شيئاً مماثلاً لذلك يظهر لي في الحلم.

هذا ما حدث: سأقصّه عليك دون تكلّف في الأسلوب، وقد اخترتُ الكتابة مثلما اتّفق، معتمداً على ما قد يُلهمني به الله، وحسب. ذهبت اليوم إلى المكتب، وجلست إلى مكتبي، وأخذتُ في الكتابة. لكن، ينبغي أن أثير انتباهك إلى أنني كنت قد انهمكتُ في الكتابة بالأمس كذلك. وبينما أنا على تلك الحال أمس، إذا بتيموفييه إيفانوفيتش يلتحق بي، ويوجّه إليّ أمره قائلاً: «هذه وثيقة ذات طابع استعجالي، يا ماكار ألكسييفيتش. وثيقة تقتضي منك التعامل معها على وجه السرعة. استنسخها على نحوٍ نظيف، وبعناية فائقة، وبسرعة كذلك، لأنها ستخضع اليوم للتوقيع». وعليّ في هذا السياق، أن أوضح لك يا ملاكي الصغير، بأني كنت بالأمس على غير ما يرام، بحيث كان مزاجي عكراً، كما كنت شديد الحزن والكآبة. كانت البرودة الكاتمة تستبدّ بقلبي، والظلمة القاتمة تغمر حنايا روحي كلها؛ كما ظللتِ حاضرة في فكري طول الوقت، يا قطتي الصغيرة. وعلى هذا النحو، انهمكتُ في الاشتغال على الوثيقة، مستنسخاً إياها بكيفية نظيفة، تليق بها. لكن، أنّى لي أنْ

أشرح لك الأمر؟ هل الشيطان نفسه هو الذي أضلني، أم أن قدراً ملغزاً قرّر الأمر على النحو الذي حصل به، أم كانت المسألة بكلّ بساطة أمراً حتمياً، لا مفرّ من وقوعه؟ يبقى أن أشير إلى أني سهوتُ عن استنساخ سطر بأكمله، فنجم عن ذلك السهو أنّ الجملة لم يعُد لها من معنى، بالمطلق. وقد خضعت الوثيقة بالأمس للتأخير، بحيث لم تقدّم لصاحب المعالي قصد التوقيع، إلّا اليوم. وجئتُ أنا اليوم إلى المكتب في التوقيت المعتاد، وكأنّ شيئاً لم يحدث، فأخذتُ مكاني بالقرب من إيميليان إفانوفيتش بالمكتب. ويجب أن أذكِّرك يا عزيزتي، بأني صرت منذ وقت ليس باليسير، أشعر بالخجل المضاعف حيال زملائي في المكتب، فأفقد قدرتي على التركيز بسرعة شديدة، مقارنة مع ما كنت عليه من قبل. لم أعُد في الآونة الأخيرة، أجرؤ حتى على النظر في وجه أيٍّ كان. وأصبح بدني يقشعر من الخوف، لأقل ضجة قد يُحدثها أيّ كان، باحتكاك كرسيه مع الأرض. وهكذا جلست اليوم في مكاني بشكل متواضع جداً، حرصت فيه على أن ينحني رأسي في اتجاه الأوراق الموضوعة أمامي، حتى لقد بدوت وأنا على ذلك النحو، أشبه ما أكون بقنفذ منكمش على نفسه، إلى درجة أنّ إفيم أكيموفيتش (أكبر السّاخرين جميعاً، الذي لا يضاهيه في ذلك أيّ أحد!)، قال لي بصوت مرتفع، حتى يسمعه الجميع، لما رآني وأنا على ذلك الشكل: «لماذا تجلس إلى مكتبك بهذه الكيفية، يا ماكار ألكسييفيتش؟!». ثم رسم على وجهه تقطيباً ساخراً، لم يتمالك معه جميع هؤلاء الذين كانوا يحيطون بنا أنفسهم، فانفجروا ضاحكين معها بصخب شديد، هازئين مني بطبيعة الحال. ولَكَمْ كانوا لا يتحرَّجون من الاستهزاء من الآخرين! أغلقتُ أذني، وأغمضتُ عيني، وبقيت جامداً من غير أية

حركة. إنّ ذلك لَمِن عاداتي، في مثل هذه المواقف. ذلك أنهم لمّا رأوني على تلك الحال، سرعان ما تركوني في سلام. فجأة، سمعت ضجة: كان ثمة وقع خطوات تركض، وصخبٌ ناجم عن حركة مضطربة. أرهفت سمعي أكثر... ألا تكون أذناي قد خدعتاني؟ ثم تناهى إلى سمعي صوت ينادي على اسمي، صوت يطلبني، ويردِّد اسم دييفوشكين! تسارعت دقات قلبي بين جوانحي، ولم أدرِ أنا نفسي من أيّ شيء كنت أخاف: كلّ ما كنت أدريه فقط، هو أني خفت بشكلٍ لم يسبق لي من قبل أبداً، أن خفتُ مثله في حياتي كاملة. قررتُ أن أتماوت، وألّا أفارق كرسيّ الذي أجلس فوقه، بالكل. إلّا أنّ الضجة سرعان ما تكرَّرت، واقتربت أكثر فأكثر من مكتبي. ثم، إذا بمن ينادي مباشرة عليّ، وصوته فوق أذني: «دييفوشكين! دييفوشكين! أين هو دييفوشكين؟». رفعتُ عيني لأرى، فإذا بإفيستافييه إيفانوفيتش ماثل أمامي. «صاحب المعالي يطلبك، يا ماكار ألكسييفيتش!... لقد وقعت في الكثير من الأخطاء، وأنت تستنسخ الوثيقة التي طلب منك استنساخها!». ولم يضِف أيّ شيء آخر عدا ذلك، لكن ما قاله كان كافياً؛ أليس كذلك يا أميمتي؟! بقيت جامداً في مكاني، وكأنّ صعقة نزلت عليّ. تجمّد الدم في عروقي، وفقدت الوعي بما حولي. غادرت المكتب، وأنا بكل اختصار أقرب إلى الميت، مني إلى إنسان حي. عبروا بي مكتباً أول، ثم مكتباً ثانياً، ثم ثالثاً، لأدخل أخيراً مكتب صاحب المعالي! يصعب عليّ بصدق أن أصوِّر لك ما كان يدور حينها، في قرارة نفسي. رأيت هناك صاحب المعالي يحيط به الجميع من كلّ الجهات. أعتقد أني لم أرسل عبارة التحية، لأني نسيتها. لقد كنت في غاية من الاضطراب، إلى حدّ أنّ شفتيّ ورجليّ قد استبدت بها

رعشة شاملة. ولم يكن ذلك من غير سبب يُذكر، يا أميمتي. لقد شعرت في قرارة نفسي بالاضطراب والارتباك والخجل أولاً، إذ نظرتُ إلى نفسي في مرآة تقع على يميني، فكان ما رأيته ينعكس على صفحتها، كافياً لإفقادي العقل. زيادة على ذلك أني عملت دوماً، على ألّا ألفت إليّ أدنى اهتمام ممكن، إلى حدّ أنّ صاحب المعالي بالكاد كان يعرف بوجودي. ولعله سمع بشكل غامض من مرؤوسيه فقط، بوجود شخص معين يدعى ديفوشكين؛ لكنه لم يسبق أن اتصل بي مباشرة، أبداً.

شرع صاحب المعالي يتحدث بصوت غاضب ومستثار، قائلاً: «كيف أمكنك يا هذا، أن تقوم بما قمت به؟ ما الذي دهاك؟ وثيقة مستعجلة بهذا الشكل، تقوم أنت بإفسادها، بعدما كنا بحاجة إليها على الفور؟!... كيف أمكنك القيام بهذا؟». بعدها، توجّه صاحب المعالي بالكلام إلى إيفستافييه إيفانوفيتش، وهو ما لم تكن تصلني منه سوى بعض العبارات المتقطعة، من قبيل: «إهمال!... طيش!... جلب الهموم والمنغصات!...». فتحت فمي لأنطق بشيء ما، وكنت أريد أن ألتمس الصفح من صاحب المعالي، لكن ذلك ظلّ مستحيلاً. فكَّرتُ في أن أفرّ بنفسي، غير أني لم أجرؤ على محاولة ذلك أيضاً. وعندها، عندها فقط يا أميمتي، حدث شيء رهيب، إلى حدّ أني كلما فكرت فيه الآن، إلا واستبدّ بي خجل عارم، ولا تقوى يدي على الإمساك بالقلم، إلا بصعوبة كبرى. إنّ زرّ معطفي - لعنه الله - ذلك الزرّ الذي لم يكن مشدوداً سوى بخيط واهٍ إلى المعطف، تخلَّص مما كان يشدّه فجأة، وقفز واثباً على الأرض (لعلي احتككت به، من غير أن أنتبه إلى ذلك)، وتدحرج على أرضية الحجرة، مُصدراً صوتاً مسموعاً، ليستقرّ في النهاية بين

قدمي صاحب المعالي! وقع كل ذلك، وسط صمت شامل عمّ أرجاء المكتب! وكأنّ ذلك هو اعتذاري، وتبريري لما وقع، وجوابي عن أسئلة صاحب المعالي، وكلّ ما كان يتعيّن عليَّ أن أدلي به أمامه! وَلَكَمْ كانت عواقب هذا الحدث وخيمة! انصبّ اهتمام صاحب المعالي في الحين، على وجهي وكسوتي. عندئذٍ، تذكّرت بسرعة ما رأيته منعكساً على صفحة المرآة، وأنا أدخل المكتب. أسرعتُ لاستعادة زرّي. حينها، سيطر عليَّ الجنون. انحنيتُ، وأنا أرغب في الإمساك بالزرّ، لكنه تدحرج وتدحرج، إلى أنْ صار من الصعب الوصول إليه. لقد صرت بكلّ اختصار، شخصاً تميّز العيون بوضوح، مدى الخبل والبلاهة اللتين تستبدان به! شعرت في الحين بأنّ آخر ما تبقّى لي من قوة خانني، وأنّ كل شيء فُقد إلى الأبد! ضاعت سمعتي، وصرت شخصاً خاسراً! وفجأة، سمعت في صوان أذني صوت الخادمين تيريز وفالدوني، يصيحان بي بالتناوب. أمسكت بالزرّ أخيراً، ثم انتصبت واقفاً، وعدّلت من قوامي. ويا ليتني كنت على الأقل، أنا ذلك الغبي الذي افتضح أمره، هادئاً وثابتاً في مكانه، يضع يده على حزام بنطاله! إنما لا. لم أفعل ذلك بالكل، وإنما باشرتُ شدّ الزر إلى الخيط المهلهل، وكأنه يستطيع بذلك أن يثبت في مكانه. والأفدح من هذا كله، أني كنت أبتسم! أجل، كنت لا أزال أبتسم! حوّل صاحب المعالي نظراته عنّي في البداية، ثم ما لبث أن ركّز علي نظراته بعد ذلك، من جديد. سمعته يقول موجّهاً كلامه إلى إيفستافييه إيفانوفيتش: «ما هذا، إذن؟ انظر قليلاً إلى الهيئة التي يبدو عليها! ما الذي وقع له؟ لماذا هو على هذه الحال؟». آه، يا صغيرتي العزيزة! أي أثر قاتل أحدثته تلك الكلمات في قرارة نفسي! وماذا سأصير في ظرفية مثل تلك؟ لقد افتضح

أمري! حينها، أجاب إيفستافييه إيفانوفيتش قائلاً: «لم يسبق له من قبل أبداً، أن كان موضوع شكوى، في يوم من الأيام. سيرته نظيفة ونموذجية، ويحصل على مرتب كافٍ، يطابق القوانين المنظمة...». «إذن، ألا يمكنك أن تسعفه قليلاً، بأن تقدّم له سلفاً مقدماً عن راتبه؟!»، قال صاحب المعالي. «لكنه تمتع عدّة مرات بهذا الحق، يا سيدي، ردّ إيفستافييه إيفانوفيتش، بل وسبق له أن تقاضى هذا الشهر جزءاً كبيراً من راتبه، على سبيل السلفة المقدَّمَة. له من دون شك، بعض المشاكل الشخصية. إلا أن سلوكه ظلّ إلى اليوم حسناً، ولم يلاحَظ عليه أيّ شيء بالكل، ممّا لا يسرّ». شعرتُ بلفحة حرٍّ شديدة تلفحني يا ملاكي الصغير، وكأنّ سعيراً ما كان يلسع وجهي! خارت قواي، وأوشكْتُ على الوقوع مغشيّاً عليّ! «ينبغي مهما يكن إذن، أن تُستنسَخ الوثيقة من جديد، لكن على وجه السرعة، قال صاحب المعالي بصوت مرتفع. ديفوشكين! تعالَ عندي، ستعيد نسخ هذه الورقة، لكن من غير أخطاء هذه المرة. هل سمعت؟...». ثم التفت صاحب المعالي صوب الآخرين في تلك الأثناء، وأعطى لكلٍّ منهم أمراً مختلفاً، تفرّق على إثره الجميع. وما أن اختفى هؤلاء، حتى أخرج معاليه حافظة النقود من جيبه، واستلّ منها ورقة نقدية من فئة مائة روبل. «خُذْ، قال لي. أنا أمدّك الآن بما أستطيعه. اعتبره ما شئت. هيّا، خُذْ...»، ووضع الورقة النقدية بين يدي. ارتعش جميع أوصالي يا ملاكي، وشعرتُ بهزّة عنيفة تحركت لها روحي كلها. لم أعرف ما الذي حلَّ بي. أردتُ أن أمسك بيده كي أقبّلها، لكن وجهه قد احمرّ بشكل كامل، يا حمامتي، وأخذ يدي الحقيرة – وأنا هنا لا أحيد عن الحقيقة أبداً، يا عزيزتي – وأمسَكَ بها بين يده، وحرّكها. أجل، أمسك بها، وحرّكها، وكأني

ندّ له، وكأني جنرال مثله تماماً. «لقد فعلت ما بوسعي أن أقوم به، قال لي. فلا ينبغي عليك بعد اليوم، أن ترتكب الأخطاء. أمّا عن هذه المرة، فإن الله غفور رحيم!».

والآن، هنا ما قرَّرته يا أميمتي: أطلب منكِ أنت وفيدورا، أن تدعوا في صلواتكما لصاحب المعالي، مثلما سأطلب ذلك من أبنائي، لو كان لي ذلك، بمعنى أن تكون صلواتهم بهذه الكيفية: ألّا ترتكز دعواتهم على أبيهم، وإنما أن يدعوا لمعاليه في صلواتهم كل يوم، وإلى الأبد! وَلَسَوْف أضيف شيئاً آخر عن هذا يا أميمتي، وهو الأمر الذي سأقوله بكيفية فيها نوع من الاحتفالية الخاصة. لذلك، ألتمس منك الآن، أن تصغي إليّ جيداً، يا أميمتي: أقسم لك هنا، بأغلظ إيماني، بأني رغم ما عانيتُ منه كثيراً خلال الأيام القاتمة من مأساتنا الفظيعة، ورغم الأحزان العميقة التي استبدَّت بقلبي، حينما كنت أفكر فيك، وحينما تابعت بأسى قاتل جميع مآسيك، وحينما استوعبت بعمق حادّ وضعيتي المأساوية الخاصة، والمَهانة والعجز اللذين كنت عرضة لهما؛ أقسم لك أنني رغم هذا وذاك، لم أشعر بالفرحة الغامرة نتيجة الورقة المالية، التي كانت من فئة مائة روبل، بقدر ما فرحت بقوّة شديدة للشرف الذي حظيت به، حين أمسك صاحب المعالي بيدي الوضيعة، يدي أنا هذا الكائن القزم الحقير، هذا الكائن السّكير الذي لا يعادل في الحقيقة، سوى قشة يابسة! بهذا السلوك، ردّ إليّ احترامي لنفسي. بهذا، أعاد الحياة من جديد لروحي، وجعل حياتي تغدو لطيفة إلى أبد الآبدين. وقد اقتنعتُ بشدة، انطلاقاً من هذه اللحظة، بأنني مهما كنت ذلك الآثم الكبير في أعين الربّ، فإنّ دعائي بهناء وسعادة صاحب المعالي أثناء الصلاة، سوف يصل لا محالة إلى سدّته العالية!...

أميمتي! أعيش الآن لحظة اضطراب عاطفي رهيبة، لحظة ارتجاج داخلي قوية! وجيبُ القلب متصاعد، وكأنّ قلبي بذلك يريد أن يفرّ خارج القفص الصّدري. وأجدني أشعر أنا بالذات، بضعفٍ جسديّ تام. أبعثُ إليك رفقته، بخمسة وأربعين روبلاً ورقياً. سأعطي لربّة البيت عشرين روبلاً، وسأحتفظ لنفسي بخمسة وثلاثين، أنفق منها عشرين في شراء ما ينبغي أن أرتديه، وسَيَفْضل لدي منها خمسة عشر روبلاً، سأنفقها في حاجيات يومي الضرورية، لكن جميع هذه الانفعالات التي تعرّضت لها صبيحة اليوم، قد روّعتني بشكل عميق، وزعزعت كياني كله. سأنام قليلاً كي أستريح. زيدي على ذلك، أني هادئ الدواخل بشكل كبير. هناك روحي التي يبدو بأن الانفعال قد كسّرها فقط، وأشعر بها هنا في عمق كياني، ترتجف وترتعش وتتحرّك. سآتي لزيارتك. لكني أشعر هذه اللحظة، وكأني تائهٌ، أو لعلّي ربما سكران، بفعل تلك الانفعالات جميعها... إنّ الربّ لَمُطّلع على كلّ شيء، يا أميمتي. الربّ مطّلع على كلّ شيء يا صديقتي الصغيرة، التي لا تقدّر صداقتها بأي ثمن!

صديقك المخلص،

ماكار دييفوشكين.

10 سبتمبر.

عزيزي ماكار ألكسييفيتش!

أنا في غاية من الغبطة والسرور لتلك السعادة التي تشعُر بها، وأدركُ كيف ينبغي على المرء تقدير تلك الأخلاق الرفيعة، التي يتحلى بها رئيسك، يا صديقي. بهذا الأمر إذن، صار بمقدورك أن

تتذوق القليل من طعم الطمأنينة والسكون الآن، بعد كافة ما عانيته من آلام. لكن، أتضرع إليكَ بحق السّماء، ألّا تُعيد سيرة تبديد المال، في غير ما يدخل في الضرورة. عِشْ حياة هادئة ومتواضعة ما أمكن لكَ ذلك، واتخذ ابتداء من اليوم، قرار توفير ما تستطيع توفيره، حتى تتفادى مواجهة المتاعب والمصاعب غير المتوقعة، إنْ هي فاجأتك مرة أخرى. أما بالنسبة لنا، فرجاء، لا تشغل بالك بمشاكلنا. إننا سوف نعرف، فيدورا وأنا، كيف ينبغي لنا أن نخرج من الورطة التي نعيشها، بكيفية أو بأخرى. ما كان يتعين عليك أن تبعث إلينا بمبلغ كبير جداً، مثل ذلك الذي بعثتَ به إلينا، يا ماكار ألكسييفيتش! نحن لا نحتاج إليه، بالمرة! نحن قانعتان بما نملكه، ولا نسعى إلى المزيد. صحيح أننا سنكون عمّا قريب في حاجة إلى بعض المال، حتى نغادر هذه الشقة، إلّا أن فيدورا ستقبض في القريب، مبلغاً مستحقاً لها منذ أمد قديم جداً. ومع هذا، فإني سأحتفظ لنفسي بالعشرين روبلاً، تحسُّباً لكافة الطوارئ التي من شأنها أن تقع. أما الباقي، فأعيده إليك. وفّر أموالك يا ماكار ألكسييفيتش، وثِقْ في ما أقوله. الوداع، الآن. بمقدورك أن تتمتع منذ الآن، بحياة هادئة. لذلك، اعتنِ بنفسك، وكن منشرحاً وفرحاً. كان بودّي أن أكتب إليك رسالة تكون أطول من هذه، لكني أشعر بتعبٍ فظيع. لقد اضطررتُ البارحة إلى البقاء في السرير، طوال النهار برمّته. أشكرك لكونك وعدتني بالزيارة. زُرْني يا ماكار ألكسييفيتش، فإن زيارتك لي ستجعلني أشعر بمتعة كبيرة.

ف. د.

11 سبتمبر.

عزيزتي الغالية فارفارا ألكسييفنا!

أناشدك الله ألاّ تنفصلي عنّي الآن، يا عزيزتي، وألّا تتركيني في هذه اللحظة التي صرتُ فيها سعيداً بحياتي، على الوجه الأكمل. صديقتي! لا تصغي إلى ما تسديه إليك فيدورا من نصائح وتوجيهات، واعلمي أني سأقوم بكلّ ما سيروق لك. سأنضبط في سلوكي بشكلٍ تام، وسأتصرف تصرفاً حسناً في كلّ شيء، وسأكون نموذجاً يُحتذى به في حُسن السيرة والسلوك، تقديراً منّي لصاحب المعالي المحترم؛ وَلَسَوْف نتبادل سوية، أنا وأنت، رسائل مفعمة بالسعادة، يبوح فيها كلّ واحد منا للآخر، بِفَيْض أفكاره ومسرّاته وانشغال باله، إذا ما كان هناك بعض ما سيشغل البال. ولَسَوْف نعيش معاً، في توافق وسعادة وهناء، وسنهتم بالأدب... يا ملاكي الصغير! إنّ مصيري كله قد تغيّر، وقد تغيّر في الاتجاه الأفضل. صارت صاحبة البيت على سبيل المثال، متساهلة وليِّنة القناة معي، وغدت تيريز أقل بلاهة ممّا كنت أعتقد، وفالدوني ذاته أصبح أكثر حركية ونشاطاً. وقد تصالحت مع راتازاييف. ذهبت في غمرة الفرح الذي ألمّ بي إلى زيارته في شقته، أنا نفسي. فهو لعلمك يا أميمتي، شاب طيب حقاً، أمّا ما بلغني عنه من سوء، فإنه لا يعدو أن يكون مجرد كذب وتلفيق. لقد تمكّنت من الاقتناع الآن، بأنّ كلّ ذلك لم يكن سوى افتراء واغتياب محض. إنه لم يفكر في جعل علاقتنا معاً قط، موضوع رواية من رواياته الساخرة، وقد طمأنني هو بالذات. قرأ عليّ بعض الصفحات، من آخر مؤلَّف كتبه. أما لقب لوفلاس الذي لقّبني به في المرة السابقة، فلم يكن بالمرة سبّة، أو لفظة غير لائقة. لقد شرح لي معنى ذلك اللقب، وقال إنها لفظة مقترضة من

إحدى اللغات الأجنبية، وتطلق على الشخص الذي يمتلك حسّ الجرأة والطلاقة، أو أنها تعني بتعبير أدبي أفضل: «الشخص الذي يتميّز كثيراً عن الآخرين بكفاءات يُدركها هو بالذات». هذا هو المعنى الحقيقي لتلك اللفظة! وعليه، فإنها لم تكن تتضمّن أية إشارة إلى معنى آخر فيه غمز مشين. لقد كان الأمر يتعلق وحسب، بمجرد مزحة بريئة ومسالمة، يا ملاكي الصغير. ولأني لم أكن سوى امرئ فظّ وجاهل، فقد ارتكبتُ حماقة التهجّم على الرجل، بسبب تلك الكلمة. إلا أن الأمور الآن، قد عادت إلى نصابها مع راتازاييف، لأني اعتذرتُ له... إنّ الجو جميل جداً اليوم، يا فارينكا، إنه جميل ورائع للغاية! لقد انتشر بالفعل بعض الصقيع الخفيف في الصباح، مصحوباً ببعض الرذاذ، إلّا أنّ ذلك ليس بشيء ذي بال. إنّ الجو في المقابل، صار رطباً أكثر. لذلك خرجت لشراء حذاء طويل، فاقتنيتُ أحسن الأحذية. بعد ذلك، قمت بنزهة في شارع نيفسكي. وقرأتُ عدداً من أعداد «النحلة الصغيرة». آه، نعم! لقد نسيت أن أحكي لك الأهم.

ها هي ذي التفاصيل: هذا الصباح، تحدَّثت عن صاحب المعالي مع إيميليان إيفانوفيتش وألكسيينتي ميخائيلوفيتش. أجل، يا فارينكا. يبدو أني لست الوحيد الذي تعامل معه صاحب المعالي بتلك الطريقة الكريمة. لستُ الوحيد الذي تمّ إكرامه؛ وإنما الجميع يعرف مدى الطيبة ونُبل القلب، اللذين يتميَّز بهما صاحب المعالي. كثيرون هم أولئك الذين يمدحون فعله في عدّة مكاتب، ويذهبون حتى إلى ذرف الدموع، امتناناً وعرفاناً منهم لجميل فعله، وهم يتحدثون عن أياديه البيضاء الكريمة. لقد آوى في بيته إحدى اليتيمات، وحرص على مستقبلها، وزوّجها من رجل مهم يشتغل

عنده، وأدمجه في إحدى الإدارات، ليعمل فيها موظفاً إدارياً. كما أنه اضطلع بأعمال خيرية أخرى عديدة. وبعد أن علمت بكل هذا، رأيت أنه من الواجب عليّ يا أميمتي، أن أمدح كريم الفعل الذي نلته من صاحب المعالي أنا أيضاً، فانبريتُ أحكي للجميع ما فعله من أجلي معاليه، بصوتٍ مرتفع. لقد حكيتُ لهم الحقيقة كاملة، دون الإبقاء على شيء طيّ الكتمان. قذفتُ بالخجل عرض الحائط، وحكيتُ لهم كلّ شيء. ولماذا الخجل في مثل هذه المواقف؟ ثم ما دخل الكرامة هنا؟ لا، على مثلي أن يرفع عقيرته لمدح الفعل الجليل، الذي لقيه من صاحب المعالي! تحدّثت بحرارة وحماسة، وكنت عوض أن أخجل، فخوراً بكوني أحكي ما أحكيه. لم أتستر على أيّ شيء (إلّا عليك فقط، سكتُّ عن ذكر سيرتك يا أميمتي، في نوع من الحيطة والحذر!)، لكني تحدثتُ عن صاحبة البيت، وعن فالدوني، وراتازاييف، والحذاء الجديد، وعن ماركوف كذلك. لقد تحدَّثت باختصار عن كلّ شيء، عن كلّ شيء على الإطلاق. ابتسم البعض منهم حقاً، في لحظة من اللحظات، إلا أنهم جميعاً ابتسموا في الحقيقة، أو ضحكوا ضحكاً خفيفاً. لعلّ هؤلاء قد وجدوا في هيئتي، أو في وجهي، أو حكاية الحذاء الجديد، شيئاً ممّا يبعث على الضحك؛ أجل، إنها حكاية الحذاء الجديد بالتحديد، التي أضحكتهم، لأنه يستحيل عليهم أن يكونوا قد ضحكوا عن سوء نية مبيَّتة. إنهم ضحكوا لكونهم شباناً، والشباب يضحك بسهولة؛ أو لعلهم ضحكوا كذلك، لأنهم أغنياء. إلا أنهم لم يتمكنوا من الضحك فقط، لكونهم بيّتوا سوء النية ضد أقوالي، وسخروا ممّا حكيته عن معاليه؛ لا، هذا أمر مستبعد جداً، ليس في مقدورهم أن يفعلوه. أليس كذلك، يا فارينكا؟

إلى حدّ الآن، لم أستطع أن أستعيد كامل قواي، يا أميمتي. لقد أربكتني هذه الأحداث جميعها، ارتباكاً عنيفاً. فهل لديك ما يكفي من حطب التدفئة؟ خذي حذرك من الزكام يا فارينكا، فالمرء في مثل هذا الجو، سرعان ما يُصاب بنزلة البرد! آه، من أفكارك السوداوية القاتلة، يا أميمتي! لو تعلمين كم أدعو لك في صلاتي! فأنا لا أقضي الوقت الطويل إلّا في الدعاء لك، يا أميمتي! بالمناسبة، هل لديك جوارب الصوف الطويلة، أو بعض الألبسة الداخلية الدافئة، بشكل عام؟ كوني حذرة من هذا الجو، يا أميمتي. فإذا كنت في حاجة إلى أيّ شيء، فلا تكتمي أُناشدك الله، عن هذا العجوز، فتتسببين بفعل ذلك، في إهانته. التجِئي إليّ، دون شعور بالحرج. إنّ الأيام العصيبة قد ولَّت. لا تهتمي لأجلي، ولا تشغلي بالك كثيراً. إن المستقبل لَضاحكٌ ومشرق في وجهنا، ولن تكون لنا منذ الآن، سوى أيام سعيدة ورائقة.

لكن، ما أصعب تلك اللحظات الحزينة، التي كنا قد عشناها يا فارينكا! إنما ذلك لم يعُد مهماً، لأنها صارت جزءاً من الماضي. ولن نعود حتى إلى تذكرها، في ما بعد. إنني أتذكر الآن، سنوات شبابي. يا لذلك الزمن! كنت أجدني من غير كوبيك واحد، أعاني قسوة الجوع والبرد، إلّا أنّ ذلك لم يكُن يحُوْل بيني وبين الفرح، الذي ظلّ يغمر كياني كله. كنت أقوم في الصباح، بنزهة على قارعة شارع نيفسكي، فيحدث لي أن أصادف خلال تلك النزهة وجهاً لطيفاً ومليحاً، يملأني بشحنة من السعادة، تمتدّ بداخلي طيلة النهار كله، إلى غاية المساء. لقد كان ذلك زمناً جميلاً، زمناً جميلاً حقاً، يا أميمتي! كان العيش ممتعاً يا فارينكا، خاصة في بيترسبورغ. لقد ركعت متضرعاً إلى الله بالأمس، نادماً عمّا اقترفته، وتائباً له،

وملتمساً منه الصَّفح والغفران، عن كافة الآثام التي جنيتها على نفسي، خلال الفترة القاتمة من عمري، بما في ذلك همهمات التذمر التي كانت تصدر عني، والأفكار المتحللة التي ظلَّت تستبد بذهني بين الحين والحين، وأعمال الفسق والفجور والرذيلة والسخط، التي بدرت منّي. وكنت أثناء صلاتي ودعائي، قد فكّرت فيك بحنان وعطف. أنت وحدك يا ملاكي، مَن شدّ أزري وقوّاني، أنت وحدكِ من سرّى عني وواساني؛ لقد كانت نصائحك الحكيمة زاداً ثميناً لي. لن أنسى أبداً ذلك، يا أميمتي. لقد قبّلت اليوم كافة رسائلك، الواحدة تلو الأخرى، يا عزيزتي! الوداع الآن، يا أميمتي. سمعت مَن يقول إن هناك، في محل غير بعيد عن هنا، زيّاً قديماً معروضاً للبيع. سأستعلم عن الأمر. الوداع إذن، يا ملاكي. الوداع. صديقك المخلص بعمق.

ماكار ألكسييفيتش.

15 سبتمبر.

عزيزي ماكار ألكسييفيتش،

أنا في حالة اضطراب فظيعة. اسمع إلى ما حدث لنا. وينبغي لي أولاً أن أشير إلى أني كنت أحدس بإمكانية وقوع شيء وخيم، من مثل ما وقع، قبل هذا اليوم. لك الآن يا صديقي الفذّ، أن تحكُم بنفسك. إنّ السيد بويكوف يقيم حالياً في بيترسبورغ. فيدورا صادَفته. كان على متن عربة، فلمّا رآها توقَّف، واقترب منها، وأراد أن يعرف منها أين تسكن. وبما أنها رفضت أنْ تجيبه، قال لها وهو يبتسم بكيفية ساخرة، إنه على علم مسبق بمَن يسكن معها. (بديهي أن تكون أنّا فيدوروفنا قد حكَت له كل شيء). حينها، لم تستطع

فيدورا أن تتحكّم في نفسها، فشرعت تسبّه وتشتمه أمام مرأى ومسمع جميع مَن كان في الشارع، متهمة إياه بأنه عديم الأخلاق، وأنه سبب جميع المآسي والمصائب التي تكالبت عليّ. أجابها هو مقرّاً بأنّ المرء يحزن بالطبع، حين يكون من غير مال. عندئذٍ، ردّت عليه فيدورا بأنه كنت سأعرف كيف سأتصرف في حياتي، لأنجح في عملي، وبأني كنت سأتزوج، أو أجد على الأقل مكاناً آوي إليه، في حين أنّ سعادتي الآن قد ضاعت إلى الأبد، بالإضافة إلى كوني مريضة، وقد أموت عمّا قريب. تدخل هو في هذا الصدد، لافتاً نظر فيدورا إلى أني ما زلت في ريعان الشباب، وبأنّ رأسي لا تزال وعاء لأفكار تغلي، وبأنّ «فضائلنا قد عَلَتْها الندوب والأثلام»، وكانت هذه عبارته، مثلما تلفَّظ بها. اعتقدنا - فيدورا وأنا - أنه لا يعرف عنواننا، إلا أنه البارحة، لما خرجتُ كي أتسوق في محلات غوستيني ديور، سرعان ما تسلل إلى غرفتنا، على حين غرة. يبدو أنه لم يكن يأمل في العثور عليّ بالبيت. ألقى على فيدورا الكثير من الأسئلة، بخصوص طريقة عيشنا، وفحص كل ما نملكه بشكل دقيق، واهتمّ بعملي كخيّاطة. وسأل بغتة، في النهاية: «مَن يكون ذلك المستخدم الذي تربطكما به علاقة؟». وحدث أن كنت أنتَ تجتاز فناء الدار، فعرّفتك عليه فيدورا، في تلك اللحظة. تطلّع نحوك، وابتسم إليك. توسلت إليه فيدورا كثيراً، ملتمسة منه الانصراف، وهي تردِّد بأن الأحزان قد فتكت كثيراً بصحتي، وبأني سأجد من غير السّار أن يكون قد تجرأ، فزارنا في البيت. بعد برهة من الصمت، قال إنه جاء من تلقاء نفسه، لأنه لم يجد أي شيء آخر يفعله، وأنه راغب في إعطاء فيدورا خمسة وعشرين روبلاً. إلا أنها بالطبع، لم تقبل منه ذلك. فما الذي كان سيعنيه حقاً ذلك؟ ثم لماذا جاء

لزيارتنا؟ أنا لا أدري كيف استطاع أن يستعلم عن كلّ ما يخصنا. لقد تهت في زوبعة التخمينات. قالت فيدورا بأن أكسينيا، كنّته التي تأتي لزيارتنا، تعرف الغسّالة أناستازيا، وأن ابن عمّ أناستازيا يشتغل حالياً حارساً في الوزارة، التي يعمل فيها كذلك صديق لابن أخ أنّا فيدوروفنا. لعلّ هذه ربما هي السلسلة التي قد تكون قطعتها الإشاعات، إلى أن وصلت إلى السيد بويكوف! ومن المحتمل جداً كذلك، أن تكون فيدورا قد أخطأت؛ وليس لنا سوى أن نتكهّن. هل من الممكن أن يعود إلى زيارتنا مرة أخرى؟ هذه الفكرة لوحدها ترعبني! حين حكت لي فيدورا ذلك يوم أمس، كنت في غاية من الذعر والرعب، حتى كدت أتعرّض للإغماء. تُرى، ما الذي يريدون القيام به أيضاً، فوق جميع ما فعلوه؟ أنا لا أريد أن أبقى بعد الآن، على معرفة بهم! ما الذي يدفع بهم إلى الاكتراث لحالي، أنا الشقية التعيسة؟! آه، ما أشدّ المخاوف التي تغمرني الآن! أتوقع على الدوام أن يدخل عليّ بويكوف، بين كل لحظة وأخرى. تُرى، كيف سأغدو حينها؟ ما الذي يهيئه لي القدر أيضاً؟ أناشدك الله يا ماكار ألكسييفيتش، أن تأتي لزيارتي الآن. تعال، رجاء، تعال.

ف. د.

18 سبتمبر.

أميمتي العزيزة!

وقع في بيتنا اليوم حادث، بقدر ما هو حزين للغاية، بقدر ما ظلّ غير قابل للتفسير، وغير متوقع أيضاً. إنّ صاحبنا غورشكوف المسكين (ويجب أن أذكّرك بهذا يا أميمتي، ضمن هذا السياق)، تمّت تبرئته من التهم التي كانت منسوبة إليه، بصفة نهائية وتامة. لقد

بتَّت المحكمة في حالته منذ فترة زمنية طويلة، إلا أن تنفيذ القرار القضائي، لم يتمّ إلى غاية اليوم. هكذا انتهت القضية بالنسبة إلى صاحبنا، نهاية مُرضِية وسعيدة. لقد تمّ إنصافه بشأن جميع الأمور الأخرى المنسوبة إليه، حتى مع إقرار المحكمة بثبوت حالة الإهمال. كما أنها اعترفت بحق صاحبنا في الدّين، الذي أنكره التاجر، فحكمت على هذا الأخير بتأدية المبلغ المهم المستحق لديه. وبهذا، تحسّن الوضع المادي لصاحبنا المسكين، إلى جانب وضعه الاعتباري، فاستجاب قرار المحكمة النهائي لجميع أمانيه وانتظاراته.
لقد عاد اليوم إلى البيت على الساعة الثالثة، وكان وجهه مضطرباً وشاحباً، وكانت شفتاه ترتعشان، إلّا أنه ظلَّ يبتسم. قبّل زوجته وأولاده، وهرعنا جميعنا إلى غرفته، كي نهنئه. تأثر كثيراً لما بدر منّا، وراح يسلم من كلّ ناحية، وصافحنا جميعنا أكثر من مرة. وقد بدا لي أنه كَبُرَ أكثر حتى، وانتصبت قامته، وما عادت الدموع المألوفة تهيمن على عينيه. كان المسكين كثير الحركة وشديد الاضطراب! لم يستطِع المكوث في مكانٍ واحد، كما أنه ظلّ يتناول جميع ما تقع عليه يده، ثم سرعان ما يتركه، وهو لا يكفّ عن تحية الجميع والابتسام لهم، والجلوس والوقوف، ثم الجلوس مرة أخرى، وترديد كلام غير مفهوم، من قبيل: «شرفي... الشرف... سمعتي... أولادي... صيتي بين الناس...». وَلَكَمْ ظلّ يردِّد ذلك! ثم بلغ به الأمر في لحظة من اللحظات، أن شرع في الإجهاش والبكاء. ترقرق الدمع في أعين أغلبنا، فقال له راتازاييف، وقد رغب في أن يشدّ من أزره، دون شك: «ماذا يعني الشرف يا ابن وطني، حين لا يجد المرء ما يأكله؟ المال يا ابن وطني، المال هو الأهم... وهذا هو ما ينبغي أن تحمد الله عليه!»، وكان يربّت على ظهره، في الآن نفسه.

وفي تلك الأثناء، لاحظتُ بأن غورشكوف قد استاء، وامتعض. أنا لا أقول بأنه أظهر عدم رضاه بشكل واضح، لكنه حملق في راتازاييف بكيفية غريبة، ونزع يد هذا الأخير التي كانت تربّت عليه؛ وذلك أمر ما كان يقدر على فعله من قبل، يا أميمتي! على كلّ، طباع الناس وأمزجتهم تختلف. أنا على سبيل المثال، لن أظهر أيّ شيء من الاعتداد بالنفس، في مثل هذه اللحظة المغمورة بالسعادة. ألا يحصل لنا مثلاً يا عزيزتي، أن نُبدي أكثر ممّا لا ينبغي، من التواضع والاحترام والتبجيل، لا بسببٍ آخر سوى الإسراف في طيبة القلب وحسب، وهو الأمر الموكول إلى الإفراط في حساسية المرء الروحية؟!... إنما، لنترك هذا الآن، فالأمر لا يتعلق بي أنا في هذا السياق! «أجل، ردّ غورشكوف. المال مدعاة للغبطة والسرور كذلك... الحمد لله! الحمد لله!». وطوال المدّة التي قضيناها عنده، لم يكن يكرِّر سوى عبارة: «الحمد لله! الحمد لله!...». ثم طلبت منه زوجته تهيئة طعام عشاء أفضل وأوفر من العادة، إلّا أنّ صاحبة البيت هي التي تكلّفت بإعداد الطعام بنفسها، من أجلهم، لكن غورشكوف لم يستقرّ قبل أوان العشاء، للحظة واحدة في مكانه. زار جميع السكان في غرفهم، دون أن يكترث لرغبتهم أو عدمها في استقباله بينهم. كان يدخل عليهم، ويبتسم، ويأخذ مقعداً، ويردّد كلمة أو كلمتين، وفي بعض الأحيان لا يردد أي شيء على الإطلاق، ثم يخرج. لدى ملازم البحرية، ذهب به الأمر إلى حدّ تناول أوراق اللعب من اللاعبين، فدعاه الحاضرون إلى مشاركتهم في لعبة رباعية. أخذ يلعب، لكنه ارتكب عدّة أخطاء، ثم غادر اللعب بشكل مباغت، بعد ثلاث أو أربع جولات، وهو يقول: «لا، لم تكن إلّا... لم أكن أرغب سوى في...»، ثم غادر. وقد صادفني في الممر،

وأمسك بكلتا يدي، وحملق في عيني بكيفية غريبة لبعض الوقت. وبعدما ضغط على يدي، ابتعد عني، وظلّ يبتسم، لكن ابتسامته كانت تتضمن شيئاً ثقيلاً، وتخلّف في نفسية كلّ من يراها، شعوراً غريباً وكأنها ابتسامة ميّت. كانت زوجته تبكي من شدّة الفرح. لقد غمر الفرح بيتهم هذه المرّة، فعمّه ما يشبه فرحة العيد. تناولوا عشاءهم بكيفية سريعة، وقال غورشكوف لزوجته بعد ذلك: «اسمعي يا عزيزتي، أنا أريد أن أستريح قليلاً»، ثم اتجه إلى السرير. نادى على ابنته، ووضع راحة يده على رأسها، ومسَّد شعرها لمدة طويلة. بعد ذلك، قال لزوجته من جديد: «وأين ابننا بيتنكا، إذن؟». رسمت المرأة علامة الصليب في الهواء، وأجابت أنه مات. «أجل، أجل، أنا أعرف كل شيء. بيتنكا الآن في عالم الأموات». أدركت زوجته على الفور، بأنه ليس على ما يرام، فأردفت تقول له: «عليك أن تنام، يا عزيزي». «أجل، هذا أفضل... حالاً. سأغفو بعض الوقت». ثم التفت في الحين إلى الجهة الأخرى، وبقي جامداً على تلك الحال بضعة دقائق، عاد بعدها إلى تغيير وضعه، وقد أراد أن يقول شيئاً ما: «ماذا هناك، يا صاحبي؟»، قالت زوجته التي لم تسمع جيّداً، ما قاله. إلا أنه لم يُجِبْ. انتظرت لبضعة ثواني، ثم قالت في نفسها لعلّه نام. بعد ذلك، تركته وخرجت لزيارة ربة البيت، كي تقضي برفقتها بعض الوقت. وحينما عادت رأت بأنّ زوجها لا يزال نائماً، وقد تمدَّد فوق السرير دون أن تندّ عنه أية حركة. ظنت أنه نائم، فجلست على إحدى الأرائك، ثم انخرطت في عمل يدوي. قالت إنها كانت غارقة طوال تلك المدة، التي جلست خلالها فوق الأريكة، غارقة في أفكارها وتأملاتها، وأنها لم تعُد تتذكر حتى ما كانت تفكر فيه. ذكرت فقط أنها غفلت عن كلّ شيء حولها، حتى

زوجها بالذات لم تتذكره، في تلك الأثناء، لكن إحساساً بالقلق وانشغال البال انتزعاها على حين غرّة من شرودها، وقد هالها على الخصوص ذلك الصمت المريب، الذي كان يسود أجواء الغرفة، وهو شبيه بصمت القبور. أرسلت نظراتها صوب السرير، فرأت بأنّ زوجها لا يزال يتخذ الوضعية نفسها. اقتربت منه، ورفعت عنه الغطاء، فأدركت في تلك اللحظة بأنّ جسمه قد برد، منذ وقت سابق. لقد مات، يا أميمتي! غورشكوف مات، مات فجأة، وكأن صاعقة ما نزلت عليه، فأردته قتيلاً. لكن، ما سبب موته؟ الله وحده يعلم السبب. لَكَم هدّني ذلك الحدث الجلل كثيراً، يا فارينكا، إلى حدّ أنّي ما زلت إلى الآن، لم أستعد وعيي لذاتي! لا يستطيع المرء أن يتصوّر بأن بمقدور الإنسان أن يمرّ على حين غرّة، من عالم الأحياء إلى عالم الأموات. يا لغورشكوف المسكين! ما أشقاه من مصير! شرقت زوجته في دمعها، وتملّكها ذعر لا يوصف، بينما تجمّدت البنت الصغيرة في زاوية من الغرفة، وبقيت هناك بلا حركة. ثمة حركة لا تنقطع من الذهاب والإياب في غرفتهم؛ وقد راج في البيت كله خبر مفاده أن تحقيقاً طبياً سيُفتح في الموضوع... لا أستطيع أن أضيف المزيد من التفاصيل، لكن هذا وحده كفيل بأن يجعلني أتألم. أواه! لكم يؤلمني هذا الأمر! من المحزن أن يفكر المرء في أنه بالفعل سيموت، دون معرفةٍ دقيقة باليوم والساعة... وبأنه قد يموت - هكذا - ميتة بلهاء، في اللحظة التي لا ينتظر فيها أن يموت، أبداً...

صديقك المخلص،

ماكار ديفوشكين.

19 سبتمبر.

الآنسة فارفارا ألكسييفنا،

أسارع إلى إخبارك بأن صديقي راتازاييف قد اقترح عليّ القيام بعمل، لفائدة أحد الكتاب. زاره هذا الكاتب في بيته، وحمل له أثناء الزيارة مخطوطاً ضخماً، وهو ما يعني أنه لن ينقصني - ولله الحمد - ما سأقوم به من عمل! إلا أن المؤسف له هو أن ذلك المخطوط مكتوب بخطٍّ يستعصي على القراءة، ممّا دفعني إلى التساؤل عن الكيفية التي سأتوصَّل بها إلى فكّ رموزه المستعصية. هذا من جهة، أما من جهة أخرى فقد اشترط عليّ أن تكون النسخة جاهزة في أجَلٍ ضيق، لأنّ الأمر مستعجل. إنّ المواضيع التي يعالجها الكاتب كثيرة جداً، حتى إني لا أفهم أي شيء منها... وقد اتفقنا على أن أتقاضى أربعين كوبيكاً، مقابل كل ورقة مُنجزة. كل هذه التفاصيل التي ذكرتها لك يا عزيزتي، تستهدف غاية واحدة وهي أن أخبركِ بأني من الآن فصاعداً، سأكسب مالاً وفيراً. أما الآن، فالوداع، يا أميمتي. سأنكبّ على العمل المطلوب، بسرعة.

صديقك المخلص،

ماكار ديفوشكين.

23 سبتمبر.

صديقي الغالي جداً

ماكار ألكسييفتش،

لم أكتب لك يا صديقي أي شيء، منذ سبعة أيام خلت، لاقيت أثناءها الكثير من المنغصات والمشاكل والقلاقل.

قبل الأمس، زارني بويكوف. كنت في تلك الأثناء وحيدة،

بينما كانت فيدورا بالخارج. فتحتُ الباب، فاستبدّ بي فزع شديد لرؤيته، حتى إني لم أقوَ على التحرُّك من مكاني، الذي كنت أقف فيه! شعرتُ بشحوب لوني، بينما هو كان يضحك كدأبه ضحكاً مدوياً، بعد أن دخل، وأخذ كرسياً، ثم جلس. مكثتُ لوقت طويل وأنا على تلك الحال من الذهول، دون التمكُّن من استعادة وعيي في الحين. وفي النهاية، انتحيتُ ركناً قصيّاً من الغرفة، وانهمكتُ في عملي. توقف هو بعد ذلك، عن الضحك. أعتقد بأن مظهري قد صدمه. وَهنَ مني الجسد كثيراً في الأيام الأخيرة، وغار خداي وعيناي، وشَحُبَ لوني، حتى صار مثل لون الورق الذابل... لا شك أنّ مَن لم يَرَني منذ سنة، سيجد عنتاً شديداً في التعرّف عليّ. تفحّصني بنظراته لفترة طويلة، ثم استعاد مرحه، بعد انتباه وتركيز كبيرين. ذكر شيئاً على سبيل افتتاح الحديث بيننا، إلّا أني لم أعُد أذكر بماذا أجبته، فأخذ يضحك. استغرقت زيارته ساعة كاملة، تحدث معي خلالها، وطرحَ عليّ الكثير من الأسئلة. وفي الأخير، وقبل أن ينسحب، أمسكني من يدي، وقال (وسأعيد عليك كلامه كما هو): «فارفارا ألكسييفنا! ينبغي أن أشير - بيني وبينك - إلى أنّا فيدوروفنا، قريبتك وصديقتي الحميمة، هي امرأة حقيرة ودنيئة». (ثم أضاف تعبيراً آخر، بعدما شعر بأنّ ما استعمله لم يفِ بالغرض). «لقد أضلّت ابنة عمّك كذلك، ودفعت بك أنت أيضاً إلى الضياع. ثم سلكت من جهتي أنا كذلك، في هذه الظروف، مسلكاً منحطاً ودنيئاً، وكأني جبان وبائس. لكن، ما العمل؟ إن هذه المسألة عادية ومبتذلة، يجري الأمر بها كل يوم!». بعدما أتمّ هذا، دوّى فمه بضحكة مجلجلة. ثم أضاف في ما بعد، بأنه غير خبير في إلقاء الخطب الطنّانة، وبأن ما هو أساسي، وما يتعين أن يُقال، وما هو

من الواجب الذي يُلزم الإنسان النبيل بعدم السكوت، قد قيل والسلام. وأما ما تبقى، فينبغي اختصاره في القليل من الكلمات. حينها، صرّح لي بأنه يُعيد عليَّ طلب الزواج، ويعتقد أنّ من الواجب عليه إسعادي، وبأنه غني، وبأنه سيرافقني بعد ليلة الزفاف إلى قريته، حيث ينوي اصطياد الأرانب، في تلك البرية؛ وبأنه لن يعود من جديد إلى بيترسبورغ أبداً، لأنها مدينة مقزِّزة ومملَّة وغير نظيفة؛ وبأن له هنا في المدينة، ابن أخ خسيساً - بحسب تعبيره الخاص - أَقسَمَ على أنْ يجرِّده من الإرث، وألّا يترك له أي شيء؛ وأن هذا على الخصوص، هو الذي دفع به إلى طلب يدي للزواج، مثلما أشار في معرض كلامه، بمعنى أنّ له النية في إنجاب ورثة شرعيين من صلبه، وهو الأمر الذي دفع به أساساً إلى البحث عني، والرغبة في الزواج مني. ثم أضاف بعد ذلك، بأني أعيش في فقر مدقع، وبأنه ليس من المدهش أن أمرض، ما دمتُ أعيش في مثل هذا الكوخ الحقير؛ وقد تكهَّن لي بموت محقق، إذا ما أصررتُ على البقاء هنا، على هذه الكيفية. وأشار في معرض الملاحظة، إلى أنّ البيوت في بيترسبورغ موبوءة وملوثة، وسألني على سبيل الختم، إن كنتُ في حاجة إلى شيء ما.

لقد أدهشني اقتراحه بشكلٍ كبير، إلى حدّ أني أخذتُ أجهش وأبكي، دون أن أعرف سبب ذلك، أنا بالذات. اعتبر دموعي امتناناً واعترافاً مني بفضله، فقال لي إنه مقتنع دائماً بكوني فتاة طيبة وحسّاسة ومتعلّمة، لكنه لم يتَّخذ قراره مع ذلك بشأن هذه الخطوة، إلّا بعد أن استعلم عن سيرتي الحالية، بكيفية مفصّلة ودقيقة. بعد ذلك سألني عنكَ، فقال إنه على علم بكلِّ شيء بيننا، وأنك شخص خلوق وذو مبادئ نبيلة؛ وبأنه لا يودّ البقاء مديناً لك بشيء ما،

فسألني في النهاية إنْ كان مبلغ خمسمائة روبل كافياً لتعويضك عن جميع ما قمتَ به لأجلي. قلت له إنّ ما فعلته من أجلي، لا تستطيع أموال الدنيا كلها أن تعوضه. حينها، ردّ علي قائلاً إن كافة ما قلته هو من قبيل العبث، وبأنه ضرب من الخيال القصصي الخالص، وأضاف بأني ما زلت صغيرة السنّ، وأعشق قراءة الأشعار والروايات، وبأن القصص تهلك خيال الفتيات، وأن كتب الخيال لا فائدة ترجى منها، وبأنها ليست سوى مفسدة حقيقية للأخلاق، وأنه يكره بشكل عام، جميع أصناف الكتب. ثم أوصاني بالانتظار إلى أن أكبر قليلاً في السنّ، لأستطيع الحكم على الناس حكماً قويماً. «حينها، ستعرفينهم على حقيقتهم»، أضاف. ثم قال بعد ذلك بأنه يتعين عليّ التفكير بنضج في اقتراحه، وبأنه قد يعدّ من غير الملائم، اتخاذ قرار حاسم في مسألة لها مثل ما لهذه من الأهمية، بمجرد الاندفاع غير المتَّزن؛ وأكّد أن الجنوح إلى التهوّر والطيش يدفعان الشباب الغفل إلى الضياع والخسران؛ في حين أنه يرغب بقوة في أن يحظى مني بجواب إيجابي. وفي حالة وقوع عكس ما كان يتوقعه، سيكون مضطراً إلى الزواج من تاجرة بموسكو، لأنه أقسم بأغلظ أيمانه، مثلما كرّر على مسمعي، بأن يجرّد ابن أخيه الوغد من الإرث. ورغم ممانعتي، ترك وراءه مبلغ خمسمائة روبل، أكرهني على قبوله من أجل شراء الحلوى، كما قال. وأكّد بأني لن ألبث، وأنا في الريف معه، أن أسمن مثل فطيرة محشوة، وبأني سأعيش في كنفه برخاء وهناء. ثم أنهى كلامه قائلاً: «والآن، أنا مشغول بشكل لا يُتصوّر. إنّ لي مشاغل كثيرة تجعلني أنطنط طول النهار، بحيث إنني قد لا أتمكن من توفير الوقت لزيارتك مرة أخرى، إلا إذا استغلّيت فرصة محدودة جدّاً تقع بين موعدين مهمّين». وعلى إثر ذلك الكلام، غادر.

لقد فكرت طويلاً في ما بعد، يا صديقي. تأمَّلت في جلية الأمر إلى ما لا نهاية، وانتقلتُ من رأي إلى آخر، حتى عانيت كثيراً من تقليب المسألة في رأسي، كي أهتدي إلى رأي نهائي، أقرّ عليه في الأخير. وقد استقر رأيي على الزواج منه يا صديقي، لأني رأيت أنّ من أوجب الواجبات القبول باقتراحه. فإذا كان ثمة من إنسان يستطيع محوَ العار الذي التصق بي، ويجعلني أحظى باسم يشرِّفني، ويُبعدني عن الفقر، ويَحُوْل بيني وبين البؤس والشقاء والحرمان، فإنه لن يكون سوى هذا الإنسان. فماذا بودّي أن أنتظر إذن، من المستقبل؟ ماذا أستطيع أن ألتمس من القدر كذلك؟ تقول فيدورا بأن على المرء أن يحسن استغلال الفرص، التي من شأنها أن تحقق له السعادة. كما تقول كذلك... لكن، ما هي السعادة إذن، قبل هذا وذاك؟ أنا لا أجد بالنسبة إليّ على الأقل، أي منفذ من شأنه أن ينقذني من هذه الوضعية التي أرزح تحت ثقلها، يا صديقي الغالي. فما العمل، إذن؟ لقد هدّ الشغل صحتي، كما أني لا أستطيع أن أشتغل بالاشتغال نفسه، بصفة متواصلة. فهل أعمل ضمن عائلة من العائلات؟ في هذه الحالة، قد يقتلني الحزن. ثم إني إلى جانب ذلك، لن أليق بأيّ أحد، فصحَّتي عليلة وهزيلة بسبب المرض، وسأكون دائماً عالة على الآخرين، بسبب ذلك. إن الوضع الذي قَبِلْتُ به، لن ينفذ بي إلى الجنّة بالتأكيد، إنما ما العمل يا صديقي؟ ماذا بوسعي أن أفعل؟ ثم هل لي متسعٌ ما لأختار؟

أنا لم أسْتَشِرْكَ في الموضوع. أردتُ أن أرجع إلى نفسي أنا بالذات، كي أحسم الأمر. إن القرار الذي أفصحتُ لك عنه قرار نهائي، ليس فيه رجعة. سأُشْعِرُ به بويكوف على وجه السّرعة، لأنه ما انفكّ يستحثني على الردّ عليه بصفة نهائية. يقول إنه مضطر إلى

السّفر، وأن أشغاله لا تنتظر، وبأنه لا يمكنه إرجاء البث في تلك الأمور إلى مواعيد لاحقة، لمجرد أسباب واهية. الله وحده يعلم ما إذا كنت سأسعد هناك أم لا؛ على كل حال، مصيري موضوعٌ اليوم بين يدي المشيئة الإلهية المقدّسة، وقد قضي الأمر. يُقال إن بويكوف رجل طيّب، سوف يقدّرني، ويحترمني، وقد أكنّ له ربما، التقدير والاحترام نفسهما كذلك. فهل ينتظر مَن هو في مثل وضعنا، أن يلقى أكثر من هذا؟

لقد أطلعتكَ على كلّ شيء، يا ماكار ألكسييفيتش. أنا متأكّدة من أنك ستتفهّم حزني كله. لا تحاول أن تثنيني عمّا قرّ عليه قراري. ستؤول جهودك كافة إلى الفشل، إذا حاولت. لذلك، حاول بالأحرى أن تزن في دخيلة قلبك، جميع ما دفع بي إلى اتخاذ هذا القرار. لقد كنت في البداية مضطربة الدواخل بشكل كبير، غير أني صرت الآن أكثر هدوءاً. ترى، ما الذي يخبئه لي المستقبل؟ لست أدري. ليكن ما سيكون؛ أنا سأفوّض أمري لله!...

لقد وصل بويكوف؛ لذلك، أترك الرسالة من غير خاتمة. لديّ المزيد من الأمور، التي أودّ لو أني أقول لك عنها. إن بويكوف هنا!

ف. د.

23 سبتمبر.

فارفارا ألكسييفنا، أميمتي،

أنا الآن، أبادر إلى الردّ على رسالتك بسرعة، يا أميمتي؛ وأبدأ بالقول بأني وقعت في الذهول، يا أميمتي. كل هذا أمر غريب ومتناقض... بالأمس، وارينْا جثمان غورشكوف التراب. أجل، يا فارينكا. إن الأمر لكذلك، يا فارينكا. تصرّف بويكوف بشهامة ونُبْل.

إنما في ما يخصّك أنت وحسب، أتقبلين بهذه السرعة؟! بالتأكيد، أقدارنا بيد الله. كذلك هو الأمر، وكذلك ينبغي بالضرورة أن يكون؛ بمعنى أن مشيئة الله نافذة، وإنها لَمَشيئته هنا، من دون شك. كما أن العناية الإلهية عادلة وعميقة من غير شك، ولا يمكن أن يدرك المرء كنهها؛ وكذلك مصائرنا أيضاً، هي مثل عنايته الكبرى. بويكوف يريد لك السعادة، وأنا متأكد من ذلك. من البديهي أنك ستكونين الآن سعيدة يا أميمتي، وبأنك سوف تعيشين في اليسر والرفاهية يا عزيزتي، ويا ملاكي الصغير؛ إنما، لِمَ كل هذه السرعة، وحسب؟ المشاغل، أجل، أنا أعرف، المشاغل... بويكوف مشغول بالتأكيد، لكن مَن ذا الذي يعيش في هذا العالم، ولا تشغله المشاغل إذن؟ من الممكن أن يكون بويكوف مشغولاً، كالآخرين... ولقد رأيته لمّا خرج من عندك. إنه رجل وقور، وقور للغاية؛ وقد أذهب حدّ القول إنه مفرط في الوقار، على وجه التقريب. إنما لا يكمن الأمر في هذا وحسب، إنه لا يتعلق بمجرد معرفة ما إذا كان الرجل وقوراً، أو لا؛ ثم إن فكري الآن مضطرب، ولا أكاد أعثر على الأفكار المناسبة، بسهولة. هناك على الخصوص هذا الأمر: كيف سنصنع الآن، لنكاتب بعضنا البعض؟ وأنا، أنا إذن، هل سأبقى منذ الآن وحيداً؟ أجل يا ملاكي الصغير، لقد وزنت كل شيء، ووضعت كل شيء في الاعتبار، كما طلبت مني أنت بالذات، لقد وزنت كل شيء في دخيلة قلبي، وزنت كافة تلك الأسباب والدواعي، التي حدثتني عنها. لقد كنت على مشارف الانتهاء من استنساخ الصفحة العشرين، فإذا بهذه الأحداث تقع على رأسي!

أنتِ على وشك السفر يا أميمتي، ولا شك أنه يلزمك القيام بمجموعة من المقتنيات للتهيؤ للسفر، بما في ذلك الأقمشة

والأحذية؛ ولهذا بالضبط، أنا أعرف محلاً يقع في شارع غورهوفايا. هل تذكرين كيف وصفته لك من قبل؟ كلاّ؟! فكيف يحدث هذا معك، يا أميمتي؟ في ماذا تفكرين؟ ليس بإمكانك أن تغادري الآن. هذا مستحيل، مستحيل بشكل كلي ومطلق. يلزمك القيام بالكثير من المقتنيات، وستكونين بحاجة إلى عربة، وإلى طاقم من المساعدين. زيدي على ذلك أنّ الجو رديء جداً! انظري إذن إلى السماء، إنها تُمطر بغزارة، وهو مطر رطب، إلى جانب... إلى جانب أنك ستصابين بنزلة برد، يا ملاكي الصغير. سيصاب قلبك بنزلة برد! عجباً! أنتِ التي شدّ ما خفت من الغرباء، تقررين المغادرة؟! إنما مَن ذا الذي سيبقى لي هنا، بالله عليك؟! هل سأضطر إلى البقاء هنا، وحدي؟ أي، نعم! أكّدت لك فيدورا بأنك ستعرفين السعادة، هناك... لكن، ألا ما أقسى قلب تلك المرأة، التي ترغب في ضياعك! هل ستحضرين موعد الصلاة هذا المساء، يا أميمتي؟ سآتي لرؤيتك فقط، في موعد الصلاة. صحيح جداً يا أميمتي، صحيح جداً أنك فتاة متعلِّمة وذات أخلاق فاضلة ومشاعر حساسة، لكن من الأفضل له في نظريَ، أن يتزوج من تلك التاجرة! فماذا ترين أنت في هذا الأمر، يا أميمتي؟ حريّ به أن يقع اختياره على تلك التاجرة، وأن يتزوّجها إذن. سآتي لزيارتك يا فارينكا، ما أن يحلّ الظلام؛ سأقضي عندك بعض الوقت. لقد أخَذَت الأيام الآن في القِصَر، لتحلّ الظلمة في وقت مبكر، وسوف أمرّ عليك مع حلول الظلام. في هذه الأثناء، تنتظرين بويكوف، لكن ما أن يغادر، حتى... انتظريني يا أميمتي، سأزورك هذا المساء...

ماكار ألكسييفيتش.

27 سبتمبر.

صديقي ماكار ألكسييفيتش،

يرى السيد بويكوف بأن عليّ بشكل حتمي، أن أوفر ثلاث دزينات من القمصان المصنوعة من الجوخ الهولندي. وبهذا، صار يتعين عليّ إذن، أن أجد خياطتين على وجه السرعة، كي أخيط الدزينتين اللتين حدثتك عنهما، لأن ما تبقى لي من الوقت قليل جداً. لقد نفد صبر السيد بويكوف، ويقول إن حكاية القمصان قد طالت كثيراً. سيتمّ زواجنا بعد خمسة أيام، وسنسافر بعد ليلة العرس مباشرة. إن السيد بويكوف يرغب في تسريع الأمور، ويقول إننا لسنا في حاجة إلى تضييع الوقت في مثل هذه الترّهات. أنا منهكة القوى بسبب جميع هذه المنغصات، وبالكاد أستطيع أن أقف على رجلي. لدي الكثير من الأمور، التي ينبغي لي تسويتها، ولكم أحببتُ ألّا أكون مضطرة إلى كل ذلك. بالمناسبة: ليس لدينا ما يكفي من الدانتيلا والقماش المشبَّك، وبذلك صار من الواجب علينا أيضاً أن نقتني ما ينقصنا من ذلك، لأن السيد بويكوف يقول إنه لا يرغب بالكل، في رؤية زوجته ترتدي لباساً أشبه ما يكون بلباس الطبّاخات، وبأن من الضروري «إخراس أفواه جميع النساء المتزوجات من ملاكي الأراضي المجاورة». إنها عبارته الخاصة. لهذا، أرجو منك يا ماكار ألكسييفيتش، أن تذهب للبحث عن السيدة شيفون بشارع غورهوفايا، وأن تلتمس منها رجاء، أن تبعث لنا بخياطات إلى البيت، وأن تتفضل هي الأخرى بقبول الدعوة لزيارتنا. أنا اليوم مريضة. تعمّ برودة شديدة بين أرجاء شقتنا الجديدة، التي تسودها فوضى رهيبة. إن عمّة السيد بويكوف لكبيرة جداً في السنّ، حتى إنها لا تكاد تتنفّس إلا بصعوبة ومشقة، من

جراء ذلك. أخشى أن تموت في كل وقت، قبل مغادرتنا، لكن السيد بويكوف يقول بأنها لا تعاني من أي شيء، وبأنها ستستعيد قواها. تعمّ فوضى عارمة في البيت كافة. وبما أن السيد بويكوف لا يعيش معنا، فإنّ الخدم يتغيَّبون، أو يختفون في أمكنة لا يعلم بها إلا الله. ويحدث أن تبقى فيدورا وحدها، في خدمتنا بالبيت، بينما الخادم الخاص بالسيد بويكوف، الذي من واجبه أن يسهر على كلّ شيء، اختفى منذ ثلاثة أيام، دون أن يظهر له أيّ أثر. يأتي السيد بويكوف إلى زيارتنا كل صباح، ويزعق باستمرار غاضباً، وقد ذهب به الأمر أمس، إلى ضرب المكلف بإدارة شؤون البيت لدينا، ممّا تسبَّب له في بعض المشاكل مع الشرطة... ليس لدي أي شخص يمكنه أن يأتيك بالرسالة، لذلك أبعث بها إليك عبر البريد. أجل! كدتُ أنسى المهم. قل للسيدة شيفون أن من الضروري تغيير طبيعة ذلك القماش المشبك، بحيث تهتدي بالعيّنة التي رأيناها يوم أمس. واطلب منها أن تمرّ على البيت بنفسها، كي تقدّم اختيارها بين يدي. قلْ لها كذلك بأني غيّرت رأيي بخصوص الصّدار، وأنه بات يتعيّن عليها وشيه بالإبرة المعقوفة. آه! كدت أنسى: إن الحرفين الأولين من اسمينا، اللذين ينبغي تثبيتهما على المناديل، يجب طرزهما باستعمال الطّارة؛ هل فهمت؟ يتعيّن طرز الحرفين باستعمال الطّارة، وليس بالتقليب. انتبه إلى هذا الأمر جيّداً، ولا تنسَ أني أريد عملاً يتمّ باستعمال الطّارة! هناك أيضاً شيء آخر كدت أنساه: أوصها - أناشدك الله - بأن تضع على اللفّاعات عقداً من الخيط صغيرة، وأن تحيط الياقات بعد ذلك بالدانتيلا أو ببعض التزيينات المتسعة. قل لها كل ذلك، رجاء، يا ماكار ألكسييفيتش.

ف. د.

استدراك: لكَم أشعر بالارتباك الشديد، نتيجة هذا الهم كله، الذي أفرضه عليك فرضاً أنت أيضاً، حين أطلب منك قضاء مصالحي! لقد قضيت أول أمس النهار كله، في الطواف بين أرجاء المدينة، لتقضي مصالحي. لكن، ما العمل؟ ليس في شقتنا غير الفوضى، وأنا بالذات مريضة، وأعاني كثيراً. لهذا، لا تقلق مني، يا ماكار ألكسييفيتش! أنا جدّ قلقة. تُرى، إلى ماذا سيؤول مصير كلّ هذا يا صديقي، ويا عزيزي، ويا ماكار ألكسييفيتش الطيب؟! لا أجرؤ على تصوّر مستقبلي. أشعر دائماً بإمكانية وقوع شيء ما، وأعيش كأني بين حنايا الضباب.

استدراك آخر: أناشدك الله يا صديقي، بأن لا تنسى أي شيء ممّا سبق لي أن كلّفتك به. أخاف من أن تخطئ في شيء. لذلك، تذكّر: يتعيّن تطريز الحرفين الأولين من اسمينا باستعمال الطّارة، وليس بالتقليب.

ف. د.

27 سبتمبر.

الآنسة فارفارا ألكسييفنا!

نفّذت كافة طلباتك، بدقة. قالت السيدة شيفون إنها رأت من تلقاء نفسها أن تطرز ذلك بالاعتماد على الطّارة، وأن ذلك مناسب جدّاً ولائق. فهل الأمر كذلك؟ لست أدري، لأني لم أفهم جيّداً. وثمة مسألة التزيينات أيضاً. إنما أنا نسيت يا أميمتي، ما قالته لي بذلك الخصوص. كلّ ما أذكره فقط، أنها تحدثت كثيراً؛ يا لها من امرأة ثرثارة! حول ماذا كان يدور حديثها الطويل، إذن؟ لم أعد

أذكر. زيدي على ذلك أنها ستحدِّثك هي بنفسها، عن كل شيء. إني أشعر صراحة يا أميمتي، وكأني تائه. وقد بلغ بي الأمر اليوم حدّ تخلّفي عن العمل. صدّقيني يا عزيزتي، إذا قلت بأنك مخطئة في ما تشعرين به من يأس. وإني لمستعدٌّ كذلك، في سبيل المساهمة في تهدئتك، للطواف حول المحلات التجارية بالمدينة كافة. قلتِ في رسالتك إنك لا تستطيعين تصوّر ما قد يحدث لك في المستقبل؛ فلماذا كل هذا الكلام إذن، ما دمت ستعرفين كل شيء اليوم، قبل حلول الساعة السابعة مساء؟! إن السيدة شيفون بنفسها ستأتي إليك. لذلك، لا ينبغي لك أن تيأسي؛ أرجوك، حافظي على شعلة الأمل في قلبك، يا أميمتي. لعل كل شيء سيتمّ تدبيره على الوجه الأفضل، مثلما أقول لك. أما ذلك القماش المخروم، ذلك القماش المخروم اللعين، فسُحقاً له ولأمثاله كافة! كنت أودّ زيارتك يا ملاكي الصغير، كنت أنوي المرور عليك في زيارة إلى بيتك، كنت يقيناً سأدخل عليك، وقد بلغ بي الأمر مبلغ الاقتراب إلى باب شقتك، لمرّتين متواليتين؛ إلا أن ذلك المدعو بويكوف - عذراً، كنت أودّ أن أقول: السيد بويكوف - قد بدا لي بمظهر الحانق والكثير الغضب... لذلك، لم أجازف... وإذن، ماذا بعد؟

ماكار ألكسييفيتش.

28 سبتمبر.

السيد ماكار ألكسييفيتش!

أناشدك الله أن تهرع بسرعة إلى تاجر الحلي والمجوهرات. بلّغه أن يعدل عن توشية الأقراط باللآلئ والزمرّد. فالسيد بويكوف

يرى بأن في ذلك إفراطاً في إبراز مظاهر الغنى والثراء، وبأن من شأن ذلك أن يكون على الخصوص، باهظ الثمن. إنه غاضب جدّاً، ويقول بأننا أنفقنا الشيء الكثير إلى حدّ الآن، وبأننا أوشكنا على الكساد. وقد بلغ به الأمر أمس، أن صرّح بأنه لو كان يستطيع أن يتوقع مثل هذا المعدّل من الإنفاق من قبل، لما وعدني بأي شيء. وقال إننا بمجرد عقد القران، سنسافر على وجه السرعة، ولن يكون هناك مدعوون، وأنه لا ينبغي لي أن أتوقع بأني سأرقص وأمرح، لأن حفلات نهاية السنة لا تزال بعيدة. بهذه الكيفية يتحدث معي! والله وحده هو الذي يعلم ما إذا كنت أنا في حاجة إلى كافة هذه الأمور! إن السيد بويكوف هو الذي حرص بنفسه على الإلحاح عليها، في البداية. أنا لا أجرؤ على الردّ عليه، لأنه سريع الغضب! تُرى ما الذي ستؤول إليه حياتي؟

ف. د.

28 سبتمبر.

عزيزتي فارفارا ألكسييفنا،

أقول - وأقصد أن صائغ الحلي يقول - إن كل شيء على ما يرام؛ أما أنا فإني كنت أريد أن أقول في مستهلّ هذه الرسالة، بأني مرضتُ، وصرتُ طريح الفراش. وكأن مرضي حدث عنوة، في هذه اللحظة العصيبة التي تراكمت فيها مجموعة من المشاغل المستعجلة، ووقعت فيها الحاجة الملحّة إلي. تبّاً لهذه النزلات البردية!.. كما يتعيّن عليّ كذلك أن أشير إلى أن آخر ما طفح بها دهاق المآسي، هو أن صاحب المعالي قد أبدى عزماً شديداً اليوم، من خلال مشهد الغضب الكبير الذي صبّه على إيميليان إيفانوفيتش؛

فقد أخذ معاليه في الصراخ والزعيق إلى أن خارت قواه، ولم يستطع المسكين أن يقوى في النهاية على أي شيء، لأن أنفاسه تقطَّعت. أريد أن أحدِّثكِ عن شيء آخر، لكني أخاف من أن أتسبّب لك في الإزعاج، لأني لست في نهاية المطاف يا أميمتي، سوى إنسان بسيط وغير متعلّم بما يكفي. أكتب لك - مثلما اتّفق - كل ما يعنّ لي، ومن الممكن أن تَجدي هذا غير جدير بالاهتمام. . . وإذن، ماذا بعد؟

ماكار ألكسييفيتش

29 سبتمبر.

عزيزتي فارفارا ألكسييفنا!

لقد التقيت اليوم بفيدورا، يا عزيزتي. أخبرتني بأن عقد القران سيتمّ غداً، وأنكم ستغادرون بعد غد، وبأن السيد بويكوف عمل من قبل على توفير الخيول، لهذه المهمة. أما بخصوص صاحب المعالي، فقد أخبرتك عما جرى له في رسالتي الأخيرة. آه، أجل! هناك شيء آخر ينبغي أن أشير إليه: لقد فحصت الفواتير الخاصة بمتجر شارع غورهوفايا، فلم أجد ثمة أي خطأ يُذكر، إنما وجدت بأن الأثمان مرتفعة جدّاً. فلماذا يغضب منك السيد بويكوف إذن، ويوجّه إليك اللوم؟ على كل حال، كوني سعيدة يا أميمتي. إن السعادة لَتغمُرني من أجلك، أجل، إني لأشعرُ بها كلما تصورتك سعيدة. لكم أودّ لو أني أستطيع بطيب خاطر منّي أن أحضر إلى الكنيسة، لكني لا أستطيع يا أميمتي، لأني أشعر بألم فظيع جهة الكلى. أعود مرة أخرى إلى مسألة التراسل، التي تقض مضجعي. من سيتكلف ليوصل رسائل بعضنا البعض، من الآن فصاعداً، يا

أميمتي؟ أجل، لقد كنت - بالمناسبة - كريمة جداً مع فيدورا، يا عزيزتي! وقد أحسنت صنعاً، نعم، أحسنت صنعاً. إنه لإحسان كبير، وعمل جليل من أعمال البر والخير، التي سيجازيك عنها الله. إن أعمال البر والإحسان لا يضيع لها أجر، كما أن صنائع الفضيلة ستكافئها العدالة الإلهية بأجرٍ غير ممنون، سواء في عاجل الأيام أم آجلها. أميمتي! هناك الكثير من الأمور التي أودّ التحدث إليك بشأنها. وقد أستطيع الكتابة إليك عنها في كل ساعة، وفي كل دقيقة، ودائماً! لا يزال لدي كتابك الذي يحمل عنوان: **قصص بيبلكين**. لكَمْ أتمنّى أن تتركيه في حوزتي يا أميمتي، أن تقدميه لي هدية، يا عزيزتي. ليس لأن لي رغبة عارمة في قراءته، ولكن لأن فصل الشتاء على الأبواب، مثلما تعلمين أنت بنفسك، يا أميمتي. ولسوف تكون الليالي طويلة، وقد أُصاب بالملل، وربما سأكون حزيناً؛ لذلك، أرغب في التسلي بقراءته. لقد قررت يا عزيزتي، أن أترك غرفتي الحالية، وأن أستقرّ في غرفتك القديمة، التي سأؤجرها من فيدورا. لن يفصلني عن هذه المرأة الشهمة، أي شيء أبداً، منذ الآن فصاعداً. زيدي على ذلك أنها امرأة نشيطة، وتحبّ العمل حبّاً كبيراً. لقد زرت الشقة التي غادرتها أمس، وفحصتها بعناية فائقة. كل شيء بقي في موضعه. منضدة الخياطة لا تزال في محلها، والثوب الذي كنت منكبّة على الاشتغال عليه، لا يزال في مكانه بزاوية الغرفة، لم يمْسَسْه أحد. تفحّصت في تطريزك على الثوب بعناية. لقد تركت كذلك بعض الأقمشة المتناثرة هنا وهناك. ولاحظت أنك لففتِ إحدى رسائلي بخيط. كما عثرت في درج من أدراج المنضدة على بعض الأوراق، التي كتب على إحداها هذه الجملة: «السيد ماكار ألكسييفيتش، أنا على أهبة. . .»، ولا شيء

بعدها. بديهي أن أحدهم قاطعك، في المحل الأشد أهمية من الرسالة. وفي زاوية أخرى من الغرفة، رأيت وراء الستارة سريرك الصغير... أواه، يا عزيزتي! الوداع، الآن. الوداع. وأناشدك الله أن تردّي على هذه الرسالة بكلمة منك، تكون كيفما اتفق، وأن لا تجعلينني أنتظر.

ماكار ألكسييفيتش.

30 سبتمبر.

عزيزي الغالي جدّاً، ماكار ألكسييفيتش!

قُضي الأمر، وتحدّد المصير، مصيري! أجهل ما ستؤول إليه الأحوال، لكني أخضع لمشيئة الربّ. سنغادر غداً. للمرة الأخيرة، أقول لك هنا: الودع، يا صديقي العزيز، يا من ظلّ يُحسن إليّ، يا أيها الصديق الذي لا تُقدّر محبته بأي ثمن! لا تحزن لشأني بعد الرحيل، وعِشْ سعيداً؛ فقط، تذكّرني؛ ولتحط بك العناية الإلهية! سأفكّر فيك كثيراً، كثيراً جدّاً، وسأذكركِ في صلواتي. ها قد انتهت الآن، مرحلة من مراحل حياتي. لا أحمل معي الكثير من الذكريات السعيدة، التي من شأنها أن تعزيني في حياتي الجديدة؛ لذا، ستكون ذكراك، وكل ما فعلته من أجلي، أثمن وأعذب ذكرى في حياتي الجيدة، ولن تزيد ذكراك في بؤبؤ القلب إلا رسوخاً واتساعاً. أنت صديقي الوحيد، والإنسان الذي أحبّني، هنا. لقد رأيت كل شيء، وتأكّدت من مقدار الحب الذي تكنّه لي. لقد ظل يسعدك، ويملأ قلبك بالفرح، مجرد ابتسامة واحدة مني، وسطر واحد ممّا أكتبه! ولقد حان الوقت الآن، الذي صار يتعين عليك فيه أن تتعوّد على فراقي. فما الذي ستصنعه بعد الآن، بحياتك المنذورة للوحدة؟ من

سيعتني بك يا صديقي الغالي والوحيد؟ أترك لك كتابي، والمنضدة التي كنت أستعملها للخياطة والتطريز، والرسالة التي بدأتها، ولم أُنْهِها. لسوف يكون في مقدورك، كلما نظرت إلى أسطرها التي لم تكتمل، أن تنهيها في قرار نفسك، بإضافة جميع ما ترغب في قراءته، أي جميع ما قد يكون في إمكاني حقاً أن أكتبه إليك؛ إذ لا يعلم إلا الله وحده ما قد أكتبه الآن إليك! تذكّر صديقتك المسكينة فارينكا، التي أحبّتك حبّاً كبيراً. إن جميع رسائلك قد بقيت في خزانة فيدورا، بالدرج العلوي. قلت لي إنك مريض، إلا أن السيد بويكوف لا يريدني اليوم أن أخرج إلى أي مكان. سأكتب إليك يا صديقي، وهذا وعد مني؛ إلا أن الله وحده هو الذي يعلم ما بإمكانه أن يحدث. وإلى هذا الحد، أقول لك الوداع يا صديقي، الوداع، وإلى الأبد!... أواه! ما أشد رغبتي الآن في تقبيلك! الوداع يا صديقي، الوداع، الوداع. عش سعيداً، واعتن بنفسك كثيراً. سأدعو لك في صلواتي، دائماً وأبداً! أواه! لكم أنا حزينة جداً في هذه اللحظة! ما أشدّ هذا الثقل الجاثم على روحي! إن السيد بويكوف ينادي عليّ.

صديقتك الأبدية، التي تكنّ لك المحبة والوداد الدائمين.

ف. د.

استدراك: إن روحي لتطفح بالأسى والحزن الكبيرين، حتى إنها لتفيض بالدمع... إن الدموع الحبيسة في داخلي، تخنقني. الوداع. ربّاه، لَكَمْ أنا حزينة! تذكّر صديقتك المسكينة فارينكا، وإياك أن تنساها!

فارينكا أميمتي، وملاكي الصغير، وعزيزتي!

إنهم يغادرون بك، وترحلين معهم. أواه! كان حريّاً بهم نزع قلبي من بين تجاويف صدري، على أن ينتزعوك منّي! ولكن، كيف كان بإمكانك أنت، أن توافقي على هذا؟ تُرى، أتبكين وأنت تغادرين؟ توصلت منك قبل قليل، برسالة مبللة بالدمع. هذا يعني إذن، أنك لا ترغبين في المغادرة، وأنهم إنما أجبروك على المغادرة بالقوة، وهو ما يعني بالتالي أنك تشفقين لحالي، وتحبينني! لكن، كيف ستعيشين الآن، ومع مَن؟ هناك، سيعاني قلبك الصغير من الضجر والحزن والملل والوحدة الروحية، معاناة كبيرة. سيخر القنوط قلبك الصغير، وسيحطِّمه الحزن. وستموتين هناك في تلك الأرض الرطبة والباردة والغريبة، ولن يكون هناك أي شخص ليبكي فقدانك! لن يكون للسيد بويكوف وقت لذلك. لن يهتم هو سوى بقنص الأرانب. . . أواه، يا أميمتي! لماذا اتخذت هذا القرار؟ كيف تسنّى لك البتّ في مسألة من مثل هذا القبيل؟ ماذا فعلت؟ ماذا ارتكبت؟ أي جريمة اقترفت في حق نفسك، أنت بالذات؟ إن ما ستجدينه هناك ليس سوى القبر؛ لَسوفَ يقتلونك، يا ملاكي الصغير. أنت هشة البنيان مثل الريشة تماماً، يا أميمتي. وأنا؟ أين كنت إذن، طيلة هذا الوقت؟ أين أنفقت وقتي، أنا الغبي، حتى لم أدرك ذلك إلا في هذه اللحظة؟ وعوض أن أعارض قرارك بكيفية تامة، ماذا فعلت؟ كلا، لست سوى مجرد غبي، غبي حقيقي لا يرى أي شيء، ولا يفكر في شيء؛ غبي يترك الأشياء تقع عليه من تلقائها، كيفما اتفق، وكأن لا شيء يعنيه؛ بينما ظلَّ يجري إما خلف ثوب مخروم، أو تطريز على الطّارة!. . . لا يا فارينكا، لن أسمح بهذا؛ سأنهض من فراشي، ولعلّي قد أتعافى في حدود الغد، وسيكون بمقدوري أن

أخرج. . . سألقي بنفسي تحت عجلات العربة، يا أميمتي، ولن أتركك تغادرين! كلاّ، أنت لم تفكّري في الأمر، مثلما كان عليك أن تفكّري، وإلا ماذا تفعلين في الحقيقة؟ بأي حق، أجل، بأي حق تفعلين ذلك؟ سأغادر معك، وسأركض خلف العربة التي تقلك، إذا امتنعتِ عن أخذي معك؛ سأركض بكلّ قواي إلى حدّ الإجهاد، وإلى آخر نفس. لكن، هل لديك فقط معرفة كافية بما ينتظرك هناك، في ذلك المكان الذي تسيرين باتجاهه الآن، يا أميمتي؟ ربما، أنت لا تعرفين عنه أي شيء. وإذن، سأتولى أنا في هذه الحالة، أمر فتح عينيك على ذلك! إنه البريّة الخالية يا عزيزتي، حيث لن تري حولك سوى البرية الجرداء والعارية من كل شيء، تمتد مثل راحة الكفّ إلى ما لا نهاية! وهناك، تعيش نسوة فلاحات ذوات طبع جلف وقلب غليظ، فلاحات متزوجات من الموجيك الجهّل والأفظاظ، الذين نراهم في كل وقت سكارى. الأشجار هناك، في هذا الوقت من السنة، تكون عارية من أوراقها تماماً؛ والسماء لا تكفّ عن الإمطار، والبرد يستبدّ بالأجواء؛ في حين تذهبين أنت إلى هناك! سيكون للسيد بويكوف ما يشغله باستمرار: اصطياد الأرانب، وذلك كافٍ ليشغل به نفسه. لكن، أنت. ما الذي ستفعلينه أنت، هناك؟ تريدين التمسّك بدور زوجة مالك أراضي كبير، يا أميمتي؟ لكن، مهلاً يا ملاكي الصغير: انظري إلى نفسك جيّداً، فهل أنت تشبهين زوجة من هذا النوع؟. . . إذن، كيف أمكن لكلّ هذا أن يقع، يا فارينكا؟ لمن سأبعث رسائلي، إذن، يا أميمتي؟ أجل، عليك أن تأخذي هذا الأمر في الاعتبار، وأن تتساءلي: «لمن سيبعث رسائله، إذن؟». مَن هذه التي سيكون بالمستطاع أن ألقبها بـ: «أميمتي»؟ مَن هذه التي ستحظى بهذا اللقب العذب والرطيب؟ وأين سأعثر عليك

بعد كل هذا، يا ملاكي الصغير؟ إني سأموت بفعل هذا الهجر يا فارينكا، سأموت بفعله، بالتأكيد! لن يتحمّل قلبي مثل هذا المصاب الجلل! لقد أحببتك مثلما أحببتُ النور الربّاني، وكأنك ابنتي التي خرجت من صلبي؛ أحببت فيك كل شيء يا أميمتي، وعزيزتي! بل أنا ما كنت أحيا إلا من أجلك، من أجلك أنت وحدك. لقد كنت أعمل، أنسخ الوثائق، وأخرج، وأذهب للتنزّه، وأبثّ انطباعاتي على شكل رسائل ورقية مفعمة بروح المودّة والصداقة؛ كنت أفعل كل هذا يا أميمتي، لأنك كنت تسكنين هنا بالجوار، أمام البيت. لربما كنت تجهلين هذا؛ إنما الأمور كانت كذلك! كلاّ، اسمعي ما سأقوله لك يا أميمتي، وفكّري فيه يا صديقتي الصغيرة الغالية: كيف يكون بمقدورك الآن، أن تغادرينا؟ هل هذا ممكن؟ كلا، يا صديقتي. لا يمكنك فعل هذا. إنه مستحيل. أنت لست في حالة تخوّلك القيام بهذا السّفر؛ ليس بمستطاعك الخوض فيه. هذا أمر مستبعد، مستبعد بشكل كلي ومطلق؛ انظري! إنها تمطر، وأنت في حالة من الضعف والهزال شديدة جداً، ولا شك أنك ستصابين بنزلة برد محتملة. لن تحميك العربة من المطر، إذ ستبتلّ، وسينفُذ البلل إليك، بالتأكيد! ثم إنها لن تصمد كثيراً في وجه هذه الأجواء، إذ ما أن تجتاز حدود المدينة، وتشرف على الضواحي، حتى تتحطّم. أتجهلين أنّ من يصنع العربات هنا، في بترسبورغ، لا يصنع هياكلها بكيفية جيدة وصلبة؟! أنا على معرفة جيدة بهؤلاء الصنّاع، الذين لا همّ لهم أكبر من أن يبدو الهيكل بمظهر جميل وجذاب وحسب، بينما الصلابة فإنهم لا يعبأون بها بالكل. أقسم لك أنّ تلك الهياكل سرعان ما تتكسّر، وكأنما هي مصنوعة من لا شيء! أميمتي، سأرتمي أمام قدمي السيد بويكوف، وأبرهن له على صحة كلّ ما قلته، وسأثبت

صحة ذلك! وستبرهنين له أنت على ذلك أيضاً، يا أميمتي، وستثبتين له ذلك، وستشرحين له اعتماداً على حجج وبراهين معقولة وحاسمة، بأن عليكما المكوث هنا، وأن السفر ضربٌ من المستحيل. . . آه، ليته تزوج من تلك التاجرة، التي تقطن بموسكو! كان عليه في الحقيقة، أن يذهب للزواج من تلك المرأة. كان سيلائمه الزواج من تلك التاجرة، كان سيلائمه ذلك كثيراً، وأنا أعرف سبب ذلك جيّداً. بينما كنتُ أنا سأحتفظ بكِ هنا، بالقرب مني. إنما من يكون بويكوف هذا، بالنسبة إليك، يا أميمتي؟ كيف صار عندك فجأة، غالياً وعزيزاً جدّاً. ألكونه يشتري لك الأثواب المخرومة غالية الثمن، ربما؟ أهذا هو السبب؟ إنما، ماذا يعني الثوب المخروم إذن؟ ولماذا يصلح؟ إنه يا أميمتي، مجرد ترهة من الترهات! الأمر متعلّق الآن، بحياة إنسان! بينما الثوب المخروم ليس سوى خرقة بئيسة وحقيرة، يا أميمتي! ثم إني إلى جانب كل ذلك، ما أن أقبض مرتبي، حتى أشتري لك جميع ما تريدينه، من أثواب وأثواب، سأشتري لك منها كمية هائلة جداً، يا أميمتي. أنا أعرف بعض المتاجر الصغيرة، التي تبيع ذلك. فما عليك إلا انتظار اليوم الذي سأقبض فيه مرتبي فقط، يا طفلتي الصغيرة، فارينكا! آه، ربّاه! ربّاه! أمصرّة إذن أنت، على مرافقة السيد بويكوف إلى تلك البراري؟ أقرّرت بصفة نهائية المغادرة، التي لا أمل في العودة معها؟ أواه، يا أميمتي! . . . لا، ما زلتِ ستكتبين لي، ما زلت ستبعثين لي ببعض الرسائل، لكي تخبريني عن كل شيء بالتفصيل، وحين تصيرين بعيدة، ستكتبين لي من هناك، أيضاً. وإلا صارت هذه هي الرسالة الأخيرة بيننا. والحال، كيف لها أن تكون الأخيرة؟ هذا مستحيل! لماذا سيتوقف التراسل بيننا بغتة، وتكون هذه هي الرسالة الأخيرة؟!

كلاّ، سأكتب لك، وستكتبين لي... انظري، كيف صار أسلوبي يتشكّل الآن... أواه، يا صديقتي! ما دخل الأسلوب هنا، في هذه اللحظة؟! أنا في هذه الأثناء بالضبط، لا أعرف ما الذي أكتبه... لا أعرف أي شيء بالكل. أنا لم أقرأ من جديد ما كتبته، ولا أرغب في تقويم أسلوبي، ولست أفكّر سوى في الكتابة إليك فحسب، والتحدث معك أطول فترة ممكنة... أواه، يا حبيبتي، ويا عزيزتي، ويا أميمتي!

الفقراء، العمل الأول لدوستويفسكي، هي الرواية التي جعلته على الفور اسماً مشهوراً ودفعت به فجأة إلى واجهة المشهد الأدبي الروسي.

وقد قال بيلينسكي، الناقد الروسي الشهير الذي يهابه الكتّاب، عن دوستويفسكي بعدما قرأ مخطوطة هذه الرواية: «هل تستوعب حقّاً أيها الشاب، كل تلك الحقيقة التي كتبتَ عنها؟ لا، أنت لن تقوى على إدراك ذلك وأنت في العشرين من عمرك. إنما الإلهام الفني، تلك الموهبة المستمدَّة من الأعالي، هي التي ألهمتكَ، فاحتَرِمْ فيك هذه الموهبة. ستصبح كاتباً كبيراً».

عبر التراسل بين الشخصيتين الرئيستين، موظفٌ مسن وفتاة فقيرة، يقصّ كل منهما للآخر أحداث حياته اليومية، تأخذنا هذه الرواية إلى عمق المجتمع الروسي في القرن التاسع عشر، بما فيه من معاناة وظروف قاهرة، وتغوص بنا في خضم مدينة بيترسبورغ وأحيائها الفقيرة، وتجعلنا نشعر بالمأساة المادية والمعنوية لهذا الشعب، حيث يعد كل من السيد ماكير والآنسة فارفارا نموذجين ناطقين بواقعه.

عبر هاتين الشخصيتين، يبلور دوستويفسكي ما سيصبح لاحقاً القاسم المشترك لرواياته: الشعب، الشعب الروسي، الروح الإنسانية، الروح الروسية، ويُظهر تعاطفه الكبير لفائدة أولئك المغلوبين الذين قهرتهم الحياة، أولئك الذين سيُطلِق عليهم في ما بعد تسمية «المذلون» و«المهانون».

ترجمة: أحمد الويزي



ISBN 978-9953-68-794-0
9 789953 687940

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

لوحة الغلاف لبيت موندريان